مكتبة دير السيدة العذراء
السريان

بركات الحياة الرهبانية

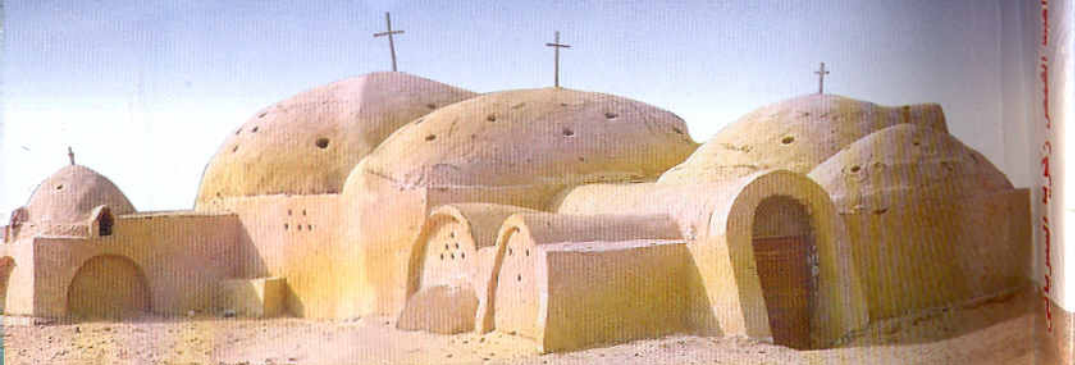

إعداد
الراهب القمص
زكريا السرياني

تقديم ومراجعة
نيافة الأنبا متاؤس
أسقف ورئيس دير السريان العامر

بين يديك - أيها القارىء العزيز - كتاب قيم بعنوان "بركات الحياة الرهبانية" تقرأ فيه عن الجهاد الروحى والحياة الروحية عامة وعن الحياة الرهبانية خاصة. فيه موضوعات كثيرة وهامة عن المحبة والفرح الروحى والسلام الإلهى والسكون ونقاوة القلب ووضوح الهدف، وكلها موضوعات هامة في الطريق الروحى المؤدى إلى الحياة الأبدية سواء داخل الدير أو خارجه.

الأنبا متاؤس
أسقف ورئيس دير السريان العامر

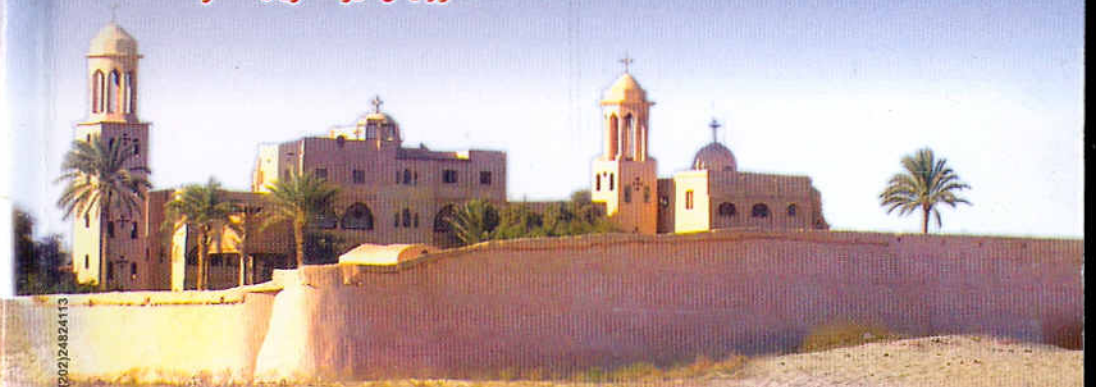

FINE CO. (202)24824113

مكتبة دير السريان العامر

تقدم

سمات الحياة الرهبانية

إعداد

الراهب القمص

زكريا السرياني

مراجعة وتقديم

نيافة الأنبا متاؤس

أسقف ورئيس دير السريان العامر

اسم المؤلف : زكريا السريانى
اسم الناشر : هانى إدوار
المطبعة : أمبريال - عابدين ت : ٢٣٩١٤٦٧٠
رقم الأيداع : ١١ / ٢٢١ / ٢٠٠٨

صاحب القداسة والغبطة

البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

نيافة الحبر الجليل الأنبا متاؤس

أسقف ورئيس دير السيدة العذراء السريان العامر

إهداء

✝ إلى أبي ومعلمي
كوكب دير السريان العامر،
وقمص برية شيهيت المقدسة،
وأبو مقار الجديد المتشبه بالإله،
يستر عيوب الناس ...

الراهب القمص متاؤس السرياني

✝ إلى من أصعد جسده بالتمام ذبيحة على صليب المرض، فتنسمه الله رائحة طيبة مقبولة.

✝ إلى من عشق الحياة الرهبانية وأحبها، فتجسدت في شخصه وصار مثالاً حياً للرهبنة في جيله.

✝ إلى من غمرني بحبه الأبوي، فتعلقت نفسي به وأحببته، وصار حبي له ينبع من حبه لي أولاً.

✝ أهدي هذا الكتاب، الذي هو بحق ثمرة من نتاج تعاليمه وإرشاداته وحكمته وروحانيته التي ارتوينا منها وتتلمذنا عليها.

✝ أُطلب من الرب عن أولادك الرهبان في دير السريان وفي كل مكان، حتى يعيننا كما أعانك.

باسم الآب والابن والروح القدس الله الواحد آمين

تقديم

بين يديك – أيها القاريء العزيز – كتاب قيم بعنوان **" بركات الحياة الرهبانية "** تقرأ فيه عن الجهاد الروحي والحياة الروحية عامة وعن الحياة الرهبانية خاصة. فيه موضوعات كثيرة وهامة عن المحبة والفرح الروحي والسلام الإلهي والسكون ونقاوة القلب ووضوح الهدف، وكلها موضوعات هامة في الطريق الروحي المؤدي إلى الحياة الأبدية سواء داخل الدير أو خارجه.

بذل فيه **الأب الموقر الراهب القمص زكريا السرياني** جهداً كبيراً ووضع فيه عصارة خبرته الروحانية والرهبانية. نشكر الكاتب على مجهوده ونرجو لهذه الثمرة المباركة أن تكون سبب بركة ونمو روحي للجميع.

بشفاعة أمنا العذراء القديسة الطاهرة مريم وصلوات أبينا المكرم صاحب القداسة البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث أب رهبان هذا الجيل.

ولربنا كل مجد وكرامة إلى الأبد آمين

الأنبا متاؤس

أسقف دير السريان العامر

٢٢ أغسطس ٢٠٠٨م
١٦ مسرى ١٧٢٤ش
} عيد إصعاد جسد السيدة العذراء مريم

مقدمة

الحياة الرهبانية هي كمال الحياة المسيحية، ولأن الحياة المسيحية حياة سماوية، فالرهبنة إذن سامية جداً. والراهب الذي يحياها يصبح بشراً سماوياً. لذا يُسمي الرهبان بشر سمائيين، وملائكة أرضيين. وهذا السمو في الحياة الرهبانية، جعلهم قريبين جداً من الله، فأحبهم وتعلقت نفسه بهم، حتى صيرهم بنين مُدللين له، واختارهم ميراثاً له. (مز ٤٧: ٤)، (مز ٣٣: ١٢).

ما أجمل البركات التي ينالها الراهب في حياته الرهبانية، يكفيه بركة وجوده في حضن الله أبيه كل حين، يطعمه الله من المن السماوي ويسقيه من ماء الحياة، ويأخذ منه بركات ونعم لا يسوغ لإنسان أن يتكلم عنها ويصوغها في تعبيرات عاجزة ومقصرة، لأن الكلام عن العسل شيء وتذوق العسل شيء آخر. فإن لم يحيا الإنسان الحياة الرهبانية الحقيقية، فلن يتذوق جمالها ولن ينل بركاتها. أما الراهب فقد صعد على شجرة الحياة التي هي ربنا يسوع المسيح، وصنع له موضعاً على أحد أغصانها، إن جاع يتغذى من ثمارها، وإن عطش يرتوي من عصيرها. كما تقول عروس النشيد " تحت ظله اشتهيت أن أجلس وثمرته حلوة لحلقي " (نش ٢: ٣).

الراهب هو الابن المحبوب عند الله أبيه، والذي تعلقت نفس أبيه به، مثل يوسف الذي أحبه أبوه يعقوب أكثر من سائر بنيه (تك ٣٧: ٣)، وتعلقت نفس أبيه به، فأعطاه أبوه نصيب اثنين، أما الراهب فأعطاه الله مائة ضعف في هذه الحياة والحياة الأبدية. (مت ١٩: ٢٩)، (مز ١٠: ٢٩، ٣٠)، (لو ١٨: ٢٩، ٣٠).

هذا الكتاب يتحدث عن بعض البركات التي يتمتع بها الراهب في حياته الرهبانية، والتي هي بحق عالم روحاني مليء بالأسرار، وأعمق مما يتصوره إنسان. لذا عندما بدأت في الكتابة عن الحياة الرهبانية، كدت أتوقف لأني وجدت نفسي تائهاً في نبع عميق، بل شعرت إنني أصغر من الدنو إليه، وسبر أغواره، لأني مهما كتبت عنها سأكون عاجزاً عن إيفاء حق هذه الحياة الجميلة. ولكني ما استطعت أن أكتم وأخبيء ما يجيش به قلبي من فرح وحب وفخر لهذا الطريق فتحرك قلمي دون إرادتي للإعلان عن بركات هذه الحياة. ولكن شكراً لله الذي أعان ضعفي على إكمال هذا العمل. واعترف أيضاً إنني لست شيئاً في الحياة الرهبانية، ولست محنكاً فيها، بل ما زلت طفلاً يحبو، ويتعلم منها كل يوم.

أقدم الشكر الجزيل **لنيافة الحبر الجليل الأنبا متاؤس أسقف ورئيس دير السريان العامر** الذي استقطع من وقته الكثير لمراجعة هذا الكتاب، **كما أقدم الشكر الجزيل للراهب الموقر القمص بيمن السرياني** الذي قام بمراجعة الكتاب لغوياً، كما أقدم الشكر لآبائي رهبان دير السريان الذين عضدوني في كتابته وتجميعه على الكمبيوتر. راجياً من الله أن يرافق روحه القدوس كلمات هذا الكتاب لتكون بركة لكل من يقرأها.

بشفاعة والدة الإله القديسة العذراء مريم وصلوات صاحب القداسة البابا المكرم الأنبا شنوده الثالث، أب رهبان هذا الجيل، وشريكه في الخدمة الرسولية نيافة الحبر الجليل الأنبا متاؤس أسقف دير السريان العامر.

ولإلهنا كل مجد وكرامة إلى الأبد آمين.

الراهب القمص

زكريا السرياني

(١)

المحبة الروحانية في المجامع الرهبانية

أولاً: محبة الله في حياة الراهب

١ — حياة الترك

٢ — الإماتة وحمل الصليب (الجهاد السلبي)

٣ — الجهادات والممارسات الروحية (الجهاد الإيجابي)

ثانياً: محبة القريب في حياة الراهب

١ — الجانب السلبي

٢ — الجانب الإيجابي

المحبة

المحبة في المسيحية هي قمة الفضائل وأعظمها كلها، وأية فضيلة تُمارس وهي خالية من المحبة، ليست لها قيمة عند الله. السيد المسيح أعلن عن عظمة المحبة، عندما سأله أحد الفريسيين قائلاً له: يا معلم، أية وصية هي العظمى في الناموس؟ فقال له يسوع: تُحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، هذه هي الوصية الأولى والعظمى والثانية مثلها تحب قريبك كنفسك، بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء (مت ٢٢: ٣٦ – ٤٠).

ويُعلمنا القديس بولس قائلاً " أما الآن فيثبت الإيمان والرجاء والمحبة هذه الثلاثة، ولكن أعظمهن المحبة " (١كو ١٣: ١٣) فالمحبة هي أعظم الفضائل كلها لأنها هي الله ذاته، كما قال يوحنا اللاهوتي " الله محبة " (١يو ٤: ٨، ١٦).

لذا ينبغي على كل إنسان مسيحي أن يُجاهد حتى الدم، في ما يقتني في داخله محبة الله ومحبة القريب كدستور لحياته اليومية. بالنسبة لله لتكن محبتنا من كل القلب ومن كل النفس ومن كل الفكر ويجب أن تسمو عن أية محبة أخرى، كما قال

السيد المسيح " إن أحب أحد أباً أو أماً أكثر مني فلا يستحقني، ومن أحب ابناً أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني " (مت ١٠: ٣٧).

أما محبة القريب، فينبغي أن تشمل الخليقة كلها، حتى للأشرار والأعداء الذين يضطهدوننا، كما قال السيد المسيح في الموعظة على الجبل " أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يُسيئون إليكم ويطرودنكم " (مت ٥: ٤٤).

وهناك قصة مع **القديس مكاريوس** تبين محبته حتى للأعداء:

قيل أن أبا مكاريوس المصري ذهب في إحدى المرات من الإسقيط إلى جبل نتريا، ولما اقترب من مكان معين قال لتلميذه: " تقدمني قليلاً ". ولما فعل التلميذ هذا، قابله كاهن وثني كان يجري حاملاً بعض الخشب، وكان الوقت حوالي الظهر. فصرخ نحوه الأخ قائلاً: " يا خادم الشيطان، إلى أين أنت تجري؟ " فاستدار الكاهن وانهال عليه بضربات شديدة، وتركه ولم يبق فيه سوى قليل نفس. ثم حمل ما معه من خشب وسار في طريقه.

ولما ابتعد قليلاً، قابله الطوباوي مكاريوس في الطريق وقال له: " فلتصحبك المعونة يا رجل النشاط. فاندهش الكاهن وأقبل

نحوه وقال " أي شيء جميل رأيته فيَّ حتى حييتني هكذا؟ " فقال الشيخ " إني أرى أنك تكد وتتعب وإن كنت لا تدري لماذا " فأجاب الكاهن " وأنا إذ تأثرت بتحيتك عرفت أنك تنتمي إلى الإله العظيم، ولكن هناك راهباً شريراً صادفني قبلك ولعنني، فضربته ضرب الموت " فعرف الشيخ أنه تلميذه. أما الكاهن فأمسك بقدمي القديس مكاريوس الطوباوي وقال له " لن أدعك تمضي حتى تجعلني راهباً "، وإذ سارا معاً وصلا إلى المكان الذي كان فيه الأخ مطروحاً، وحملاه وأتيا به إلى كنيسة الجبل. ولكن الإخوة عندما رأوا الكاهن الوثني مع المغبوط مكاريوس، تعجبوا كيف تحول عن الشر الذي كان فيه. وأخذه أنبا مكاريوس وجعله راهباً، وعن طريقه صار كثير من الوثنيين مسيحيين. وكان مكاريوس الطوباوي يقول " إن الكلمات الشريرة والمتكبرة تُحول الناس الأخيار إلى أشرار، ولكن الكلام الطيب المتواضع يحول الأشرار أخياراً ".

ومن هنا تظهر مسئولية المسيحي نحو الجهاد في تنفيذ وصايا الله في حياته، حتى يبلغ إلى الكمال المسيحي الذي أوصى به يسوع الجموع كلها، إذ قال لهم: " كونوا كاملين كما أن أباكم الذي في السموات كامل " (مت ٥: ٤٨).

فقد ينشغل المسيحي باهتمامات العالم، وقد يثقل قلبه في خمار وسكر وهموم الحياة (لو ٢١: ٣٤) أو يسعى باجتهاد نحو حب الظهور والمجد الباطل أو يكون هدفاً سهلاً للخطايا والعثرات المحيطة، كل هذه وأمثالها غالباً ما يكون حائلاً يعوقه عن تنفيذ الوصية، أو يجد صعوبة في البلوغ نحو الكمال ....

وقد تأخذ حيزاً في القلب بعض الاهتمامات الدنيوية من محبة الزوجة والأولاد أو محبة الأصدقاء أو محبة العمل والتجارة — مع كونها أشياء جيدة في ذاتها — **ولكن انشغال القلب بها كثيراً يؤدي إلى فتور محبة الله ومحبة القريب.**

وعلى النقيض من ذلك، نجد أن الراهب يستطيع — بنعمة المسيح — وقد ترك عنه العالم وأباطيله الفانية، أن يجد الطريق مفتوحاً للسعي نحو كمال المحبة، الذي إذا أدركه، وجد أمامه آفاقاً ممتدة طويلة " ملء قامة المسيح " وهنا يشبه من يسعى نحو الأفق، كأن تنطبق السماء بالأرض فإذا ما بلغ ما كان يسعى نحوه، وجد أمامه ما يفوق تصوره فيقول مع القديس بولس " ليس إني قد نلت أو صرت كاملاً لكني أسعى لعلي أدرك الذي لأجله أدركني أيضاً يسوع المسيح، أيها الإخوة أنا لست أحسب نفسي أني قد أدركت، ولكني أفعل شيئاً واحداً، إذ أنا

أنسى ما هو وراء وأمتد إلى قدام، أسعى نحو الغرض لأجل جعالة دعوة الله العليا في المسيح يسوع " (في ٣: ١٢ – ١٤).

ومع وجود هذا الفرق الواضح بين الشخص الذي يعيش في العالم، والراهب الذي يعيش في البرية، إلا أنه ينبغي على كل منهما أن يسعى نحو الكمال الذي أوصى به السيد المسيح للجميع، إلى أن تنطلق الروح من قيود الجسد التي تعوقها فتُدرك ما كانت تسعى نحوه في محبة كاملة أي الوصول إلى الله لأن الله محبة.

ونود هنا أن نُظهر نقطتين، مدى السمو في حياة الراهب، من ناحية **محبته لله** وأيضاً **محبته للقريب:**

أولاً : محبة الله في حياة الراهب

إن جوهر الحياة الرهبانية، ينطوي على أساس **محبة الله وإرضائه،** فهي بلا شك الدافع القوي والرئيسي، الذي يُحرك الراهب على ترك العالم واحتقار أباطيله.

بل يصل الأمر – في حالة المتوحدين – ليس إلى الانحلال من العالم فقط، بل حتى من الرهبان إخوتهم الذين يعيشون معهم في مجمع الدير، ليسكن الجبال والمغاير وشقوق الأرض، ليتمتع بمحبة الواحد فقط أي الله ... فيقول الكاهن في قسمة الصوم الكبير " الصوم والصلاة، هما اللذان عملا بهما الأبرار والصديقون ولباس الصليب، وسكنوا الجبال والمغاير وشقوق الأرض، من أجل عظم محبتهم في الملك المسيح ".

محبة الله هي التي تدفع الراهب، لإماتة كل ما في قلبه ونفسه، يحاول أن يبعده عن الله، وهي أيضاً وراء كل الجهادات، والإماتات والممارسات الروحية الكثيرة التي يمارسها في حياته اليومية كالصلاة والصوم والنسك و....

والراهب الذي يعيش في البرية، تنمو محبة الله في حياته كل يوم دون أن يشعر أو يدري بذلك، بل أنه غالباً ما يشعر في داخله أن محبة الله فترت في داخله، ولعل محبة الله له، هي التي

أدخلت في نفسه هذا الشعور، حتى لا يُحَارب من البر الـذاتي، وتكون سبباً في هلاكه.

وعلى الراهب أن يتدرج في محبته لله، فليس من الصالح له أن يقفز دفعة واحدة إلى أعلى، حتى لا يتسبب له ذلك في كـسرة خطيرة في حياته الروحية، أي في محبته لله. وعمل كثير من الآباء الرهبان على ذلك، إذ كانوا يتدرجون في اقتناء الفضائل، فـلا ينتقل الراهب من فضيلة إلى أخرى إلا بعد أن يمارسها ويتدرب عليها سنيناً كثيرة، وبعد أن يتأكد من ثباته فيها وإتقانـه لهـا، ينتقل إلى غيرها.

وكذلك كانوا يتدرجون في الفضيلة نفسها، فـلا ينتقـل الراهب إلى الدرجة الأعلى فيها، إلا بعد أن يتأكد انه أتقن مـا تدرب عليه، لذا كانوا ينبهون أولادهم ويحذرونهم من القفزات الروحية. لأن الفضائل التي يقتنيها المجاهد بـسرعة وسـهولة، سرعان ما يفقدها بسرعة وسهولة؛ أما الفضائل التي يقتنيها بعد تعب وعناء وجهاد كبير، لا يمكنه أن يفقدها بسهولة، بل تثبت معه وتُصبح جزءاً أساسياً في كيانه لا يُمكن أن يعيش بدونه.

وتظهر محبة الله في حياة الراهب في ثلاث نقاط:

١ – ترك العالم.

٢ – الإماتة وحمل الصليب (الجهاد السلبي).

٣ – الجهادات والممارسات الروحية (الجهاد الإيجابي)

(١) حياة الترك

الترك من أجل المسيح، هو مقياس الحب في حياة الراهـب، فكلما ترك كثيراً من أجل المسيح، كلما دلت على كبر محبته لله. والعكس صحيح، فمن كان قلبه ما زال متعلقاً بمحبـة العـالم، قلت محبته لله وصعبت عليه حياة الترك.

وأظهر آباؤنا الرسل، كم كانت محبتهم للسيد المسيح قوية، عندما تركوا كل شيء وتبعوه، فالقديس بطرس الرسول سـأل السيد المسيح وقال له " ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعنـاك " (مت ١٩: ٢٧) وعلى قدر ما كان الترك عظيماً على قدر ما كانت المكافأة جزيلة.

فالمرأة الخاطئة تركت خطاياها وارتباطها بالعالم، وجعلـت قارورة الطيب الكثير الثمن تتحدث عن حبها، ووقفت باكيـة عند قدمي يسوع، وابتدأت تبل قدميـه بالـدموع، وكانـت تمسحهما بشعر رأسها، وتقبل قدميـه وتدهنـهما بالطيـب، فاستحقت أن تسمع قول السيد المسيح " مغفورة لك خطاياك " وكان قول المسيح لسمعان الفريسي الذي أدانها " قد غُفـرت

خطاياها الكثيرة لأنها أحبت كثيراً، والذي يُغفر له قليل يُحب قليلاً " (لو ٧: ٤٧).

ومن ثَمَّ فإن الخطوة الإيجابية الأولى، التي تعلن عن محبتنا لله، أن نترك الموتى يدفنون موتاهم، أي أن يترك الأخ العالم بكل ما فيه من ملذات وشهوات جسدية وأمجاد باطلة، وإماتة القلب من كل عاطفة أو ارتباط تجاه عائلته أو أصدقائه، ويترك أيضاً كل ما كان له من ميراث وأموال ومدخرات .... من أجل البدء في تنفيذ العهد الذي قطعه مع الله قائلاً مع بولس الرسول " إذاً من الآن لا نعرف أحداً حسب الجسد .. لأن محبة المسيح تحصرنا " (٢كو ٥: ١٦).

فليس بالأمر الهين على الإنسان أن يترك العالم ويذهب إلى الدير، كما يقول الآباء " لا تعجب من راهب يترك الدير ويذهب إلى العالم، بل اعجب بالأكثر من إنسان ترك العالم وذهب إلى الدير " **فالأمر يحتاج إلى نعمة خاصة، ومعونة من الله لتنفيذ هذا.** فإننا نعترف بكل يقين من داخلنا، أنه لولا هذه النعمة التي أعانت وساندت كل راهب قبل تركه للعالم، لما استطاع أن يخطو خطوة واحدة، ويصل إلى الدير، ويحقق ما عزم عليه.

فهناك كثيرون ممن يعيشون في العالم، اشتهوا أن يسلكوا في هذا الطريق لكنهم ما استطاعوا أن يخطو خطوة واحدة في تحقيق شهوتهم، وآخرون سلكوا هذا الطريق معتمدين على أنفسهم تاركين عمل النعمة، فنظروا خلفهم فانجذبوا إلى أمجاد العالم الباطلة، وانخدعوا بها فانثنوا راجعين إليه، وهم في ذل وهوان، واضعين أنفسهم بأنفسهم في قيوده، لينطبق عليهم قول الكتاب " كلب عاد إلى قيئه، وخنزيرة مغتسلة إلى مراغة الحمأة " (٢بط ٢: ٢٢).

فيقول القديس مكاريوس الكبير: " إن الذين يتساقط عليهم ندى الروح (مز ٧٢: ٦) " يترل مثل المطر على الجزاز ومثل الغيوث الزارفة على الأرض " تنجذب قلوبهم بحب إلهي للمسيح، يأسرهم ذلك الجمال والمجد إلى اشتهاء دائم نحو المسيح.

يكونون مسبين بالجمال الإلهي، مرضى بالحب. إذ تكون حياة الخلود قد انسكبت في قلوبهم، لذلك فإن شهواتهم دائماً في الملك السمائي، واضعينه أمام عيونهم على الدوام، ولكي يصونوا شهوتهم فيه ينحلون من كل محبة للعالم وما فيه ([1]). **ويقول أيضاً القديس هيريشيوس الكاهن** " الراهب الذي طرح العالم

([1]) حياة الصلاة الأرثوذكسية طبعة دير السريان ص١٨٨.

تحت قدميه، يصير صديقاً للمسيح. أما الراهب الذي ينشغل بأمور العالم، فإنه لا يسر المسيح الذي اختاره جندياً له " (١).

وإلى جانب محبة الله، هناك دوافع أخرى حثت الراهب وشجعته على ترك العالم والذهاب إلى الدير نذكر منها:

(أ) تفاهة العالم

سُئل مرة **مار إسحاق** (٢): ما هو العالم؟ وكيف نعرفه؟ ما هو مقدار مضرته لمحبيه؟ فأجاب: إن العالم هو تلك الزانية التي بشهوة حسنها تجذب الناظرين إليها إلى حبها. والمقتنص بعشقه والمتشبث به، لا يقدر أن يتخلص منه حتى تفنى حياته، فإذا ما عراه من كل شيء وأخرجه من منزله يوم موته، حينئذ يعرف الإنسان في ذلك اليوم أنه خداع وسراب مضل، حتى إذا ما جد الإنسان في الخروج من هذا العالم المظلم فإنه لا يستطيع الخلاص من حبائله مادام هو منغمساً فيه.

حينما يتيقن الراهب من تفاهة العالم، يندفع بقوة نحو الدير، حاسباً كل شيء نفاية بالنسبة للحياة مع المسيح، وهو يتمثل بذلك بالقديس بولس الرسول الذي قال " ما كان لي ربحاً، فهذا

(١) فردوس الآباء جزء ٣ ص١٧١.
(٢) بستان الرهبان ص١٧٧.

قد حسبته من أجل المسيح خسارة، بل أني أحسب كل شيء خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربي، الذي من أجله خسرت الأشياء وأنا أحسبها نفاية لكي أربح المسيح وأوجد فيه" (في ٣: ٧ – ٩). لذلك قال **القديس مكاريوس** (١) " إن محبي المسيح الذين أرادوه قد تركوا نعيم الدنيا ولذاتها وصارت منزلة العالم عندهم كمنزلة العويد الصغير فلم يتألموا على فقد شيء منه ". فالراهب ترك العالم، حاسباً أنه لا يساوي شيئاً أمام أمجاد السيد المسيح ومتعة الوجود مع الله والعشرة معه (فأمجاد هذا الزمان الحاضر لا تُقاس بالمجد العتيد الذي يتمتع به الراهب في الدير) ويقول **مار إسحاق** (٢) ابتعد عن العالم، وحينئذ تحس بنتانته، لأنك إن لم تبتعد عنه لن تحس برائحته الكريهة.

من أجل هذا ترك كثيرون من الملوك والأباطرة ممالكهم، غير حاسبين أمجاد العالم وشهواته سوى نفاية، مفضلين الملك الأبدي مع المسيح، عن الملك الأرضي الذي يفنى ويزول. ومن ضمن هؤلاء الملوك القديسان مكسيموس ودوماديوس ابنا الملك

(١) بستان الرهبان ص١٧٦.
(٢) بستان الرهبان ص١٧٧.

ڤالنتيانوس ([1]) والقديسة إيلارية ابنة الملك زينون ([2])، والقديسة أنسطاسية التي كانت من أعرق العائلات بمدينة القسطنطينية([3])، والقديسة آنا سيمون الملكة السائحة ([4])، والملك سلمون ملك النوبة الذي تنازل عن العرش لچورچا ابن أخته ودخل الدير ([5]).

والراهب هنا يقتدي بالسيد المسيح الذي هرب من أمجاد العالم، فقد ذُكر في (يو ٦: ١٥) أن يسوع لما رأى أنهم مزمعون أن يختطفوه ويجعلوه ملكاً، انصرف إلى الجبل وحده. لذلك رتبت الكنيسة أن يُصلى هذا الجزء من إنجيل يوحنا، في صلاة الستار الخاصة بالرهبان، حتى يقتدي الرهبان بالسيد المسيح ويسيرون دائماً على خطوات حبيبهم وقائد نفوسهم.

(ب) زوال العالم

حدث أن شيخاً مغبوطاً أخذ عموداً وخيطاً صغيراً وقال " من ذا الذي يغتم على فقد هذه الأشياء الحقيرة ويحقد بسببها

([1]) سنكسار ١٤، ١٧ طوبة.
([2]) سنكسار ٢١ طوبة.
([3]) سنكسار ٢٦ طوبة.
([4]) كتاب القديسة آنا سيمون للأستاذ / نبيه نصر.
([5]) قصة الكنيسة القبطية لإيريس حبيب المصري جزء ٣ ص١١٣.

إن كان عاقلاً، لعمري إن من استبصر في قدر هذا العالم الزائل كله فلن يعتبره سوى اعتباره لهذه الأشياء الحقيرة. ومع هذا أقول أنه لن يضر الإنسان أن يكون له إشفاق على شيء ويأسف على فقده فقط، بل وعلى جسمه الذي هو أكرم من كل ما يمتلكه عنده، لأننا قد أُمرنا أن نتهاون بأنفسنا وأجسادنا فكم يجب علينا على أكثر الحالات أن نتهاون بما هو خارج عنا".

الإيمان بسرعة زوال العالم وأمجاده، دافع ثان للأخ على ترك العالم والذهاب للدير، ولأهمية تذكير المؤمنين رهباناً أو علمانيين بهذا الأمر، رتبت الكنيسة أن تضع في نهاية قراءة الكاثوليكون جملة تُقرأ في كل قداس تقول صراحة: " لا تحبوا العالم ولا الأشياء التي في العالم، العالم يمضي وشهوته معه، أما الذي يصنع إرادة الله فيثبت إلى الأبد " (١يو ٢: ١٥ – ١٧).

وتكلم عن سرعة زوال العالم في الكتاب المقدس كثير من الأنبياء والرسل حتى أن سليمان الحكيم قال صراحة " باطل الأباطيل الكل باطل ولا منفعة تحت الشمس " (جا ٢: ١١).

حتى وإن تأخر زوال العالم، فالراهب يضع أمام عينيه كل لحظة، أنه يقضي أياماً قليلة على الأرض، يعيش فيها كغريب إلى أن تنتهي ويمضي هو راجعاً إلى وطنه السماوي الذي يعيش فيه

إلى الأبد، وهو دائماً يُذَكِّر نفسه بقول القديس يعقوب الرسول " ما هي حياتكم إنها بخار يظهر قليلاً ثم يضمحل " (يع ٤: ١٤).

ولعل الأنبا أنطونيوس أب الرهبان، جاءه هذا الفكر لما توفى والده ودخل إليه وتأمل وبعد تفكير عميق قال: تبارك اسم الله. أليست هذه الجثة كاملة، ولم يتغير منها شيء البتة سوى توقف هذا النفس الضعيف، فأين هي همتك وعزيمتك وأمرك وسطوتك العظيمة وجمعك للمال. إني أرى الجميع قد بطل وتركته ... فيا لهذه الحسرة العظيمة والخسارة الجسيمة.

ثم نظر إلى والده الميت وقال: **إن كنتَ قد خرجتَ أنت بغير اختيارك، فلا أعجبن من ذلك، بل أعجب أنا من نفسي إن عملت كعملك.** ثم أنه بهذه الفكرة الواحدة الصغيرة ترك والده بغير دفن، كما ترك كل ما خلفه له من مال وأملاك وحشم، وخرج هائماً على وجهه قائلاً: ها أنا أخرج من الدنيا طائعاً كي لا يُخرجوني مثل أبي كارهاً. (١).

وجاء الأنبا أرسانيوس معلم أولاد الملوك، نفس الشعور إذ أنه، لما بلغ مركزاً عظيماً هكذا، بدأ يفكر في نفسه قائلاً إن كل هذا لابد له من أن يتلاشى كما ينحل المنام، وإن كل غنى الدنيا

(١) بستان الرهبان ص.٥

ومجدها وجاهها عبارة عن حلم. ولا يوجد شيء ثابت غير قابل للتغيير، وأنه لا ينفع الإنسان إلا خير يقدمه قدامه. فزهدت نفسه كل شيء، وصار يطلب من الله كل وقت قائلاً عرفني يارب كيف أخلص؟ فجاءه يوماً صوت يقول له: **يا أرساني اهرب من الناس وأنت تخلص.**

قام لوقته وترك كل شيء ونزل إلى البحر، فوجد سفينة إسكندرية تريد السفر، فركب فيها وجاء بها إلى الإسكندرية، ومن هناك أتى إلى الإسقيط، إلى الأب مكاريوس، ذاك الذي أسكنه في إحدى القلالي الخارجة عن الدير لأنه وجده عاشقاً للهدوء. " (١).

(ج) التعب الباطل

ونتيجة الاقتناع القوي بزوال العالم وقصر عمر الإنسان على الأرض، يصل الراهب إلى حقيقة هامة وهي: بطلان كل تعب عالمي يقوم به الإنسان على الأرض، سواء كان التعب لأجل كسب المال وادخاره، أو بناء بيوت وقصور أو شراء حقول أو...

ليقف هنا كل إنسان لحظة، ليسأل نفسه عن الفائدة التي تعود عليه من كل هذا التعب الباطل، إن كان لا يأخذ معه أي

(١) بستان الرهبان ص٤٣.

شيء من حطام العالم، ولا يترل وراءه مجده عند وفاته، فداود النبي يقول لكل إنسان: " لا تخشى إذا استغنى إنسان، إذا زاد مجده، لأنه عند موته كله لا يأخذ، لا يترل وراءه مجده " (مز ٤٩: ١٦ – ١٧)، " الحكماء يموتون كذلك، الجاهل والبليد يهلكان، ويتركان ثروهما لآخرين، باطنهم أن بيوهم إلى الأبد، مساكنهم إلى دور فدور " (مز ٤٩: ١٠ – ١١)، ويقول أيضاً " عرفني يارب نهايتي ومقدار أيامي كم هي فأعلم كيف أنا زائل، هوذا جعلت أيامي أشباراً وعمري كلا شيء قدامك، إنما نفخة كل إنسان جُعِلَ. إنما كخيال يتمشى الإنسان، إنما باطلاً يضجون يذخر ذخائر ولا يدري من يضمها، والآن ماذا انتظرت يارب، رجائي فيك هو " (مز ٣٩: ٤ – ٧).

وها أيوب الصديق يقول لكل إنسان يهتم بالتعب الباطل " عرياناً خرجت من بطن أمي وعرياناً أعود إلى هناك " (أي ١: ٢١). فمهما أخذ الإنسان مجداً وكرامة من هذا العالم، فلن يخرج منه إلا عرياناً، إن الدود سيجد طعاماً شهياً في أجساد من تَرَفه في ملذات العالم أكثر ممن نحف جسده وأجاعه.

فهل يدري رب البيت، الذي يبتغي أن يعيش في رفاهية هو وأولاده ويكتنز المال، إن كان أولاده سيحافظون على ما تركه

لهم من بيوت وأطيان وأموال، إن لم يُرهم في خوف الله ومحبته؟! فلنسمع خبرة سليمان الحكيم في سفر الجامعة " فكرهت كل تعبي الذي تعبت فيه تحت الشمس، حيث أتركه للإنسان الذي يكون بعدي، ومن يعلم هل يكون حكيماً أو جاهلاً، ويستولى على كل تعبي الذي تعبت فيه وأظهرت فيه حكمتي تحت الشمس ... هذا أيضاً باطل " (جا ٢: ١٨ – ١٩).

فليتأمل كل واحد منا جيداً قول سليمان الحكيم " ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذي يتعبه تحت الشمس " (جا ١: ٣). " باطل الأباطيل الكل باطل " (جا ١: ٢)، " رأيت كل الأعمال التي عُملت تحت الشمس فإذا الكل باطل وقبض الريح " (جا ١: ١٤).

وعاش السيد المسيح بهذا الفكر في حياته على الأرض.

- كانت نساء تخدمنه من أموالهن. (لو ٨: ٣).
- وكان ليس له مكان ليسند فيه رأسه (مت ٨: ٢٠).
- ولم يملك أموالاً أو دراهم، حتى أنه دعا بطرس ليذهب ويصطاد سمكاً، وأول سمكة يُخرجها سوف يجد فيها إستاراً، يعطيه لطالبي الجزية (مت ١٧: ٢٤- ٢٧)، حتى أنه لم

يستخدم الأموال و لم يمسكها بيديه، إذ كانت توضع في صندوق عند يهوذا الإسخريوطي (يو ١٣: ٢٩).

وقد عَلَّم بهذا في الموعظة على الجبل، إذ قال فيها: " لا تكتزوا لكم كنوزاً على الأرض .. لا تهتموا بحياتكم بما تأكلون وما تشربون ولا لأجسادكم بما تلبسون .. فلا تهتموا .. لأن الغد يهتم بما لنفسه .. يكفي اليوم شره " (مت ٦: ١٩ – ٣٤).

وضرب أيضاً مثل الغني الغبي، ليحذر الناس من السلوك مثله، فبعدما اهتم الغني بهدم مخازنه وبناء أعظم منها، ووضع فيها غلاته وخيراته، ظاناً أن له خيرات كثيرة لسنين عديدة، جاءه الصوت الإلهي قائلاً " يا غبي: هذه الليلة تُطلب نفسك منك، فهذه التي أعددتها لمن تكون " (لو ١٢: ٢٠).

جاء هذا الشعور على فكر الأنبا أنطونيوس بعد أن مات والده وهو بعد شاب في سن الثامنة عشر أو العشرين وخلف له أملاكاً كثيرة (٣٠٠ فدان) وزعها جميعها على الفقراء بعد أن سمع الشماس في الكنيسة يقرأ قول الرب في الإنجيل إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع كل أموالك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء. ([1]).

([1]) بستان الرهبان ص٤٩٠.

لعله فَكَّرَ ما الذي سيعود عليَّ من تعبي في زراعة ٣٠٠ فدان وكسبي مالاً كثيراً وخسارتي خلاص نفسي.

وهذا أيضاً ما حدث مع القديس الأنبا بولا أول السواح. فقد كان لهذا القديس أخ أكبر اسمه بطرس، وقد ورثا عن أبيهما ثروة طائلة. وأراد بطرس أن يأخذ ثلثي الميراث ويعطي لأخيه الثلث فقط، فرفض أخوه هذا الظلم وطلب أن يذهبا إلى القاضي. وكان عمره حينئذ خمسة عشر عاماً. وفي الطريق إلى القاضي وجدا جنازة كبيرة، فسأل بولس (أنبا بولا) عن هذا الميت الذي يودعه وينوح عليه الكثيرون هكذا، فعلم أنه كان رجلاً غنياً جداً، وها هم يُخرجونه اليوم من العالم تاركاً كل ممتلكاته، كما أنه مات غارقاً في خطاياه.

فلما سمع بولس ذلك انتبه إلى نفسه، وانكشفت له حقيقة العالم، فصار أمامه كلا شيء فقال لأخيه، ارجع بنا يا أخي، فتعجب أخوه وبينما هما في طريق رجوعهما إلى البيت توارى بولس عن أخيه و لم يعلم كيف اختفى. أما بولس (الأنبا بولا) فقد وجد مقبرة في غربي المدينة فأقام فيها ثلاثة أيام يصلي بتضرع إلى الله، وفي اليوم الرابع أرسل الله إليه ملاكاً مضى معه إلى موضع فيه عين ماء وبقربها نخلة، وهناك وجد مغارة عاش

فيها، وصنع لنفسه ثوباً من الليف، وانفرد هناك حتى اليوم الذي سلم فيه روحه بيد الرب (١).

(د) الشعور بالغربة

إن الشعور بالغربة على الأرض، يمتلك كل إنسان، حتى وإن مَلَكَ العالم كله. وعاش آباؤنا طوال حياتهم كغرباء ونزلاء على الأرض، فإبراهيم أبو الآباء عاش غريباً في أرض كنعان (عب ١١: ٩)، ولما نزل إلى مصر، نزل ليتغرب هناك (تك ١٢: ١٠)، وانتقل إبراهيم وتغرب في جرار (تك ٢٠: ١)، وقال لبني حث " أنا غريب ونزيل بينكم " (تك ٢٣: ٤).

وعاش إسحاق ويعقوب بنفس الفكر، فعندما وقف يعقوب أمام فرعون، سأله عن سني حياته فقال " أيام غربتي ١٣٠ سنة.. ولم تبلغ إلى أيام سني حياة آبائي في أيام غربتهم " (تك ٤٧: ٩ — ١٠).

أيضاً موسى عاش غريباً في أرض مديان. وداود يقول " غريب أنا في الأرض، فلا تُخف عني وصاياك " (مز ١١٩: ١٩)، ويقول أيضاً " استمع يارب صلاتي، وأصغ إلى صراخي، لا تسكت عن دموعي لأني أنا غريب عندك، نزيل مثل جميع آبائي " (مز ٣٩: ١٢).

(١) فردوس الآباء جزء ١ ص٢٧.

ومع أن شعور الغربة يتملك على جميع الناس على الأرض، إلا أنه كثيراً ما يضعف ويفتر بسبب التأثير الناتج عن شهوات العالم وأباطيله، الذي يلهيهم عن التفكر في وطنهم السماوي، ويطفيء كل شعور للغربة فيهم (أو بالأحرى يغربهم أكثر عن الله). لذلك يوصينا القديس بطرس الرسول " سيروا زمان غربتكم بخوف " (١بط ١: ١٧)، ويقول أيضاً " أيها الأحباء أطلب إليكم كغرباء ونزلاء، أن تمتنعوا عن الشهوات الجسدية التي تُحارب النفس، وأن تكون سيرتكم بين الأمم حسنة .. " (١بط ٢: ١١، ١٢).

ولكن من يعيش وفيه شعور الغربة بقوة، تراه دائماً يتفكر في السماء ناظراً إلى وطنه السماوي ومشتاقاً للرجوع إليه، وكأنه واحد من الذين تكلم عنهم القديس بولس الرسول قائلاً " أنهم أقروا أنهم غرباء ونزلاء على الأرض، فإن الذين يقولون مثل هذا، يظهرون أنهم يطلبون وطناً، فلو ذكروا ذلك الذي خرجوا منه، لكان لهم فرصة للرجوع، ولكن الآن يبتغون وطناً أفضل أي سماوياً، لذلك لا يستحي بهم الله أن يُدعى إلههم، لأنه أعد لهم مدينة " (عب ١١: ١٣ — ١٦).

ويُحض **القديس برصنوفيوس** أولاده قائلاً لهم " غرباء نحن، فلنكن غرباء بالكمال، ولا نحسب أنفسنا شيئاً، ولا نشاء أن يحسبنا أحد فنتنيح " (١).

وقال آخر حينما تجلس قل: غريب أنا، غريب أنا (٢).

قال القديس أرسانيوس: إن الراهب غريب في أرض غريبة، فإذا أراد أن يجد راحة، فعليه أن لا يشغل نفسه بأي شيء فيها" (٣).

قال أنبا يعقوب: الغربة أفضل من إضافة الغرباء (٤).

لذلك لا غرابة أن نجد هذا الإنسان، زاهداً في أمور العالم وشهواته، غير راغب في امتلاك أي شيء من حطام العالم، بل إنه دائماً يرفض وبإصرار أن يرتبط به في أي شيء، واضعاً نصب عينيه دائماً قول بولس الرسول " لأننا لم ندخل العالم بشيء وواضح أننا لا نقدر أن نخرج منه بشيء " (١تي ٦: ٧).

(١) بستان الرهبان ص١٦٢.
(٢) بستان الرهبان ص٣١٤.
(٣) بستان الرهبان ص١٧٤.
(٤) بستان الرهبان ص١٧٤.

فينسلخ الشخص من العالم (أو يخرج منه كقول الرسول) منفذاً بسلوك عملي مدى حبه واشتياقه للرجوع إلى الله ...

(هـ) الخروج من العالم

أدى التقدم التكنولوچي إلى ازدياد العثرة وانتشار الخطية، وسهل كثيراً طرق الشر، ليصدق قول الكتاب، إن العالم وضع في الشرير، ووسط هذه الشرور، يجد الأخ الذي ابتغى الحياة الفضلى، أن نفسه تتعذب كل يوم ما دام في العالم، مثلما حدث مع لوط " إذ كان البار بالنظر والسمع وهو ساكن بينهم، يُعذب يوماً فيوماً نفسه البارة بالأفعال الأثيمة " (٢بط ٢: ٨).

ووسط كل هذا يشعر الأخ بأن روحه تكاد تختنق، ولا يوجد لها متنفس إلا من خلال باب ضيق، وما أن يدخل فيه، حتى يجد نفسه منقاداً إلى الدير، حيث الأرض المقدسة التي يشترك فيها بالتسبيح والصلاة مع الرهبان الذين سبقوه لنفس الغرض.

وقد سلك الأنبا بولا البسيط هذا المسلك إذ أنه كان ساكناً في مدينة أطفيح. واتفق أن ماتت زوجته وتزوج امرأة صبية، وكان له خيرات وأموال كثيرة كان قد ورثها. فدخل يوماً من الأيام إلى بيته، فوجد أحد خدامه على السرير مع زوجته، فقال

لزوجته مبارك لك فيه أيتها المرأة، ومبارك له فيك إذا اخترتيه دوني. ثم أخذ عباءته عليه، ومضى هائماً على وجهه في البرية الجوانية. وبقى محتاراً تائهاً زماناً طويلاً إلى أن اتفق أنه وقف على قلاية القديس أنطونيوس، فقرع باب القلاية. فلما رآه القديس عجب منه غاية العجب، لأنه لم يكن بعد قد رأى إنساناً بهذه الصفة. فسلم على القديس وسجد له على الأرض بين يديه فأقامه القديس وعزاه وفرح به غاية الفرح. ثم جلس عند القديس أربعين يوماً ملازماً الزهد الكامل والوحدة الصعبة (١).

يترك الأخ العالم بغير رجعة، فيجد ضالته المنشودة، فتستريح نفسه بعد عناء، لأنها تجد الجو الروحي المشبع بالروحانية العالية، وسط آبائه وإخوته الرهبان، فتبدأ في النمو الروحي، ويُثمر ثماراً روحية كقول المزمور " مغروسين في بيت الرب في ديار إلهنا يزهرون"، أيضاً " يُثمرون في الشيبة، يكونون دساماً وخضراً، ليخبروا بأن الرب مستقيم " (مز ٩٢: ١٣، ١٤).

وهناك دوافع أخرى تحث الراهب لترك كل شيء وإتباع المسيح، لكن مهما تعددت الدوافع، إن لم تكن محبة الله هي

(١) بستان الرهبان ص٦، ٧.

الدافع الأول في حياته، فلن يستطيع أن يثبت ويستمر في الحياة الرهبانية.

ونختم هذا الجزء بعظة **للقديس مكاريوس:**

يا أولادي الأحباء **عظيم هو مجد القديسين**، فينبغي أن نفحص عن تدبيرهم الذي نالوا بواسطته هذا المجد، وبأي عمل وفي أي طريق وصلوا إليه. وقد علمنا أنهم لم يشتروه بغنى هذا العالم، ولا حصلوه بصناعة أو بتجارة ما. ولا اقتنوه بشيء مما يملكون. إذ أنهم تمسكنوا وتغربوا عن هذا العالم، وجالوا جياعاً فقراء. فعلى ما أراه، أجد أنهم نالوا ذلك المجد العظيم بتسليمهم ذواتهم وتدبير أمورهم ونياتهم لله. تركوا أهويتهم كلها من أجل الرب وتبعوه حاملين الصليب، **ولم يفصلهم حب شيء آخر عن محبته تعالى. لأنهم لم يحبوه أكثر من الأولاد فقط مثل إبراهيم، بل وأكثر من ذواتهم أيضاً**، كما يقول بولس الرسول لا شيء يستطيع أن يفصله عن حب الله. فالآن يا بنيَّ الأحباء جاهدوا واصبروا إلى الموت كالقديسين لتصيروا مسكناً لله (١).

(١) بستان الرهبان ص٣٢.

(٢) الإماتة وحمل الصليب (الجهاد السلبي)

ليس كل من يسكن البرية، مات عن العالم، ولكن كل من مات عن العالم، يمكن أن يعيش في البرية.

فقد ينتقل الأخ بجسده ويذهب إلى الدير، بينما يحمل في قلبه محبة العالم، فيعيش في الدير بكل طباعه القديمة التي كان يعيش بها في العالم، ويحمل مشاعر وأحاسيس وحنيناً نحو محبة العالم.

لهذا ينبغي على الأخ قبل أن يُقدِم على ترك العالم والدخول إلى الدير أن ينقي من كل حواسه وقلبه أية محبة عالمية، فإن كان ما زال في قلبه جزء من محبة للعالم، كارتباطه وتعلقه بالأهل والأصدقاء، أو محبة العالم وشهواته، أو محبة نحو معرفة الأخبار التي تدور في العالم، فعليه أن يحمل الصليب ويجاهد كل يوم في إماتة ما تبقى منها، حتى يبلغ إلى الإماتة الكاملة عن العالم، ويستبدل مكانها كل محبة روحية تنمي وتزيد محبته وارتباطه بالله. كما قال القديس مكاريوس الكبير " جاهد في كل أنواع الميتات، في ميتوتة الجسد أي أنه إن لم تكن لك ميتوتة الروح فجاهد في ميتوتة الجسد، وعندئذ ستُعطى أيضاً ميتوتة الروح.

وهذا النوع من الموت سيجعلك تموت عن كل إنسان، وبعدئذ ستحصل على امتياز كونك مع الله في سكون على الدوام "(١).

وقال أيضاً " من يريد أن يأتي إلى الله ليستحق الحياة الدائمة، وليكون مسكناً للسيد المسيح ويمتلىء من الروح القدس، ينبغي عليه أولاً أن يكون مؤمناً إيماناً ثابتاً بالله وأن يتفرغ لعمل وصاياه، ويرفض العالم بالكمال. فإذا كان عقله مشغولاً بشيء مما يُرى، فحينئذ عليه أن يُلازم الصلاة ويكلف نفسه بالقيام بكل عمل صالح، وإن كان قلبه لا يريد، إما بسبب قتال أو لتأصل عادة رديئة أو لعجز وقلة صبر، فليجاهد ليختطف ملكوت السموات، لأن الغاصبين يختطفونه. وليحرص أن يدخل من الباب الضيق ويسير في الطريق الكربة الموصلة إلى الحياة الأبدية، ويجعل الله بين عينيه دائماً أبداً مداوماً على عمل ما يرضيه وحده. فإذا درب الإنسان نفسه على أن يتعود ذلك ذاكراً الرب دائماً مترجياً إياه بشوق كثير، فحينئذ يخلصه الرب من الأعداء ومن الخطية الساكنة فيه ويملأه من نعمة الروح

---

(١) بستان الرهبان ص٢٤٣.

القدس. وهكذا يستطيع أن يعمل الفضائل بالحقيقة بدون تعب ولا تكلف لأن الرب يعينه " ([1]).

كما **يقول الشيخ الروحاني** " **محبة المسيح غربتني عن البشر والبشريات** " **ويقول مار إسحاق السرياني** عن الرهبنة: " هي انحلال من الكل للارتباط بالواحد "، **ويقول أيضاً**: " حل قلبك من الرباطات البرانية (العالمية) أولاً، حينئذ تقدر أن ترتبط بحب الله " ([2]). **ويقول أيضاً**: " من لم يرفع نفسه عن حب الدنيا، لا يستطيع أن يتذوق حلاوة محبة الله " ([3]). **ويقول القديس مكاريوس** ([4]): كمثل إنسان إذا دخل الحمَّام، إن لم يخلع عنه كل ثيابه، لا ينعم بالاستحمام. كذلك الإنسان الذي أقدم على الرهبنة و لم يتعر أولاً من كل اهتمام العالم وجميع شهواته وملذاته فلن يستطيع أن يصير راهباً ولن يبلغ حد الفضيلة ولن يمكنه كذلك أن يقف قبالة جميع سهام العدو التي هي شهوة النفس.

([1]) بستان الرهبان ص٢٤٣.
([2]) بستان الرهبان ص٤٦١.
([3]) بستان الرهبان ص٤٦١.
([4]) بستان الرهبان ص١٧٤.

ولأنهم ماتوا عن العالم، فلذا يُسمى الرهبان (لباس الصليب) لكونهم أطاعوا دعوة السيد المسيح، الذي قال: " من أراد أن يأتي ورائي، فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني " (مر ٨: ٣٤). وفي إنجيل القديس متى يُضيف " كل يوم " (مت ١٠: ٣٨). فحمل الصليب بالنسبة للراهب، هو عمل يومي مستمر، في كل أوقات حياته اليومية، يصلب ذاته عن العالم وعن الخطية، وكأنه يقول مع القديس بولس الرسول " من أجلك نُمات كل النهار، قد حُسبنا مثل غنم للذبح " (رو ٨: ٣٦).

في كل يوم يحمل الراهب صليبه، ويُسمر ذاته وكل أعضائه، لتموت ثم تقوم وتُصبح أعضاء مقدسة طاهرة للمسيح، فهو يوماً فيوماً، يُسمر عليه الفكر فالنظر فالسمع فالفم فالجسد .. إلى أن ينتهي من تسمير وصلب الإنسان العتيق، حتى يموت بأكمله. بعد ذلك تعمل فيه قوة القيامة، فيقوم إنساناً جديداً " حسب صورة خالقه " (كو ٣: ١٠)، جديداً في كلامه، في سلوكياته وتصرفاته ونظراته وأهدافه وأفكاره ... إجمالياً في كل شيء.

وفي هذا يقول قداسة البابا شنوده الثالث قصيدة غريب

غريب عشت في الدنيا ... نزيلاً مثل آبائي
غريباً في أساليبي ... وأفكاري وأهوائي
غريباً لم أجد سمعاً ... أفرغ فيه آرائي
يُحار الناس في ألفي ... ولا يدرون ما بائي

ولكن بدون نعمة الله وعمله، لا يُمكن للراهب أن يصلب الإنسان العتيق ويعيش حياة الإماتة. إذ يقول الرسول: " مع المسيح صُلبتُ فأحيا، لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ " (غل ٢: ٢٠). وهذا ما أوضحه السيد المسيح لمن يُريد أن يحمل صليبه ويتبعه، فالصليب هو صليب الراهب، ولكن السيد المسيح هو الذي يتقدم الراهب ويحمله بكل ثقله، بينما الراهب يسير خلفه، يتبعه وهو يسنده على كتفه بيديه فقط، وكأنه يُشبه سمعان القيرواني الذي حمل الصليب خلف المسيح ....

ويقول في هذا أحد الشيوخ: ظن رهبان كثيرون إمكانية شفاء شهواتهم والحصول على راحة النفس بجهادهم وقوتهم. فتخلت عنهم النعمة وسقطوا من الحق، فكما أن المريض جسدياً لا يُمكن شفاؤه بدون طبيب بشري ودواء، بالرغم من

كثرة سهره وصومه، في المدة التي يتعاطى فيها الدواء. هكذا أيضاً المريض روحياً من قبل انفعالات الخطية، بدون الرب يسوع طبيب الأرواح والقوة الكامنة في وصاياه والتواضع الذي يُماثل تواضعه لا يمكن أن يبرأ من خطاياه، ولا يمكن أن ينال شفاءً كاملاً (١).

ولأن الراهب يشتهي دائماً حياة الإماتة ويسعى إليها كل حين، حتى أنه يقول مع بولس الرسول " لي الحياة هي المسيح، والموت هو ربح " (في ١: ٢١). إذ أنه متيقن أنه عندما يصلب ذاته سوف يجد السيد المسيح يسبقه هناك على الصليب، فيلتقي به ويدخل معه في علاقة حب متبادلة، فيشعر كم هي عظيمة كانت محبة المسيح له، وكم كان عظيماً بذل ذاته من أجله، فيبادله بنفس الحب والبذل، حيث يُميت كل شهوة أو محبة شريرة من قلبه، وهكذا ينمو في الإماتة والصلب حتى يحيا المسيح فيه (غل ٢: ٢٠).

ويجب أن نلاحظ أن السيد المسيح لم يمت بمجرد أن عُلق على الصليب، بل استمر يصارع لمدة ثلاث ساعات كاملة، وأخيراً أسلم الروح. هكذا الراهب لا يموت عن العالم أو تموت

(١) بستان الرهبان ص٢٥٥.

ميوله وشهواته مرة واحدة بمجرد أن يُجرَى عليه طقس الرهبنة، ويلبس الثوب الرهباني، إنما يظل يُجاهد ويُصارع الميول والشهوات فترة طويلة من الزمان، وهو معلق على صليب النسك والجهاد والطهارة، فتضعف ميوله وشهواته قليلاً قليلاً حتى تموت أخيراً بنعمة الله (١).

وقد يمر على الراهب أيام يخور فيها تحت ثقل الصليب، فقد يضعف من الحرب التي يشنها عدو الخير عليه، إلا أنه سرعان ما يجد يد المسيح تمتد إليه وترفع عنه ثقله وتُقيمه مرة أخرى ليُكمل المسير.

ورغم صعوبة حياة الإماتة كل يوم، إلا أن ممارستها تُكسب الراهب تعزيات إلهية روحانية لا يُعبر عنها، تفوق بكثير التعزيات العالمية، لذا لا أكون مبالغاً إن قلت: أن الراهب يفرح ويُسَر بحمل الصليب، إذ كلما ثقل عليه الصليب، شعر أن يد الرب أقرب منه تسنده وتحمله معه.

قال شيخ: استعد كل حين لأن تقبل الأتعاب والشدائد مع الضيقات الآتية عليك، ولا تصغر نفسك، ويضعف جسدك

(١) كتاب سمو الرهبنة ص٢٥٠ لنيافة الأنبا متاؤس أسقف ورئيس دير السريان.

فتهلك تعبك، بل اقتن لك صبراً وثبت أفكارك قائلاً: إن هذه إنما أتت عليَّ بسبب خطاياي. فإن صنعت هكذا فإن معونة الله ونعمته تُدركك سريعاً (١).

ودرجات الإماتة والبذل، تكون على قدر ما أحب الراهب الله. إذ يتعود على أن يُقدم ذاته ذبيحة حب لمن أحبه، فهو يُقدم ذاته كل يوم على مثال ذبيحة المحرقة التي توضع على مذبح المحرقة فتلتهمها النار بأكملها ولا تبقى منها شيء، فيتنسم الرب رائحة الرضا على العالم أجمع. والراهب كذلك يضع جسده ونفسه وروحه على مذبح الحب الإلهي داخل قلايته، فتلتهمها النار الإلهية الآكلة ولا تُبقي في طبيعته البشرية شيئاً، لتحيا عوضاً عنها الطبيعة الروحية، فيتنسم الرب رائحة الرضا على العالم أجمع. حتى وإن كان راهباً واحداً يعيش الإماتة الكاملة مثال الأنبا بولا الذي من أجله أنقذ الله مصر من الجفاف (بل العالم كله).

وتُشبه حياة الراهب في الدير، حياة أبينا إبراهيم الذي أطاع قول الرب عندما قال له " أخرج من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك إياها " (تك ١٢: ١)، فبعد أن ترك إبراهيم كل شيء ابتدأ أن يُميت من قلبه كل محبة

(١) بستان الرهبان ص٣٨٦.

لعشيرته ولبيت أبيه لكي يُرضي الله. ولما أعطاه الله إسحاق ابنه، تحركت في قلبه مشاعر الأبوة والمحبة نحو ابنه. فأراد الرب أن يُميت هذه المحبة أيضاً من داخله، فقال له " خذ ابنك وحيدك حبيبك إسحاق وأصعده لي محرقة على المذبح الذي أريك إياه، ولما أطاع إبراهيم قال له الرب لا تفعل بابنك شيئاً رديـاً لأني الآن علمت أنك لم تمنع ابنك عني. وتأكد الرب من محبة أبينا إبراهيم له حينما تأكد من إماتة كل محبة غريبة من قلبه حتى محبته لابنه إسحاق.

ونأخذ موسى النبي لنا مثالاً في حياة الترك، " بالإيمان موسى لما كبر أبى أن يدعى ابن ابنة فرعون مفضلاً بالحري أن يُذل مع شعب الله على أن يكون له تمتع وقتي بالخطية، حاسباً عار المسيح غنى أعظم من خزائن مصر. لأنه كان ينظر إلى المجازاة " (عب ١١: ٢٤ – ٢٦).

ونختم هذه النقطة بقول **القديس مكاريوس الكبير** " هذه النفوس التي أحبت الرب حباً حاراً لا ينطفيء، تستأهل للحياة الأبدية. ومن ثم تُحسب أهلاً للاقتداء من الأهواء والشهوات

الشريرة، وتنال قوة من الروح القدس وشركة سرية مع المسيح على الدوام " (١).

(٣) الجهادات والممارسات الروحية (الجهاد الإيجابي)

مع أن جهاد الراهب في حياة الإماتة يُعد جهاداً سلبياً، لكنه ضروري ومهم في بداية حياته الرهبانية. لأنه مؤشر واضح على محبته لله. وإلى جانب هذا تتمشى معه الجهادات والممارسات الروحية التي تُظهر وتُعلن عما في قلب الراهب من محبة قوية لله، ويُعتبر هذا جهاداً إيجابياً.

لكن تستحوذ جهادات الإماتة في بداية حياة الراهب على جزء كبير من طاقته، وهي جهادات عنيفة وتحتاج إلى إصرار شديد. بينما الجهاد الإيجابي يكون متواضعاً وقليلاً، وبمرور السنين يتساوى الجهاد السلبي مع الجهاد الإيجابي. وغالباً ما يكون ذلك في منتصف حياته الرهبانية، ثم بعد ذلك ينحني الجهاد السلبي ويقل بشدة، ويبدأ منحنى الجهاد الإيجابي في الارتفاع.

ومع استمرار الراهب في جهاده اليومي، يموت من قلبه ومشاعره وفكره كل محبة للعالم وللخطية وللأهل والأصدقاء وللكرامة، فيسمو إلى درجات روحية عالية جداً في محبته لله،

---

(١) حياة الصلاة الأرثوذكسية طبعة دير السريان ص١٨٩.

تتزايد يوماً فيوماً، حتى يصبح الله هو كل شيء في حياته، ويُصبح لذته وشهوته وطعامه وشرابه ونومه وكلامه ومشاعره وأفكاره وحركاته ... يصبح الله كل نسمة في حياته ووجوده...

ويقول القديس مكاريوس الكبير: " النفس التي وصلت إلى درجة الحب المشتعل، فإنها تعمل أعمال البر بلا إحصاء، ثم تظهر بسيرتها أنها لم تفعل شيئاً البتة بسبب الحب الحار المشتعل فيها نحو الله. ومع أنها تُميت الجسد بالأصوام والسهر، فلا تكُف قط عن ممارسة الفضائل كأنها لم تتعب قط. وإذ تُحسب أهلاً لمواهب الروح المختلفة وإنعام حبها المتأجج لله تظهر بالرغم من ذلك، كأنها ليست أهلاً لشيء ولا تملك في ذاتها شيئاً " (١).

ولتوضيح ذلك نضع أمامنا عينة لبعض الجهادات والممارسات الروحية (أي الجهاد الإيجابي) التي يمارسها الراهب الذي ينعم بسكنى البرية في حياته اليومية.

(١) الصلاة:

استمرار حياة الراهب داخل الدير ومداومته على حياة الصلاة توطد الصلة بينه وبين الله. وتزداد محبته للصلاة، ويقوى ارتباطه بالله، وينتج عن ذلك دالة في الحديث معه، بل شهوة للحديث معه ...

(١) حياة الصلاة الأرثوذكسية طبعة دير السريان ص١٨٩.

فهو يبدأ تدريجياً في حياة الصلاة، حينما يدخل الدير، بحسب إرشادات أب اعترافه في الدير. فيتدرب على صلوات الأجبية السبعة، بالإضافة إلى صلاة الستار الخاصة بالآباء الرهبان، الأمر الذي لم يتعود على ممارسته في العالم، بسبب مشغولياته الدنيوية الكثيرة. لذلك ينتابه – في البداية – شعور بالثقل والخمول أو الملل وطياشة الأفكار أثناء الصلاة. لكن عليه أن يثبت وأن يستمر في الانتظام في الصلاة حتى تُصبح صلاته حارة روحانية، ويتجمع ذهنه وعقله في الصلاة فيصلي بفهم، فيذوق التعزيات الإلهية التي تصحبها دموع التوبة الغزيرة، وتكثر فترات التعزية في المواظبة بالأكثر على الصلاة...

وبالثبات في الانتظام في الصلاة، يدخل به الرب إلى العمق، فيتعمق في كلمات المزامير والتلذذ بها، ويود لو لم ينته منها. وبعد انتهاء صلوات المزامير يستمر في صلواته الارتجالية لفترات طويلة وبعد أن ينتهي من صلواته يجلس بسكون منتظراً الرب (مراثي ٣: ٢٦). فيعطي وقتاً لقلبه ومشاعره أن تتحرك بحب نحو الله بدون كلام الشفاه فتصبح حياته كلها صلاة كداود النبي عندما قال " أما أنا فصلاة " (مز ١٠٩: ٤).

ولا تتوقف حياة الصلاة بالنسبة للراهب على الصلاة في القلاية، أو في أوقات الصلاة الجماعية بالدير فقط، إنما تكون في كل وقت متاح له أن يصلي، أو على الأقل أن يظل ذهنه مردداً المزامير في صمت أثناء العمل المكلف به من قبل الدير، أو أثناء التمشية في الجبل أو في حديقة الدير أو عند ذهابه لمكان ما، يرفع قلبه " بصلاة يسوع ". حتى أثناء تناول الطعام يصلي مقدماً الشكر لله، أو صارخاً مع العشار بصلاة يسوع مردداً إياها في كل نَفَس فتتحول أوقاته كلها إلى حياة مقدسة حتى في نومه وأحلامه لا يفتر عن ذكر الله وكلامه الحلو. فيحلم أحلاماً مقدسة بأنه يُصلي في الكنيسة أو يُردد لحناً ما أو يحلم بأنه يتناول أو أنه يُصلي صلاة باكر أو النوم. ويُردد أثناء ذلك بعض المزامير أو القطع، فعندما يفيق من نومه يجد لسانه وفكره يستكمل ما كان يصليه أثناء نومه. وبذلك يستمر في الصلاة في كل حين منفذاً قول القديس بولس " صلوا بلا انقطاع " (١تس ٥: ١٧).

وللصلاة درجات عالية، يهبها الله لمن يظل أميناً، كالهذيذ والدهش، واختطاف العقل إلى ما فوق الصلاة، كرؤية الله

والاتحاد به. عندئذ يُصبح في حالة روحية لا يدري إن كان ما زال في الجسد أم خارج الجسد (٢كو ١٢: ٢، ٣).

(٢) التسبيح:

التسبيح هو أسمى درجات العبادة والصلاة والحب لله. والراهب الذي يقوم بالتسبيح يرتفع إلى مرتبة الملائكة الواقفين أمام العرش الإلهي، ويشاركهم في تسبيحهم لله. لذلك يُسمى الرهبان " ملائكة أرضيين أو بشراً سمائيين ". وينطبق عليهم قول القديس غريغوريوس " الذي أعطى الذين على الأرض تسبيح السيرافيم ".

بمجرد أن يدخل الأخ الجديد الدير وينضم إلى مجمع الرهبان، يتدرب على الاستيقاظ مبكراً والذهاب إلى الكنيسة لحضور صلوات نصف الليل والتسبحة كل يوم. الأمر الذي لم يكن قد اعتاد ممارسته في العالم سوى مرة أو اثنتين فقط في الأسبوع.

وبمداومته الاشتراك في التسبحة مع الرهبان في الكنيسة لسنين عديدة، يُصبح التسبيح جزءاً جوهرياً وأساسياً في كيانه، لا يمكن الاستغناء عنه يوماً واحداً. إذ أنه أثناء التسبيح يشعر

وكأن روحه انطلقت من جسده إلى السماء ليشترك مع الملائكة في تسبيحهم لله.

ويؤدي التعود على التسبيح إلى محبة حياة التسبيح والشكر، فلا يحتمل الراهب لسبب كبر سنه أو أي سبب آخر من انقطاع عمل الملائكة هذا، حتى لو انقطع عن مشاركة إخوته في التسبيح في الكنيسة، فهو يقوم بعمل التسبحة في قلايته. فتسنح له فرصة أكبر وأوسع للتسبيح، فيجد فيه الشبع من محبة السيد المسيح له كل المجد ...

ومع دوام التسبيح واستمراره يتعود القلب مع اللسان بأن يلهج في ناموس الرب نهاراً وليلاً (مز١: ٢) وتغمر القلب فرحة عارمة، ويتبدل كل حزن وألم ناتج عن قسوة الجهاد، إلى تهليل وسعادة داخل القلب والفكر، لا يستطيع أحد أن يعبر عنها، فتصبح كلمات التسبيح والصلاة مثل حبات بخور عطرة تسقط على قلب الراهب المتأجج بنار الحب الإلهي، فتحترق وتصعد أمام العرش الإلهي فيتنسمها الله رائحة رضا عليه وعلى العالم أجمع.

(٣) الصمت:

في أغلب الأحيان يدخل الأخ الدير، وتدخل معه طباعه

وطريقة كلامه الذي اعتاد عليه في العالم، وخاصة كثرة الكلام، ولكن مع وجوده فترة طويلة بين آبائه وإخوته الرهبان بالدير يتعلم منهم أسلوب وطريقة الكلام فتتغير كلماته العالمية إلى كلمات رهبانية ويتحول أسلوبه إلى أسلوب روحي كنسي، ثم تهدأ تحركاته الكثيرة في الدير ويقلل من كلامه الكثير، ورويداً رويداً، مع كبر سنه في الحياة الرهبانية ونموه في محبة الله، يقل خروجه من قلايته وبالتالي تقل مقابلته للرهبان ويقل حديثه معهم. وينهج الراهب هذا التدبير الرهباني دون أي افتعال منه أو نتيجة لأي أسباب أخرى.

حينئذ يدرك عظم وقيمة فضيلة الصمت، فيسكت حتى يتكلم الله كما قال مار إسحاق " سكت فمك فيتكلم قلبك سكت قلبك فيتكلم الله " وبالاستمرار في جهاده اليومي يتدرج حتى يبلغ إلى صمت الفكر عن التجوال في الأمور العالمية (طياشة الفكر)، وأيضاً صمت القلب عن الحركات النفسانية الضارة.

ولذلك عاش آباؤنا الرهبان القديسون معظم حياتهم في صمت تام، وسعوا إليه كل أيام حياتهم، إذ كانت محبة الله

تشغلهم كل حين، ودفعهم هذا إلى الهروب ليس من أهل العالم فقط، بل حتى من إخوتهم الرهبان.

حكى الآباء الشيوخ بدير السريان، عن **الراهب القمص لوقا السرياني**، الذي عاش صامتاً في الدير لا يتكلم مع أحد إطلاقاً. حتى حينما كان يختبره المتنيح الأنبا ثاؤفيلس، رئيس دير السريان، وينادي عليه من الدور الرابع في عمارة القلالي داخل الدير الأثري وذلك في وقت ذهابه لعمل القربان الساعة الثانية عشر في نصف الليل، كان أبونا لوقا السرياني يصعد إليه حتى الدور الرابع ويعمل له ميطانية ويقبل يده ويمضي لعمل القربان دون أن يلفظ بكلمة، وكان يتكرر هذا الموقف يومياً، ولكن أبونا لوقا كان يحتفظ بصمته.

وهذا ما كان يفعله الأنبا أرسانيوس مع إخوته الرهبان. فقد سأله الأنبا مكاريوس مرة قائلاً " لماذا تهرب منا يا أبتاه؟ " فأجابه الشيخ قائلاً " الله يعلم إني أحبكم، ولكني لا أستطيع أن أكون مع الله ومع الناس. لأن ألوف الملائكة والربوات العلوية لهم إرادة واحدة، أما الناس فلهم إرادات كثيرة، وهكذا لا أستطيع أن أترك الله وأصير مع الناس " (١).

(١) بستان الرهبان ص٥٠.

لذلك **قال أيضاً الأنبا أرسانيوس** " كثيراً ما تكلمت وندمت، وأما عن السكوت فما ندمت قط " (١).

وقال مار إسحاق: الذي يُحب الحديث مع المسيح يجب أن يكون وحده، والذي يريد أن يكون مع كثيرين فهو محب لهذا العالم (٢).

كما قال القديس مكاريوس الكبير للإخوة الذين كانوا معه " فروا يا إخوة فروا " فقال الإخوة " أيها الأب كيف نهرب أكثر من مجيئنا إلى البرية؟ " فوضع يده على فمه وقال " من هذا فروا" وفي الحال فر كل واحد إلى قلايته وصمت (٣).

(٤) النسك:

النسك من الممارسات الرهبانية الهامة التي تساعد الراهب في جهاده اليومي. وهو يتدرب عليه منذ دخوله الدير، ويتدرج فيه حتى يصل إلى درجة عالية منه كما يقول القديس بولس الرسول " أقمع جسدي وأستعبده، حتى لا أصير أنا نفسي مرفوضاً " (١كو ٩: ٢٧).

(١) بستان الرهبان ص٤٧.
(٢) بستان الرهبان ص٤٠٣.
(٣) بستان الرهبان ص١٧.

ففي الصوم مثلاً يتدرج الراهب عليه منذ دخوله الدير، فيقلل من كمية الطعام عن ما كان يتناوله في العالم، وبعد فترة يتدرب على الامتناع عن الطعام إلى الساعة العاشرة صباحاً، حتى في الأيام التي لا يجوز فيها الصوم الانقطاعي، ثم يزيد عليه ساعة ثم بعد فترة يزيد عليها ساعتين حتى يصل صومه إلى الساعة الثانية عشر وهكذا ... كل هذا يكون تحت إرشاد وتوجيهات أب الاعتراف، الذي يكون له دراية ومعرفة بظروف عمله بالدير، وكذلك إمكانياته الصحية وأمور أخرى تخص حياته.

وبعد فترة من نمو الراهب في الصوم، تزداد محبته لله فيضيف إلى صوم الأربعاء والجمعة يوماً آخر، ثم بعد فترة يُضيف يومين، وهكذا ... إلى أن يُصبح راهباً نباتياً لا يتناول سوى البقوليات والخضروات طوال أيام السنة ما عدا الأعياد التي لا تسمح فيها قوانين الكنيسة لأي شخص أن يمتنع عن تناول اللحوم وغيرها من الأطعمة الحيوانية.

يقوم الراهب بهذه التدريبات في الصوم، وهو لا يعطي أدنى اهتمام لنوع الطعام الذي يتناوله، حتى إن تكرر تناوله لأيام وأسابيع.

وبعد سنين كثيرة من هذه التدريبات في الصوم، يبدأ في طي الأيام فالأسابيع حينئذ يضعف الجسد وتقوى الروح وتسمو عن الأمور الحسية، وهكذا يزداد الراهب في محبته لله.

ويحكي لنا بستان الرهبان باقة عطرة من حياة الرهبان القديسين الذين تدربوا على النسك والصوم. ومن هؤلاء القديس مكاريوس الكبير الذي قيل عنه أنه كان قد جعل لنفسه قانوناً وهو أنه إذا قدم له الإخوة نبيذاً كان لا يمتنع من شربه لكنه عوض كل قدح نبيذ يشربه كان يصوم عن شرب الماء يوماً. أما الإخوة فلكي ينيحوه كانوا يعطونه وهو لم يمتنع بدوره إمعاناً في تعذيب ذاته. أما تلميذه فلمعرفته بأمر معلمه طلب من الإخوة من أجل الرب ألا يعطوا الشيخ نبيذاً لأنه يعذب ذاته بالعطش. فلما علموا بالأمر امتنعوا عن إعطائه نبيذاً منذ ذلك الوقت (١).

كما قيل أن أنبا أرسانيوس لأجل أنه تربى ونشأ في المُلك، وكان ذا جسد مرفه كأولاد الملوك، لم يقدر سريعاً أن يعبر في طريقة رهبان المصريين ولا صعوبة مسلكهم عاجلاً، بل كان يأخذ نفسه بقطع شهوته بالتدريج قليلاً قليلاً حتى يصل إلى درجاتهم.

---

(١) بستان الرهبان ص١٨.

والعجيب أنه لم يكن محتاجاً إلى طريقة مباشرة في تعليمه بل كان يستقي الحياة النسكية مما يحدث حوله وأحياناً كثيرة كانت تكفيه الإشارة كما حدث في القصتين التاليتين:

١ – جلس الأب أرسانيوس في بعض الأيام يأكل فولاً مسلوقاً مع الإخوة، وكانت عادتهم أن لا ينقوه، أما هو فكان يُنقي الفول الأبيض من بين الأسود والمسوس ويأكل. فلم يوافق رئيس الدير على ذلك وخشي أن يفسد نظام الدير. فاختار رئيس الدير أحد الإخوة وقال له " احتمل ما أفعله بك من أجل الرب ". فأجابه الأخ أمرك يا أبي. قال اجلس بجانب أرسانيوس ونق الفول الأبيض وكله – فعمل الأخ كما أمره رئيس الدير – الذي فاجأه بلطمة مرة على صدغه وقال كيف تُنقي الفول الأبيض لنفسك وتترك الأسود لإخوتك؟ فسجد أرسانيوس للرئيس وللإخوة وقال لذلك الأخ " يا أخي إن هذه اللطمة ليست لك ولكنها موجهة لخد أرسانيوس" وأردف قائلاً " هوذا أرسانيوس معلم أولاد الملوك اليونانيين لم يعرف كيف يأكل الفول مع رهبان إسقيط مصر " وهكذا ازداد فهماً واحتفاظاً بموهبته.

٢ – قيل أن أحد الإخوة المجاورين لقلاية أنبا أرساني، خرج يوماً ليقطع خوصاً، وكان يوما حره شديداً. فلما قطع الخوص ورجع أراد أن يأكل فلم يمكنه أن يبلع الخبز اليابس لأن الحر كان قد يبس حلقه. وفي ذلك الوقت كان الإخوة بالإسقيط يسلكون بتقشف عظيم ونسك زائد فأخذ الأخ وعاء به ماء وأذاب فيه قليلاً من الملح وبَلَّ فيه الخبز وبدأ يأكل ... فدخل إليه الأب إشعياء ليفتقده، فلما أحس الأخ بالأنبا إشعياء رفع الوعاء وخبأه تحت الخوص. وكان أنبا إشعياء رجلاً ذكياً حاراً في الروح جداً. وكان يعلم بأن أنبا أرسانيوس يعمل صنفين من الطعام: بقلاً وخلاً ولكن لأجل احتشامه لم يرد الآباء أن يكسروا قلبه سريعاً. فوجد الأنبا إشعياء أنها فرصة مناسبة لأن يؤدب أنبا أرسانيوس بواسطة هذا الأخ. فقال للأخ ما هذا الذي خبأته مني؟ فقال الأخ اغفر لي يا أبي من أجل محبة السيد المسيح. لقد دخلت البرية لأقطع خوصاً فاشتد عليَّ الحر جداً لدرجة أنه سد حلقي. فلما دخلت القلاية أردت أن آكل فلم أستطع بلع الخبز لجفاف

فمي وحلقي، فأخذت ماءً وأذبت فيه قليلاً من الملح وبللت به القراقيش (الخبز الجاف) ليسهل لي بلعه.

فأخذ الأنبا إشعياء الوعاء وخرج ووضعه قدام قلاية أنبا أرسانيوس، وقال للمراقب دق الجرس كي يحضر الإخوة ليبصروا الأخ زينون كيف يأكل مرقاً، فلما حضروا التفت إلى الأخ وقال له أمام الإخوة: يا أخي لقد تركت تنعمك وكل مالك وجئت إلى الإسقيط حباً في الرب وفي خلاص نفسك. فكيف تريد الآن أن تلذذ ذاتك بالأطعمة؟ إن كنت تريد أن تأكل مرقاً امض إلى مصر لأنه لا يوجد في الإسقيط تنعم. فلما سمع الأنبا أرسانيوس قال لنفسه: هذا الكلام يوجه إليك يا أرساني، وفي الحال أمر خادمه أن يعمل له بقولاً فقط. وقال: ها أنا قد تأدبت بسائر حكمة اليونانيين، أما حكمة هذا المصري بخصوص الأكل وحسن تدبيره، فإني لم أصل إليها بعد. لقد صدق الكتاب إذ يقول " وتأدب موسى بكل حكمة المصريين"(١).

(١) بستان الرهبان ص٤٤، ٤٥.

وقيل عن **القديس يوحنا القصير** أنه قد بلغ الزهد به حداً انقطع معه عن كل طعام وشراب أسبوعاً مستمراً، وإذا أكل لا يشبع خبزاً وكان يردد قول معلمه " لا تتكل على برك ولا تصنع أمراً تندم عليه، وأمسك لسانك وبطنك وقلبك "(١).

وقيل أيضاً عن أنبا دانيال الإسقيطي أنه كان إمعاناً في التقشف والعبادة يتبع نظاماً دائماً كل حياته وهو أن يصوم إلى الساعة الحادية عشرة من النهار (الغروب). هذا بجانب عمل اليدين إذ كان يقوم بعمل السلال ليبيعها في إحدى القرى.(٢).

وأما عن الأنبا موسى الأسود فقيل أنه بعد أن رجع من عند أب اعترافه القديس الأنبا إيسوذوروس وشكى له من شدة حرب الشياطين له وإعادة العادات المرذولة القديمة إلى ذاكرته، أنه رجع إلى قلايته منفرداً وممارساً أنواعاً كثيرة من إماتة الجسد، ولم يتناول سوى القليل من الخبز مرة واحدة فقط في اليوم كله مثابراً على الصلوات وعمل اليدين (٣).

(١) بستان الرهبان ص٨٠.
(٢) بستان الرهبان ص١٠٥.
(٣) بستان الرهبان ص٦٤.

لذلك **قال أنبا إشعياء** للمبتدئين " **إذا كنت ساكناً في قلاية فاجعل لطعامك مقداراً معيناً، ووقتاً معروفاً لا تتعداه لأن خراب النفس هو حب البطن** " (١).

وقال أيضاً " ضبط البطن يذهب الأوجاع أعني الشهوة الردية، أما شهوة الأطعمة فتجلبها. فلا تكن نهماً في الأطعمة لئلا تتجدد فيك خطاياك القديمة " (٢).

وقال القديس الأنبا أنطونيوس " كل خبزك بمسكنة وهدوء وإمساك، إياك والشره فإنه يطرد خوف الله من القلب، والحياء من الوجه. ويجعل صاحبه مأسوراً من الشهوات ويضل العقل عن معرفة الله. اجعل لك مرة واحدة في النهار للقيام بحاجة الجسد لا للشهوة ولا تأكل حتى تشبع " (٣).

وإلى جانب النسك في الطعام، يكون للراهب أيضاً نسكاً في ملبسه. فلا يعد يهتم بالجلباب الذي يرتديه، أو القلنسوة التي تُغطي رأسه. كما ترتسم علامات النسك على قلايته فأثاثها بسيط للغاية قد لا يتعدى حصيرة يجلس عليها ويفترش مثلها

(١) بستان الرهبان ص١٥١.
(٢) بستان الرهبان ص١٥٠.
(٣) بستان الرهبان ص١٦٧.

لينام عليها. وعند تناول الطعام يجلس على الأرض ويأكل ... وإجمالياً تُصبح معيشته داخل قلايته بنسك في كل شيء. ومع نمو الراهب وتزايده في النسك كل يوم، تزداد محبته لله، ويكسبه النسك اتضاعاً ومسكنة وتقرباً إلى الله، أو قل اقتراب الله إليه، لأن قلب المتضع مسكن لله. وكأن الله يقول لصاحب هذا القلب " هذا هو موضع راحتي ههنا أسكن لأني أردته " (مز ١٣٢: ١٤).

وقد رأينا في جيلنا بعض الآباء الذين عاشوا في نسك شديد في المأكل والمشرب والملبس والنوم ... منهم **المتنيح الراهب القمص أرمانيوس السرياني** (١) الذي عاش خارج قلايته في الطابونة فترة وفي حديقة الدير فترة وتحت شجرة مار أفرام فترة أخرى وفي آخر الكنيسة فترة وأخيراً في الجو (مخازن الدير) وحجرة الطبيخ العام. وكان ينام على دكة طولها ١٥٠سم وعرضها ٢٥سم. وكان يلبس جلباب مقطع بالي حتى أن رئيس الدير المتنيح الأنبا ثاؤفيلس أشفق عليه وأرسل مع أحد الآباء جلباب جديد له. وكان طعامه قليلاً جداً.

(١) يمكن الرجوع إلى كتاب راهب ناسك للمؤلف.

كما رأينا **المتنيح الراهب القس أوغريس السرياني** (١) ينام على كليم عرضه ٥٠سم وطوله ١٥٠سم ويتغطى بشوالين خاطهم معاً، ويضع رأسه على حجارة مغطاة بقطعة قماش أسود، ومطبخه عبارة عن برميل جاز فارغ عليه وابور وبعض العلب الفارغة التي يُحضر فيها أمراسه، وكان لا يتناول طعاماً حيوانياً سواء لحوم أو جبن أو لبن أو ....

كما شاهدنا **المتنيح الراهب القس كاراس السرياني** (٢) الذي كان ينام على بطانية مفروشة على الأرض ولم يكن عنده سوى وابور شرائط يطهي عليه الطعام ويعمل عليه الشاي.

كما شاهدنا **الراهب القمص فانوس الأنبا بولا**، أطال الله حياته، يسكن في قلاية فارغة تماماً من كل شيء. موضوع في جانب منها بعض البرطمانات المملوءة ماء للشرب وأمام محبسته كوم علب فارغة وآخر قشر بطاطس وآخر مهملات. يجلس وينام على الأرض ...

ويحكي بستان الرهبان عن " راهب مسكين لا يملك شيئاً، لكنه كان رحيماً، فأتاه سائل يطلب صدقة، ولم يكن عنده

(١) يمكن الرجوع إلى كتاب راهب معاصر للمؤلف.
(٢) يمكن الرجوع إلى كتاب بستان الفضيلة للمؤلف.

سوى خبزة واحدة فدفعها إليه، ولكن السائل قال له لست محتاجاً إلى خبز بل إلى ثوب. فأراد الأخ إقناعه فأخذ بيده وأدخله إلى القلاية فلما أبصر السائل أنه ليس له شيء غير الثوب الذي على جسده رق له ووهبه تليس خبز كان معه " (١).

وقيل عن أنبا سيرابيون أنه كان في كل زمانه يلبس (سبانية) وهي عبارة عن ثوب من كتان سميك. وما كان يمتلك شيئاً البتة حتى ولا عصا ولا حذاء، سوى إنجيل صغير.

" ومرة مضى أنبا سيرابيون إلى الإسكندرية، فوجد هناك إنساناً مسكيناً عرياناً في السوق. فوقف يحدث نفسه قائلاً: كيف وأنا الذي يُقال عني أني راهب صبور عمَّال أكون لابساً ثوباً، وهذا المسكين عريان، حقاً إن هذا هو المسيح والبرد يؤلمه. وعندئذ وثب بقلب شجاع وتعرى من الثوب الذي كان يلبسه وأعطاه لذلك المسكين. ثم جلس هو عرياناً والإنجيل في يده ... واتفق أن كان (البرخس) أي المحتسب مجتازاً، فلما أبصره عرياناً قال له : يا أنبا سيرابيون من عراك؟ فأشار إلى الإنجيل وقال هذا هو الذي عرَّاني. فبعدما كسوه قام من هناك، فوجد إنساناً عليه دَين وهو معتقل من صاحب الدَين وحيث لم يكن

(١) بستان الرهبان ص٤٨٣.

لديه شيء يوفيه عنه باع الإنجيل ودفع ثمنه للدائن، ولما كان ماشياً لاقاه في الطريق إنساناً يستعطي، فأعطاه الثوب وجاء عرياناً فدخل قلايته. فلما أبصره تلميذه هكذا قال له يا معلم أين الثوب الذي كنت تلبسه؟ أجابه قائلاً لقد قدمته يا ولدي قدامنا حيث نحتاجه. فقال له أيضاً وأين إنجيلك يا أبتاه الذي كنا نتعزى به؟ فقال له يا ولدي لقد كان يقول لي كل يوم بع كل مالك وأعطه للمساكين فبعته (١).

وهكذا سلك أنبا بيصاريون الذي كان كطيور السماء، وكأحد وحوش البرية وكائنات الأرض الزاحفة. أكمل حياته في سَكينَة بلا هم. ولم يهتم قط ببيت ولا خَزَّن طعاماً ولا اقتنى ملبساً أو كتاباً .... طائفاً في البراري كالتائه، عارياً تحت الأهوية (٢).

(٥) جهادات وممارسات أخرى:

إلى جانب ما سبق ذكره، يُمارس الراهب كثير من الوسائط المقدسة التي تُلهب قلبه كل يوم بمحبة الله. منها التأمل، وحبس القلاية، والسهر، والسكون، وخدمة الآخرين، وقراءة الكتاب المقدس، والتناول من الأسرار المقدسة وغيرها .....

(١) بستان الرهبان ص ٨٤.
(٢) بستان الرهبان ص ٩٣.

ثانياً: محبة القريب في حياة الراهب

محبة القريب هي الشق الثاني من الوصية العظمى التي ذكرها السيد المسيح للفريسي، إذ قال له " تُحب الرب إلهك من كل قلبك ... والثانية مثلها تُحب قريبك كنفسك " (مت ٢٢: ٣٦ – ٤٠). ونظراً لأهميتها وضعها السيد المسيح في مستوى وصية محبة الله إذ قال " والثانية مثلها ".

ومحبة القريب يجب أن تشمل كل الناس في العالم أجمع، لأن البشر كلهم أقرباء، فهم أبناء أب واحد هو آدم، وأم واحدة هي حواء. فهم يكوِّنون جميعاً أسرة واحدة، تربطهم رابطة الدم وبالتالي رابطة الحب.

لذلك فهي (أي محبة القريب) تتضمن محبة الأعداء، حسب وصية السيد المسيح في الموعظة على الجبل " أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات " (مت ٥: ٤٤، ٤٥).

ويظن البعض أن اختلاء الرهبان بعيداً عن إخوتهم في العالم، نوع من الأنانية وعدم محبة الآخرين وخدمتهم، ولكن الأمر في الحقيقة غير ذلك. لأن تعاليم الآباء الرهبان تؤكد أن الراهب هو

خادم محب، يعتبر كل الناس إخوته، ويصلي من أجل سلام العالم، والزروع والعشب وصعود المياه والأهوية ونجاة الناس والبهائم من الزلازل والغرق والحريق، ومن أجل المتضايقين والحزانى وإجمالياً .... من أجل كل إنسان حتى الذين ليس لهم أحد يذكرهم.

وهناك قصص كثيرة تُحكّى عن محبة الرهبان لأهل العالم ومساعدتهم للفقراء والمحتاجين، فنسمع عن الأنبا شنوده رئيس المتوحدين الذي كان يُطعم فقراء كثيرين في أيامه، وكان الأنبا باخوميوس أب الشركة يزور المرضى أثناء انتشار مرض الطاعون في مصر، بينما قيل أن الله أفاض رحمته على العالم بفضل صلوات الأنبا بولا أول السواح.

وإن كانت حياة الراهب تستدعي الانفرادية والتوحد، مبتعداً عن خلطة العلمانيين، وحتى عن إخوته في الدير، إلا أن قلبه ممتليء بالمحبة لكل إخوته في الدير، ولا يمكنه أن يمكث في قلايته ساعة واحدة وفي قلبه ضغينة أو أي شيء ضد أخيه، كقول أحد القديسين " أحبب الكل وابتعد عن الكل ".

وفي حياة الراهب هناك العلاقة القوية بين محبته لله ومحبته للقريب. فكلما نمت محبة الله في قلب الراهب وامتدت إلى أعلى

وتعمقت (تعمق رأسي) كلما اتسعت محبته للقريب بل وامتدت لمحبة الأعداء والجنس البشري كله (اتساع أفقي). وبهذا يكمل الصليب ويتضح في حياة الراهب من خلال محبته لله ومحبته للقريب.

قال الأب يوحنا الكوفي " لا يمكن بناء البيت من فوق إلى تحت، بل من الأساس إلى فوق. فقالوا له ماذا يعني هذا القول؟ أجاب الشيخ، الأساس إنما هو محبة القريب وعليك أن تربحه قبل كل شيء، إذ تقوم عليه كل وصايا المسيح " (١).

يُذكر عن راهب أنه كان كثير الرحمة، وكان بالبلاد غلاء شديد، لكن قلبه لم يتحول عن فعل الرحمة، حتى فقد كل شيء له ولم يتبق لديه إلا ثلاث خبزات. وأراد الله امتحانه، فلما جاء ليأكل قرع سائل بابه فقال لنفسه: أجدر بي أن أظل جائعاً ولا أن أرد أخ المسيح بدون طعام في هذا الغلاء العظيم، فأخرج خبزتين له وأبقى لنفسه خبزة واحدة. وقام يصلي وجلس ليأكل، وإذا بسائل آخر يقرع الباب، فانتابته أفكار تضايقه من أجل الجوع الذي يعتريه، ولكنه رفضها بشدة. وأخذ الخبزة وأعطاها للسائل قائلاً: أنا أؤمن بالمسيح ربي، أني إذا أطعمت

(١) كيف نحيا مع الله جزء ٣ ص٣٣٢.

عبده في مثل هذا الوقت الصعب فإنه يطعمني هو من خيراته التي لم ترها عين، التي أعدها لصانعي إرادته. ورقد جائعاً، وبقى هكذا ثلاثة أيام لم يذق شيئاً وهو يشكر الله. وبينما كان يصنع خدمة الليل جاءه صوت من السماء يقول له " لأجل أنك أكملت وصيتي، وغفلت عن نفسك وأطعمت أخاك الجائع، لا يكون في أيامك غلاء على الأرض كلها ". فلما أشرق النور وجد على الباب جمالاً محملة بخيرات كثيرة، فمجد الله وشكر الرب يسوع المسيح. ومن ذلك اليوم عمَّ الرخاء الأرض كلها.([1]).

والسيد المسيح له كل المجد، هو المثال الذي يحتذي به الرهبان في المحبة والبذل. فالسيد المسيح بيَّن محبته لنا " إذ ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا " (رو ٥: ٨). والسيد قال " ليس لأحد حب أعظم من هذا، أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه " (يو ١٥: ١٣). وصار السيد المسيح ذبيحة حب لأجلنا " لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية " (يو٣: ١٦).

([1]) بستان الرهبان ص٤٨٢.

ونتغنى كل يوم في ذكصولوجية باكر بالمحبة الأخوية في المجامع الرهبانية قائلين: " ما هو الحسن وما هو الحلو إلا **اتفاق إخوة ساكنين معاً، متفقين بمحبة حقيقية إنجيلية** كمثل الرسل، مثل الطيب على رأس المسيح النازل على اللحية إلى أسفل الرجلين. يمسح كل يوم الشيوخ والصبيان والفتيان والخدام؛ **هؤلاء الذين ألفهم الروح القدس معاً مثل قيثارة مسبحين الله كل حين** بمزامير وتسابيح وترانيم روحية النهار والليل بقلب لا يفتر ". وقال داود النبي عن هذه المحبة: " هوذا ما أحسن وما أجلى أن يسكن الإخوة معاً، كالطيب الكائن على الرأس الذي نزل على اللحية، لحية هارون النازلة على جيب قميصه، ومثل ندى حرمون المنحدر على جبل صهيون، **لأن هناك أمر الرب بالبركة والحياة إلى الأبد** " (مز ١٣٢) فالمحبة الأخوية بين الرهبان في الدير تُشبه الطيب النازل على رأس المسيح، يفرح بها المسيح، ويَشتَّم رائحتها الجميع ويفرحون بها أيضاً، وهي مثل طيب مسكوب لأن فيها تنسكب نفس الراهب في حب وبذل وعطاء من أجل إخوته في مجمع الدير.

والمحبة الأخوية بين الرهبان، ألفها الروح القدس، مثل قيثارة تعزف لحناً روحياً جميلاً، لا ينقطع عن العزف الروحاني الجميل

في النهار والليل، فالروح القدس يؤلفهم ويجمعهم في وحدة واحدة رغم اختلاف ثقافتهم ودراستهم ومدنهم وظروفهم الاجتماعية والمادية قبل الرهبنة وكذا طريقة تفكير كل واحد وطباعه ....

وتسمو المحبة بين الرهبان في المجامع الرهبانية عن المحبة الأخوية بين أفراد الأسرة الواحدة، وذلك يرجع للرباط الروحي المقدس الذي يقوم به الروح القدس لوضع روح الألفة والمودة بينهم، بالإضافة لوحدة الهدف الذي يسعى الكل إلى تحقيقه وهو خلاص النفس. وهذا أقوى من مجرد رباط الدم العادي بين الإخوة في العالم. لذا يستعيض الراهب عن إخوته بالجسد بإخوة آخرين، له بهم رباط أقوى وأعظم. وهذا يفسر استقراره في الدير وعدم الرغبة في تركه أو الحنين لإخوته السابقين ولو كان قد أمضى معهم في ميلاده ونشأته قرابة الربع قرن ....

كما أن مفاعيل الحياة الرهبانية السامية، تزيد وتقوى رباط الحب المقدس الروحاني بين أرواحهم، مثلما تعمل رابطة الدم في الربط والألفة بين الإخوة داخل الأسرة الواحدة.

ومحبة القريب لها شقان الأول منها سلبي، وقال عنه القديس بولس الرسول : " لا تكونوا مديونين لأحد بشيء إلا بأن يحب

بعضكم بعضاً، لأن من أحب غيره، فقد أكمل الناموس، لأنه لا تزن لا تقتل لا تسرق لا تشهد بالزور لا تشته، وإن كانت وصية أخرى، هي مجموعة في هذه الكلمة، أن تحب قريبك كنفسك، **المحبة لا تصنع شراً للقريب**، فالمحبة هي تكميل للناموس " (رو ٣: ٨ – ١٠).

أما الشق الثاني فهو الإيجابي والذي قال عنه القديس يوحنا الرسول : " **يا أولادي لا نُحب بالكلام ولا باللسان، بل بالعمل والحق** " (١يو ٣: ١٨).

وسوف نتناول هذين الجانبين من واقع الحياة الرهبانية داخل الدير.

أولاً: الجانب السلبي :

هذا الجانب من محبة القريب، أجمله الرسول بولس في قوله: " **المحبة لا تصنع شراً للقريب** " (رو ٣: ١٠). فمحبة الراهب لإخوته في الدير تجعله ألا يغضب عليهم أو يُغضبهم أو يحقد عليهم أو يشتمهم أو يحسدهم أو يتكبر عليهم. إذ الرسول يُعلمنا في إصحاح المحبة " أن المحبة تتأنى وترفق، المحبة لا تحسد، المحبة لا تتفاخر ولا تقبح ولا تطلب ما لنفسها ولا تحتد ولا تظن السوء ولا تفرح بالإثم بل تفرح بالحق، وتحتمل كل شيء

وتصدق كل شيء وترجو كل شيء وتصبر على كل شـــيء، المحبة لا تسقط أبداً " (١كو ١٣: ٤ – ٨).

وللآباء بعض الأقوال عن هذا نذكر منها:

قال شيخ: من يحقد على أخيه، فقد خزَّن ذنوبـــه في ذاتـــه وختم عليها.

قال القديس باخوميوس: لا تحقد على الناس لئلا تـــصبح مرذولاً من الله، بل اجعل لك سلاماً مع أخيك لتكون محبوباً ن ربك.

وقال أيضاً: إذا أكمل الإنسان جميع الحسنات، وفي قلبـــه حقد على أخيه، فهو غريب عن الله.

قال الأنبا تيموثاوس: المحبة لا تعرف كيف تدين رفيقهـــا، ولا تكافيء بالسيئات.

وقال القديس موسى الأسود: لا تكن قاسي القلب علـــى أخيك، فنحن جميعاً قد تغلبنا الأفكار الشريرة.

وقال أيضاً: إياك أن تسمع بسقطة أحد إخوتك، لئلا تكون دنته خفية. وقال أيضاً: احفظ سمعك لئلا تجمع لك حزنـــاً في ذاتك.

من كتاب الدرجي:

سمعت نَمَّامين، فلما زجرتهم قالوا لي بأنهم لا يفعلون شراً، وإنما يفعلون ذلك محبة وشفقة على أولئك الذين يتكلمـــون في حقهم، أما أنا فقلت لهم: ليست هذه محبة لكنك إن كنت تحبه حقاً، فصلِّ من أجلهم خفية ولا تهيج أو تسب أحداً.

سأل أخ القديس يوسف قائلاً: ماذا أعمل فإنه لا يمكنني أن أتعب أو أعمل أو أتصرف؟ فقال له الشيخ: إن لم يمكنك العمل فاحفظ قلبك ونيتك من كل ظن سوء بأخيك فتخلص، لأن الله يريد النفس ألا تكون خاطئة.

ولهذا الجانب السلبي من محبة القريب أهمية كبيرة في المجامع الرهبانية، فعليه يتوقف الهدوء والسلام بين الرهبـــان في الـــدير وبالتالي ينعكس على حياة الراهب داخل قلايته ونموه الروحي.

ومحبة الراهب لإخوته الرهبان بالدير وتعامله معهم، تُكسبه فضائل كثيرة ما أمكنه اكتسابها بدون احتكاكه وتعامله معهم. وهو هنا يُشبه كرة ممتلئة أشواك، عندما تدفعها بيدك تتـــدحرج بصعوبة على الأرض، وقد تجرح وتؤذي أي شيء تصطدم بـــه، ومن اصطدامها تنكسر منها شوكة تلو الأخرى إلى أن تُـــصبح ملساء سهلة التدحرج. حينئذ لا تؤذي أو تجرح أحداً ممن تقابله

في طريقها. فالراهب حينما يدخل الدير، يدخل بضعفاته التي كانت معه وهو في العالم كمحبة الذات وكثرة الكلام وإدانة الآخرين والنميمة وعدم الاحتمال والغيرة والحقد ... ولكن محبته لإخوته الرهبان وتعامله معهم تكسر من داخله هذه الأشواك واحدة تلو الأخرى إلى أن يتخلص من جميعها، ويصبح راهباً وديعاً ولطيفاً ومحباً مع الجميع.

وكلما كان الراهب محباً لإخوته الرهبان، كلما أثمر فضائل كثيرة. إذ أن محبته لإخوته الرهبان تمنعه من إدانتهم أو التكلم عليهم أو الغيرة والحقد عليهم ..... وهذا يُكسبه فضيلة الاتضاع والصمت أو الكلام النافع المثمر بدلاً من تضييع الوقت في الكلام على إخوته. ومحبته لإخوته الرهبان، تكسبه فضيلة الاحتمال، أي احتمال أخوه إن صدر منه كلام جارح له ...

وذكر بستان الرهبان قصة عن القديس مكاريوس يُظهر محبته للإخوة وعدم إدانتهم " قيل عن القديس مكاريوس أنه كان في بعض القلالي أخ صدر منه أمر شنيع وسمع به الأب مكاريوس، ولم يرد أن يبكته ... فلما علم الإخوة بذلك لم يستطيعوا صبراً، فما زالوا يراقبون الأخ إلى أن دخلت المرأة إلى عنده، فأوقفوا بعض الإخوة لمراقبته، وجاءوا إلى القديس

مكاريوس فلما أعلموه قال يا إخوة لا تصدقوا هذا الأمر، وحاشا لأخينا المبارك من ذلك. فقالوا يا أبانا اسمح وتعال لتُبصر بعينيك حتى يُمكنك أن تُصدق كلامنا. فقام القديس وجاء معهم إلى قلاية ذلك الأخ كما لو كان قادماً ليسلم عليه، وأمر الإخوة أن يبتعدوا عنه قليلاً. فما أن علم الأخ بقدوم الأب حتى تحير في نفسه، وأخذته الرعدة وأخذ المرأة ووضعها تحت ماجور كبير عنده، فلما دخل الأب جلس على الماجور وأمر الإخوة بالدخول، فلما دخلوا وفتشوا القلاية لم يجدوا أحداً، لم يمكنهم أن يوقفوا القديس من على الماجور ثم تحدثوا مع الأخ وأمرهم بالانصراف. فلما خرجوا أمسك القديس بيد الأخ وقال يا أخي على نفسك أحكم قبل أن يحكموا عليك، لأن الحكم لله. ثم ودعه وتركه، وفيما هو خارج إذ بصوت أتاه قائلاً طوباك يا مكاريوس الروحاني يا من تشبهت بخالقك، تستر العيوب مثله. ثم أن الأخ رجع إلى نفسه وصار راهباً حكيماً مجاهداً وبطلاً شجاعاً " (١).

كما يذكر بستان الرهبان أيضاً قصة عن الأنبا موسى الأسود وتظهر محبته لإخوته الرهبان وعدم إدانتهم. " قيل أخطأ

(١) بستان الرهبان ص٢٢.

أخ في الإسقيط يوماً، فانعقد بسببه مجلس لإدانته وأرسلوا في طلب أنبا موسى ليحضر. فأبى وامتنع عن الحضور. فأتاه قس المنطقة وقال: أن الآباء كلهم ينتظرونك. فقام وأخذ كيساً مثقوباً وملأه رملاً، وحمله وراء ظهره وجاء إلى المجلس. فلما رآه الآباء هكذا قالوا له: ما هذا أيها الأب؟ فقال هذه خطاياي وراء ظهري تجري دون أن أبصرها، وقد جئت اليوم لإدانة غيري عن خطاياه. فلما سمعوا ذلك غفروا للأخ، ولم يحزنوه في شيء."([1]).

ثانياً الجانب الإيجابي:

قد يعيش الراهب مع إخوته الرهبان في الدير، دون أن يسيء إليهم أو يسبب لأحدهم ضرراً، ولكن يعتبر هذا السلوك سلبياً ولا يكفي وحده بالرغم من أهميته، وإلى جانب هذه المحبة يتطلب محبة إيجابية عملية، حتى يتسنى له السعي في طريق الكمال الذي ابتغى السلوك فيه حسب وصية المسيح.

لذا عليه أن يسعى باجتهاد وبذل وعطاء من أجل محبته لإخوته الرهبان، لئلا تتسبب محبته الفاترة أو السلبية في أن يسمع ما سمعه ملاك كنيسة اللاودكيين: " أنا عارف أعمالك أنك

([1]) بستان الرهبان ص٦٨.

لست بارداً ولا حاراً، ليتك كنت بارداً أو حاراً، هكذا لأنك لست بارداً ولا حاراً أنا مزمع أن أتقيأك من فمي " (رؤ ٣: ١٥ – ١٦).

فهناك بعض من الرهبان يظهرون بمظهر المحبة العملية الإيجابية، لكن يخفون وراءها أغراضاً غير صالحة، هؤلاء الذين لهم ألسنة تقطر عسلاً للكل دون أن يعطوهم ليأكلوا منه، يتكلمون بحلاوة وشهامة أو وعود أو آمال دون أن ينفذوا شيئاً منها.

والبعض الآخر منهم، يعرض استعداده لأداء خدماته في أي وقت، ويأخذ كلامه مظهر المحبة، ولكن وقت أن يطلب منه أحد خدمة معينة، يقدم اعتذارات كثيرة وواهية عن عدم مقدرته على القيام بها. بل وإن لم يستطع أن يهرب من الخدمة التي طُلبت منه، يعملها وهو على مضض، وقد لا يمكنه إخفاء علامات الاستياء التي تظهر في ملامح وجهه ويديه أو في كلامه.. وما أن يشعر صاحب الطلب هذا، حتى يشكره ويعفيه من استكمال الخدمة.

وواحد آخر من هؤلاء، قد يقوم بزيارة راهب مريض بالدير، أو بزيارة راهب يمر بضيقة ما، أو بزيارة راهب لتهنئته

بالرهبنة أو الكهنوت وتقديم هدية له ... وهذه الزيارة لم تكن بدافع المحبة إنما لئلا يُعتَب عليه ويُقال أنه لم يقم بأداء الواجب.

ومن هؤلاء أيضاً من يقوم بعمل خدمة لأخيه الراهب، مغلفة من الخارج بمظهر المحبة له، ولكن تخفي في باطنها الحصول على نفع معنوي أو مادي أو وظيفي .... وهذا النوع يكون على استعداد لعمل أي شيء حتى إن صار خادماً أو عبداً في نظير الحصول على ما يرغبه، وهذا النوع يكون في ذل ومهانة إلى أبعد الحدود.

والبعض يظهر بمظاهر المحبة بغرض إشباع الذات بالمديح أو إشباع الذات من الفراغ الروحي والعاطفي الذي يحيط بها ... مسكين هذا الراهب، بل ومسكينة كل نفس تبحث عن شبعها في شخص ما من الرهبان أو من العلمانيين أو في أي شيء مادي كالمال أو الخطية أو الكمبيوتر أو ... وتجهل أن **الشبع الحقيقي لن تجده إلا داخل القلاية حينما تجلس النفس تحت أقدام المسيح، وتدخل في علاقة حب حقيقي وعشرة روحية معه ...**

أما المحبة الحقيقية الإيجابية بين الرهبان، لها صور وأشكال كثيرة جداً ومتعددة نذكر البعض منها على سبيل المثال كما جاء في بستان الرهبان:

قصة الأنبا موسى الأسود يملأ الجرار للرهبان: " كانت المياه يصعب إحضارها إلى القلالي إذ كان يلزم أن يسيروا مسافة كثيرة واستغل موسى الأسود هذه الفرصة يُدرب نفسه على أعمال المحبة، فكان يخرج ليلاً ويطوف بقلالي الشيوخ ويأخذ جرارهم ويملأها بالماء، فلما رأى الشيطان هذا العمل لم يحتمله فتركه إلى أن أتى في بعض الأيام إلى البئر ليملأ قليلاً من الماء وضربه ضرباً موجعاً حطم عظامه حتى وقع على الأرض مثل الميت وجاء بعض الإخوة فحملوه ومضوا به إلى البيعة. وهناك أقام القديس بالبيعة نحو ثلاثة أيام ثم رجعت روحه إليه" (١).

أخبروا عن أنبا تاؤدورس: أنه لما كان شاباً وهو يسكن في البرية قام ذات يوم يخبز لنفسه خبزاً. فوجد أخاً ليس له من يعمل له خبزاً إذ لم يكن يجيد صناعة الخبز فترك أنبا تاؤدورس خبزه وعمل خبز ذلك الأخ، وجاء أيضاً أخ آخر فخبز له خبزه. وبعد أن أراحهم، حينئذ عمل خبزه أيضاً (٢).

---

(١) بستان الرهبان ص٦٤.

(٢) بستان الرهبان ص٤٧٢.

كان أنبا أبوللو إذا جاءه أحد الإخوة طالباً معونته في عمله، فإنه يمضي معه بفرح قائلاً" لقد حُسبت اليوم مستحقاً لأن أعمل مع الملك المسيح، وذلك أفضل جداً من نفسي (١).

أخبروا عن أخوين روحانيين ساكنين بعضهما مع بعض وأن أحدهما اقتنى له محبة في رفيقه جداً في كل شيء. وكان ينيح أخاه حتى أنه كان يُخرج فراشه في الشمس ويفرشه ويحرص في خدمته. وهو واثق من أجل حب المسيح أن كل ما يصنعه معه يصنعه مع المسيح فاستحق حسنة عظيمة من الله. لأجل حبه الذي بلا رياء. ونظراً لنموه الصالح، أرسل إليه ملاكاً لكي يباركه وأن الأخ لم يحتمل أن يقبل منظر الملاك لأجل بهائه. ثم جعل في قلبه أنه غير مستحق ثم بدأ يقول للملاك لعلك أُرسلت إلى أخي لأني غير مستحق لهذا ومكث معه الملاك قائماً لكي يباركه. فلما بدأ يقاطع على الملاك، تعجب من اتضاعه الكثير وأن الأخ عاد وقال للملاك: إن كان الرب أرسلك بحق لكي تباركني فبارك على أخي الذي معي وأنا أؤمن أني قد بوركت (٢).

(١) بستان الرهبان ص٤٧٢.
(٢) بستان الرهبان ص٤٧٣.

ونذكر بعضاً من مظاهر المحبة الإيجابية داخل المجامع الرهبانية في وقتنا الحاضر.

(أ) الصلاة من أجل الإخوة:

عندما ينسكب الراهب أمام الله في صلاة عميقة داخل قلايته الخاصة في الخفاء من أجل إخوته الرهبان تظهر عن امتلاء قلبه بالمحبة العملية نحوهم فهو يصلي من أجل الخليقة كلها. ويصلي من أجل إخوته الرهبان في الدير، يذكر كل واحد منهم باسمه، ويذكر أيضاً كل من طلب منه الصلاة من أجل موضوع معين أو مشكلة ما، ويصلي أيضاً صلاة خاصة لكل راهب يعرف أنه مريض أو يمر بضيقة أو تجربة أو ... ولا يتوقف عن الصلاة من أجلهم، حتى تمر المشكلة والرب يعين ...

وإن صلى القداس ورفع الذبيحة، يكون المريض أو صاحب الضيقة هو موضوع الصلاة في القداس، وقد يكتب اسمه على ورقة وبها الصلاة ويضعها على المذبح، أو قد يطلب شفاهاً من الكاهن الخديم، أن يذكر اسم الراهب في صلاته، وذلك أثناء تعميد قربانة الحمل ...

من هنا نستخلص محبة الراهب لإخوته الذين لا يغيبون عن ذاكرته دائماً، فيصلي من أجل خلاص نفوسهم وثباتهم في الحياة الرهبانية، وانتصارهم في جهادهم ضد قوات الشر الروحية.

(ب) الافتقاد والزيارة:

لا يكتفي الراهب المحب لإخوته بالصلاة من أجلهم في قلايته لكنه يترجمها إلى سلوك عملي، فيذهب لزيارتهم في قلاليهم ويطمئن على شفائهم أو انتهاء التجربة التي كان يمر بها.

فإذا كانت الزيارة لمريض ففي أثناء الزيارة يسرع الكل لخدمته وأخذ بركته، فراهب يقدم له الدواء وآخر يطهي له الطعام ومجموعة أخرى من الرهبان تنظف له القلاية فالكل يبدي استعداده للعمل على راحته، وتنفيذ ما يطلبه منهم. أما من فاتته هذه البركة فتصحب زيارته كلمات التعزية والتشجيع.

قال بلاديوس: ذهب أنبا مكاريوس في إحدى المرات ليزور راهباً، فوجده مريضاً فسأله إن كان يحتاج إلى شيء ليأكل، إذ لم يكن له شيء في قلايته. فقال الراهب أريد خبزاً طرياً (أو فطيراً). فلما سمع الرجل العجيب هذا الطلب، سار إلى الإسكندرية – ولم يحسب الرحلة إليها متعبة على الرغم من أن المدينة كانت تبعد عنهم ٦٠ ميلاً – وأحضر طلب المريض. وقد

فعل هذا بنفسه ولم يُكلف أحداً آخر بأن يحضره. ولهذا أوضح الشيح مقدار الاهتمام الذي يشعر به نحو الرهبان (١).

ويقول القديس الأنبا أنطونيوس: (٢) إذا قمت باكراً كل يوم اسأل عن المرضى الذين عندك.

وسأل أخ أحد الشيوخ قائلاً له: أخبرني يا أبي كيف أفتقد الأخ؟ فرد عليه الشيخ قائلاً : افتقاد الأخ جيد، والكلام البطال رديء، وهذا الأمر يأتي بك إلى التجربة، فافتقد إذن أخاك، وتحفظ من الكلام البطال وليكن حديثكما في أخبار الآباء السالفين وفيما كانوا يعملونه. وتقول له كيف أنت وكيف حالك يا أخي؟ ويا أبي؟ ولا تلتمس منه سوى كلام الحياة فقط، وقل له صل عليَّ، فإن لي خطايا كثيرة وما شابه ذلك واعمل للحين ميطانية وانصرف من عنده بسلام. (٣).

وقال سمعان العمودي لتكن أسماء الإخوة حلوة في فيك، ومناظرهم جميلة محبوبة في عينيك، وخدمتهم سهلة ميسورة في

---

(١) بستان الرهبان ص٢٢، (فردوس الآباء جزء ١ ص١٨٩).
(٢) بستان الرهبان ص٤٧٢.
(٣) بستان الرهبان ص٤٧٤.

يديك، اعمل برغبة واتضاع، وعلم بلا حسد ولا بخل (١).

ونجد أن أمثال هذه الزيارات التي تكلم عنها الآباء القديسون تدل على عمق المحبة الأخوية بين الرهبان، فالراهب الذي يُحب أخاه يساعده على بناء حياته الروحية والسمو إلى أعلى، فلا يتحدث معه إلا في الروحيات التي تمس خلاص نفسيهما، أو يتأمل معه في آية من آيات الكتاب المقدس تأثر بها، أو سيرة أحد القديسين الذين قرأ عنهم، فبعد انتهاء الزيارة وانصراف كل منهما إلى قلايته، يتأمل فيما سمع فيقرأ الكتاب المقدس بشغف وهو يمتليء من اشتعال روحه ويقظتها فلا يرغب في النوم أو حتى يفكر فيه إذ تلاحقه الأفكار المقدسة والتأملات الروحية بدرجة لا يمكنه إيقافها أو الحد منها ... حتى يسمع دقات جرس نصف الليل.

بينما نجد البعض الآخر يقوم بزيارات متكررة، بداع أو بغير داع دون أن يحسب قيمة الوقت بالنسبة له أو لمن يزوره، مما يعني عدم حرصه على وقت أخيه وتعطيله عن عمله الروحي وغالباً ما يتطرق الحديث في هذه الزيارات إلى مواضيع متفرقة قد تدخل في الإدانة والنميمة ... أو قد تتطرق إلى سياسة الدير

(١) بستان الرهبان ص٤٦٣.

أو الكنيسة، وكلها مواضيع لا تفيد في شيء بل قد تؤدي إلى هلاك النفس، حتى إن أخذ الراهب حذره و لم يجاري زميله في الكلام، إلا أنها قد تسبب تأثيراً ضاراً على حياته الروحية، وقد تصيبه بالفتور.

(ج) المشاركة الوجدانية:

المشاركة في السراء أو الضراء، هي إحدى مظاهر المحبة الإيجابية بين الرهبان، عملاً بقول الكتاب " فرحاً مع الفرحين وبكاءً مع الباكين " (رو ١٢: ١٥).

وتظهر هذه المشاركة، عند سيامة أحد الإخوة راهباً في الدير، أو سيامة أحد الرهبان كاهناً، إذ تجد مجموعات من الرهبان تذهب إلى قلاية الراهب لتقديم التهنئة له ومعهم هدية تذكارية له.

وعند وفاة أحد من أقارب أي راهب يذهب الكل ويقدمون له العزاء. وأيضاً عندما ينضم أحد الإخوة الجدد من طالبي الرهبنة إلى مجمع الدير، يهنئونه بالانضمام إليهم ويشجعونه لأنه اختار هذا الطريق، داعين له بالثبات والنمو، وهناك من الرهبان من يقوم بزيارته وتقديم هدية له أو كتب روحية أو أي شيء

آخر ممكن أن يستفيد منه أو يستخدمه في قلايته، معبراً عن فرحته ومحبته لقدومه ووجوده وسطهم.

وهناك بعض الرهبان، ممن يفضلون إنكار ذواتهم وعدم التظاهر فيضعون هدية أو أي شيء مما قد يحتاجه الأخ الجديد أو الراهب الذي رسم عند باب قلايته، ويمضون دون أن يراهم أحد أو يعلم بهم أحد. فعند رجوع الأخ الجديد أو الراهب من عمله، يجد أمام قلايته أشياء كثيرة موضوعة. فيدخلها وهو متأثر جداً من محبة الآباء الرهبان له فيتعلم درس المحبة ويتغلغل في داخله دستور المكان الذي يعيش فيه، وهو المودة وعمل الرحمة. فتتولد في قلبه محبة مماثلة. تظهر في حديثه معهم وأيضاً تُرى في احترامه وخدمته وطاعته لهم ...

وعندما يصل إلى علم أحد الرهبان احتياج أخيه لشيء ما، ففي الحال يرسله إليه إن وجد في قلايته، وإن لم يوجد عنده يرسل ليشتريه له، حتى إن كان هذا الشيء الذي يحتاجه أخوه يحتاجه هو نفسه ويستخدمه في قلايته إلا أنه يفضل أن يعطيه أولاً لأخيه وبعد ذلك يُرسل فيشتري غيره لنفسه.

ويقول مار إسحاق عن المشاركة الوجدانية بين الرهبان (١)

(١) بستان الرهبان ص٣٥٣.

اسند الضعفاء وعز صغيري القلوب كي ما تسندك اليمين التي تحمل الكل.

شارك الحزانى بتوجع قلبك كي يُفتح لك باب الرحمة لصلاتك.

◆ قيل عن الأب يوحنا السرياني: أنه كان عديم الشر جملة، فقد حدث في بعض الأيام أن اقترض ديناراً من بعض الإخوة، وابتاع له كتاناً ليعمله، فأتاه أحد الإخوة، وطلب منه أن يعطيه بعضاً من الكتان، فأعطاه بفرح، وسأله آخر فأعطاه بانبساط. وأخيراً أتاه صاحب الدينار طالباً دينارَه، فقال له الشيخ: ها أنا مهتم برده إليك. وللوقت، قام منطلقاً إلى أنبا يعقوب – صاحب الدياكونية – ليأخذ منه ديناراً ليدفعه للأخ، وفي طريقه إليه، وقع بصره على دينار مطروح على الأرض فلم يأخذه، بل صلى صلاة وعاد إلى قلايته. فرجع إليه الأخ مطالباً إياه بالدينار، وألح عليه في الطلب، فقال له الشيخ: ها أنا ماض لأحضره لك. وقام ومضى، فوجد الدينار في نفس المكان مطروحاً، فصلى صلاة وأخذه، وجاء به إلى أنبا يعقوب، وقال له أنه في كل مرة أجيء فيها إليك، أجد هذا الدينار مطروحاً على الأرض، فاصنع محبة، وناد في

جميع الجبل لئلا يكون قد سقط من أحد الإخوة. فنادى في كل ذلك الجبل، فلم يوجد أحد ضاع منه دينار. فقال الشيخ لأنبا يعقوب: إني مديون لفلان الأخ بدينار، فادفعه له، لأني كنت آتياً إليك لأتصدق منك ديناراً لأرده له. فعجب أنبا يعقوب كيف كان مديناً، ولم يأخذ الدينار الذي وجده، ليوفي دَينه. وكان كل ما يأتيه طالباً شيئاً يعطيه، لكنه لم يكن يعطي بنفسه، بل كان يقول للسائل: ادخل أنت وخذ ما تريد وإذا رد له أحد شيئاً كان يقول له ضعه موضع ما أخذته. أما الذي لا يرد له، فما كان يطالبه قط.

❖ أخوان ذهبا إلى مدينة ليبيعا شغل أيديهما، فلما دخلا المدينة، افترقا بعضهما عن بعض بحيلة من إبليس، فوقع أحدهما في الخطية، ولما فرغا من شغلهما، التقيا فقال الذي لم يخطيء للآخر هيا بنا نمضي إلى الدير، فقال له ذاك لست أريد المضي الآن. فلما سمع أخوه ذلك انزعج وقال له لماذا لا تريد المضي الآن؟ فأجابه إني لما افترقت عنك وقعت في الخطية. فأراد أخوه أن يريح نفسه، فقال له أما أنت فلم تبق عليك خطية لأنك اعترفت بخطيتك، وأما أنا فإني وقعت في الخطية، ومن عظم الكبرياء امتنعت عن أن أقول لك، ولكن امض بنا إلى

الدير لنطلب التوبة. فأتيا إلى الدير ومضيا إلى الشيوخ، وأعلموهم بما أصابهما، وطلبا التوبة، فوضعوا عليهما قانوناً متعباً، وكان الأخ الذي لم يخطيء يصنع القانون ويقول هذا التعب ليس لي فيه شيء بل احسبه يارب بدلاً من خطية أخي. فلما نظر الله محبته لأخيه وما يقاسيه من التعب عنه كشف لبعض الشيوخ أمرهما وقيل له في الرؤيا من أجل محبة الأخ الذي لم يخطيء غفر الله للذي أخطأ.

❖ وجاء خبر عن أخوين قوتل أحدهما بالزنا .. فقال لأخيه يا أخي، إني منطلق إلى العالم. فبدأ أخوه يبكي ويقول: لا أتركك تذهب إلى العالم لئلا تتلف تعب رهبانيتك وبتوليتك. فأبى أن يقبل منه وقال له إما أن تتركني أمضي وحدي وإما أن تجيء معي. فذهب أخوه وحدث أحد الشيوخ بحاله فقال له الشيوخ اذهب معه فإن الله من أجل تعبك لا يتركه يقع في الزنا. فلما بلغوا القرية، رفع الله عنه قتال الزنا من أجل تعب أخيه وعنائه معه. وإذ به يخاطب أخاه قائلاً هب أني وقعت في دنس الخطية، فأي ربح لي من ذلك؟ ثم أنهما رجعا إلى قلايتهما وحمدا الله على خلاصه وحسن صنيعه معهما.

◆ [ذهب ثلاثة إخوة إلى الحصاد ليحصدوا مساحة ستمائة ذراع. فمرض أحدهم في اليوم الأول وبقى في قلايته. فقال أحد الاثنين للآخر: أنظر قد مرض أخونا فلنشدَّ عزمنا نحن الاثنين ولنا إيمان أننا بصلواته سنتمكن من حصاد هذه المساحة.

وبعد أن فرغا من الحصاد وذهبا ليأخذا أجرتهما، دعوا الأخ المريض لأخذ أجرته. فقال لهما: أي أجرة لمن لم يعمل؟ فأجاباه: إنما بصلواتك قد تم الحصاد، فتعال خذ أجرتك، أما هو فلم يرضَ.

وبعد أن دار بينهم جدال طويل ذهبوا إلى شيخ كبير للقضاء بينهم. فقال له الأخ المريض: أيها الأب ذهبنا نحن الثلاثة للحصاد، أما أنا فمرضت في ذات اليوم وعدت إلى قلايتي. وبعد أن انتهى الإخوة من الحصاد جاءا إليَّ يرغماني على أخذ الأجرة مجاناً. فاستوقفه الأخوان وقالا للشيخ: أيها الأب إننا نحن الثلاثة قد اتفقنا معاً على حصاد مسافة أرض ولو لم نكن ثلاثة لما استطعنا إتمامها. ونحن الاثنين إنما بصلواته قد أنهينا العمل بسرعة، ومع ذلك لا يرضى بأخذ الأجرة رغم إلحاحنا عليه.

فتعجب الشيخ لسماعه ذلك وقال لتلميذه الذي بجانبه اقرع الجرس كي يأتي جميع الإخوة، ولما اجتمعوا حوله قال لهم تعالوا اسمعوا اليوم ما يقضي بالعدل بينهم هؤلاء الإخوة. وبعد أن أطلعهم على القضية حكموا جميعاً أن يأخذ الأخ المريض أجرته ويتصرف كما يشاء. فذهب حزيناً باكياً.

قال الشيخ أنه ينبغي على كل أحد أن يتعهد ما للقريب ويشاركه الألم والفرح والبكاء في كل شيء ويتخذ موقف من يحمل جسد الآخر كما كُتب " نحن جسد واحد بالمسيح" (رو ١٢: ٥)، وأيضاً " وكان لجمهور المؤمنين قلب واحد ونفس واحدة " (أع ٤: ٣٢).] (١)

قال الأب أغاثون: لم أنم مرة وفي ضميري شيء على أحد، ولا تركت أحداً ينام وفي قلبه شيء عليَّ، وذلك قدر إستطاعتي.(٢)

قال الأب إسحاق: لم أدخل القلاية قط بفكر قد أحزنه أخ، كما أني جاهدت ألا أدع أخاً يترك قلايتي وفي قلبه فكر عليَّ.(٣)

---

(١) كيف نحيا مع الله جزء ٣ ص٣٥٠، ٣٥١.
(٢) كيف نحيا مع الله جزء ٣ ص٣٥٥.
(٣) كيف نحيا مع الله جزء ٣ ص٣٥٥.

[إن شيخاً من مصر نال، بسبب معرفته، كرامة كثير من الناس وكان يسكن في منطقة قبل أن ينزل إليها من الإسقيط الأب بيمن مع تلاميذه. ولما سكن بجواره الأب بيمن تركه الناس وشرعوا يأتون إلى الأنبا بيمن فحزن الأب بيمن على الشيخ.

وفي أحد الأيام سأل الإخوة: ماذا نفعل، فإن الناس قد سببوا لنا حزناً بتركهم هذا الشيخ الكبير ونحن لم ننتبه للأمر؟ فكيف نعالج هذه القضية وأضاف: أعدوا لي أغذية وجرة خمر وهلم نذهب للأكل معه.

فحملوا الأغذية وانطلقوا ولما قرعوا الباب سمع تلميذه وقال من أنتم؟ فقالوا له: قل للأب أن بيمن يريد أخذ البركة منك. فذهب التلميذ وأخبر الشيخ فقال له : قل له اذهب، ليس لديَّ وقت. فألحوا عليه متحملين حر الشمس قائلين: لن نذهب قبل أن نرى الشيخ.

وإذ رأى الشيخ تواضع بيمن وصبره تخشع وفتح الباب. فدخلوا وأكلوا معه. وفيما يأكلون قال الشيخ: إن ما أراه

فيكم الآن يفوق بمائة ضعف ما كنت أسمعه عنكم، وغدا صاحباً لهم منذ ذلك اليوم.] ([1]).

قال الأب بيمن: من يحب، يضحي بنفسه من أجل قريبه. فإن سمع كلاماً جارحاً وكان باستطاعته أن يبادل بالمثل و لم يفعل، أو أن ظُلم وتحمل و لم يبادل من ظلمه، فهو إنسان يضحي بنفسه من أجل قريبه. ([2])

عن القديس أفرام: إذا نشبت معركة بين أخوين، فإن من يتوب أولاً ويندم ينال إكليل النصر، أما الآخر فإذا لم يرفض التوبة (توبة الأول) واهتم من أجل استتباب السلام، فإنه يُكلَّل أيضاً. ([3])

عن القديس إشعياء: انتبه لنفسك. إذا وخزك فكرك بأن أخاك مستاء منك، لا تتغاض عنه، بل اصنع له ميطانية واعتذر له بكلام متواضع حتى تستعطفه. انتبه ألا تكون قاسي القلب على أخيك. فإننا نقاسي جميعنا من هوى العداوة. ([4])

([1]) كيف نحيا مع الله جزء ٣ ص٣٥٥، ٣٥٦.
([2]) كيف نحيا مع الله جزء ٣ ص٣٥٦
([3]) كيف نحيا مع الله جزء ٣ ص٣٦٠.
([4]) كيف نحيا مع الله جزء ٣ ص٣٦١.

(٢)
الفرح الروحاني في المجامع الرهبانية

(١) أنواع الفرح

(أ) الفرح النفساني.

(ب) الفرح الروحاني

(٢) سمات الفرح الروحاني

(أ) فرح في الرب

(ب) فرح مستمر ودائم (متأصل في القلب)

(جـ) فرح عميق

(د) لا يُنطق به ومجيد

(٣) أسباب الفرح الروحاني

(أ) الفرح بخلاص الرب

(ب) الفرح برؤية الرب

(جـ) الفرح بوصايا الرب

(د) الفرح برحمة الرب

(هـ) الفرح بالذهاب إلى بيت الرب

(و) الفرح بالضيقات من أجل اسم المسيح

(ز) الفرح بقوة الرب

(ح) الفرح بأعمال الرب

(ط) الفرح بالرجاء والحياة الأبدية

(٤) أسباب الفرح الروحاني في حياة الراهب

(أ) الفرح بالله ذاته

(ب) الوجود الدائم مع الله

(ج) الفرح بمحبة الله وعنايته

(د) الحياة بلا هم

(هـ) الفرح بالرجاء

(و) الفرح بحياة التوبة والنقاوة

(ز) الفرح بالجلوس على قمة العالم

(ح) الفرح بالدعوة الرهبانية

(٥) انتقال الراهب من الفرح النفساني إلى الفرح الروحاني.

(٦) الفرح الروحاني عربون لفرح الملكوت.

(١) أنواع الفرح

من الخطأ أن يحكم إنسان على شخص يبتسم أو يضحك أنه شخص يعيش في فرح وسعادة، فليس كل من يضحك يتمتع بفرح روحاني عميق، فقد تظهر صورته في الخارج، خلاف ما يُبطن من حزن وألم وبؤس وضيق. فالإنسان أحياناً يخفي الواقع الأليم الذي يعيشه بمظاهر الفرح الخارجية، ويلجأ إلى وسائل ومظاهر عالمية لتحقيق ذلك. كأن يلجأ إلى الملاهي أو إلى السكر أو إلى أصدقاء السوء ... أو إلى شهوات العالم ...

فإن استطاع الإنسان أن يخفي ما بداخله على الآخرين، فلن يستطيع أن يخفي عن ذاته الواقع الأليم الذي يعيشه، أو يخدع ذاته بغير الحقيقة، فهو يعلم جيداً أن الأشياء العالمية التي يلجأ إليها لن تُشبعه ولن تُعطيه الفرح الحقيقي، والدليل على ذلك هو ما يشعر به من حزن وضيق بعد أن ينتهي مباشرة من فعل هذه الأمور، أكثر مما كان قبل أن يلجأ لها ....

لذا ينبغي على الإنسان أن يعلم أنه لا يوجد فرح حقيقي دائم خارج الله، فالله هو مصدر الفرح والسعادة الدائمة في الحياة، أما مباهج العالم ولذاته وشهواته فهي مصدر كل ألم وشقاء ..

لذا فهناك نوعان من الفرح، الأول هو الفرح النفساني والثاني هو الفرح الروحاني أو فرح الروح، الذي قال عنه الكتاب " افرحوا في الرب كل حين وأقول أيضاً افرحوا " (في ٤: ٤)، (في ٣: ١).

(أ) الفرح النفساني

الفرح النفساني هو فرح بشهوات الجسد، كما فرح سليمان الحكيم بكل متعه وغناه، فقال في سفر الجامعة: بنيت لنفسي بيوتاً، غرست لنفسي كروماً، عملت لنفسي جنات وفراديس، وغرست فيها أشجاراً من كل نوع، عملت لنفسي برك مياه، قنيت عبيداً وجواري ... جمعت لنفسي فضة وذهباً، اتخذت لنفسي مغنيين ومغنيات، وتنعمات بني البشر سيدة وسيدات " (جا ٢: ٤ – ٨). ويجمل القول بقوله " لم أمنع قلبي من كل فرح، لأن قلبي فرح بكل تعبي، وهذا كان نصيبي من كل تعبي.." (جا ٢: ١٠).

كان فرح سليمان بكل غناه ومتعه الجسدية، كان فرحاً نفسانياً، وكان فرحاً بالجنات والفراديس، والشجر والبقر، والذهب، والفضة، والسيدات، والمغنيات ولم يكن فرحه بالرب ولذا أقر معترفاً أن كل هذا " باطل وقبض الريح ".

وفرح يونان النبي أيضاً فرحاً نفسانياً قال عن ذلك الكتاب: " ففرح يونان من أجل اليقطينة فرحاً عظيماً " (يون ٤). ولكن يونان لم يستمر في فرحه بعد أن ذبلت اليقطينة ويبست، فاغتم يونان من أجل اليقطينة غماً شديداً وطلب لنفسه الموت، وأعطاه الله درساً في الفرح الروحاني وهو الفرح بخلاص أهل نينوى ...

وقد وقع السبعون رسولاً في الفرح النفساني، ومع اختلافه عن فرح سليمان بملذات الأرض، إلا أن كلاهما مرفوض. فبعد رجوعهم فرحين من إرساليتهم التبشيرية التي أرسلهم فيها السيد المسيح، يقول الكتاب " فرجع السبعون إلى الرب فرحين قائلين، حتى الشياطين تخضع لنا باسمك " (لو ١٠: ١٧). فوبخهم الرب على هذا الفرح النفساني وقال لهم " لا تفرحوا بهذا، أن الأرواح تخضع لكم، بل افرحوا بالحري أن أسماءكم قد كُتبت في السموات " (لو ١٠: ٢٠)، ودعاهم إلى الفرح الروحاني وهو الفرح بالملكوت.

ويُضَم إلى من يفرحون فرحاً نفسانياً، أولئك الذين فرحوا بموهبة التكلم بألسنة والتنبؤ وعمل المعجزات .. لأن فرحهم نابع من تمجيد ذواتهم أمام الناس وليس تمجيد اسم الله، وكان ينبغي

بالأحرى أن يفرحوا بثمار الروح أكثر من فرحهم بالمواهب، لأن المواهب قد تكون السبب في عدم دخولهم الملكوت. فهم مثل أولئك الذين قالوا للسيد المسيح " يارب يارب أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين، وباسمك صنعنا قوات كثيرة. فحينئذ أُصرِّح لهم إني لم أعرفكم قط .. اذهبوا عني يا فاعلي الإثم " (مت ٧: ٢٢، ٢٣).

وطلبت أم يعقوب ويوحنا من السيد المسيح أن يجلس ابناها واحد عن يمينه والآخر عن يساره في ملكوته (مت ٢٠: ٢٠، ٢١) ولكن الرب لم يشأ أن يكون لها فرح بالعظمة، بل أن يكون لابنيها فرح بالألم، فقال لهما لستما تعلمان ما تطلبان، أتستطيعا أن تشربا الكأس التي أشربها، وأن تصطبغا بالصبغة التي أصطبغ بها (مت ٢٠: ٢٢). وأعطى الرب لأحد ابنيها وهو يعقوب الكبير أن يتذوق الفرح الروحاني باجتيازه آلام الاستشهاد (أع ١٢: ٢).

(ب) الفرح الروحاني:

الفرح الروحاني من ثمار الروح القدس التي ذكرها بولس الرسول: " أما ثمر الروح فهي محبة فرح سلام طول أناة لطف صلاح إيمان وداعة تعفف " (غل ٥: ٢٢، ٢٣).

ودعا إليه أيضاً القديس بولس قائلاً " افرحوا في الرب كل حين ... " (في ٣: ١)، (في ٤: ٤).

والإنسان الروحي، الذي يتمتع بعلاقة قوية مع الله، وتظهر عليه ثمار الروح القدس، يظهر الفرح الروحاني على ملامحه وتصرفاته وكلامه مع الآخرين، ودائماً ما يكون محبوباً من الجميع، والكل يسرع للوقوف وإطالة الحديث معه، لأنهم يدركون أن الفرح الذي فيه يفيض عليهم أيضاً عند رؤيته والحديث معه فيأخذون طمأنينة.

والإنسان الممتلئ بالفرح الروحاني، يتمتع أيضاً بفرح النفس والجسد، كما ذكرنا أن ملامح وجهه دائماً منبسطة فرحة، نظراته مريحة وممتلئة فرحاً، حتى لسانه يتهلل وقلبه يفرح مثل داود النبي الذي قال " فرح قلبي وتهلل لساني جسدي أيضاً يسكن على الرجاء " (مز ١٦: ٩).

كذلك تكون نفسية هذا الإنسان فرحة وبسيطة مع الكل، وقلبه نقي لا يحمل أي شر أو كراهية لأحد، بل بالعكس يحمل حباً وسلاماً مع الكل، قال المزمور عن هؤلاء " الصديقون يفرحون يبتهجون أمام الله ويطفرون فرحاً " (مز ٦٨: ٣).

(٢) سمات الفرح الروحاني

(أ) فرح في الرب:

أهم سمة تُميز الفرح الروحاني هي أنه فرح بالرب، وهذا يعني أن أي فرح خارج عن الرب لا يُعتبر فرحاً روحانياً. ويكون الفرح في الصلاة وترتيل المزامير أو قراءة الكتاب المقدس كما يقول داود النبي " فرحت بطريق شهاداتك " (مز ١١٩: ٤)، وقال إرميا عن كلام الله " كان كلامك لي للفرح " (إر ١٥: ١٦).

وقد يكون الفرح في الرب من خلال التسبيح والترتيل والوعظ وقال القديس بولس الرسول عن ذلك " لا تسكروا بالخمر الذي فيه الخلاعة، بل امتلئوا بالروح، مكلمين بعضكم بعضاً بمزامير وتسابيح وأغاني روحية مترنمين ومرتلين في قلوبكم للرب " (أف ٥: ١٨، ١٩). " فإن كان وعظ ما في المسيح إن كانت تسلية ما للمحبة، إن كانت شركة ما في الروح، إن كانت أحشاء ورأفة فتمموا فرحي .. " (في ٢: ٢١)، " مترنمين في قلوبكم " (كو ٣: ١٦)، وقال القديس يعقوب الرسول " أمسرور أحد فليرتل " (يع ٥: ١٣).

والفرح الروحاني يولد في الإنسان من الروح القدس الساكن فيه، والله روح (يو ٤: ٢٤)، (٢كو ٣: ١٧) أي من خلال

الله الروح. إذن لكي يحصل الإنسان على الفرح الروحاني، يجب أن يكون فرحاً في الرب (في ٣: ١)، (في ٤: ٤). كما أن الأمور الجسدية والعالمية لا تولد في النفس إلا الفرح النفساني.

(ب) فرح مستمر ودائم ومتأصل في القلب:

والفرح الروحاني فرح مستمر ودائم، متأصل في القلب غير متذبذب، فلا شيء يستطيع أن يزعزعه أو ينزعه من القلب قال عنه رب المجد " لا ينزع أحد فرحكم منكم " (يو ١٦: ٢٢). فالله هو الذي غرسه في القلب، فمن يستطيع أن ينزعه.

وقال عنه الرسول " افرحوا بالرب كل حين " (في ٤: ٤)، فكل حين تعني على الدوام والاستمرار، حتى في الضيقات والآلام والاضطهادات. فالتلاميذ فرحوا عندما سُجنوا " لأنهم حُسبوا مستأهلين أن يُهانوا من أجل اسمه " (أع ٥: ٤١).

والفرح الروحاني فرح دائم وغير متغير، لأنه مستمد من الله الذي ليس عنده تغيير ولا ظل دوران (يع ١: ١٧). وهو أيضاً فرح مستمر لأن مصدره الله الأزلي الذي لا بداية له ولا نهاية. وهو أيضاً فرح حقيقي لأن الله هو الحق المطلق.

ويقول مار إسحاق السرياني عن هذا الفرح: " هذه القوة الروحانية حينما تحل في النفس تعطيها لـذة وتملأهـا فرحـاً وسروراً، يوماً بعد يوم وتشعل فيها حرارة إلهية " (١).

(جـ) فرح عميق:

هو فرح عميق جداً، لا يظهر بوسائل تافهة ورخيصة، وهو لا يطفو على السطح (أي يظهر خارجاً) لأن النفايات هـي التي تطفو على السطح، والفرح الروحاني يُشبه جوهرة كـثيرة الثمن وجدها إنسان ومن فرحه باع كل ما يملك واشترى هذه الجوهرة وخبأها في قلبه (مت ١٢). والراهب هو ذاك الـذي باع كل أمجاد العالم وغناه وحسبه نفاية، واقتنى فـرح الـروح الذي هو الجوهرة الكثيرة الثمن، ومن خوفه عليـه، خبـأه في أعماق قلبه.

فإن امتلأت أعماق قلب الراهب من الفرح الروحاني فإنـه يكون أسعد إنسان وإن خلت أعماقه منه فإنه يكـون أتعـس إنسان. لأن الكتاب يقول: " ها ملكوت الله داخلكم " (لـو ١٧: ٢١)، وملكوت الله هو الفرح كما قال السيد المسيح في

(١) حياة الصلاة الأرثوذكسية طبعة دير السريان ص١٨٦.

مثل الوزنات " أدخل إلى فرح سـيدك " (مـت ٢٥: ٢١) وفرح سيدك يعني الملكوت.

(د) فرح لا يُنطق به ومجيد:

من سمات الفرح الروحاني أنه لا يُنطق به ومجيد، لا يستطيع الإنسان أن يُعبَّر عنه أو يصفه أو يصيغه في كلمات، وعنه قـال القديس بطرس بأنه " لا يُنطق به ومجيد " (١بـط ١: ٨). لا يُنطق به لأنه داخل في عمق نفس الإنـسان، فهـو (الفـرح الروحاني) مشاعر روحية أسمى من أن ينطق بها اللسان، بينمـا الفرح النفساني يُعبَّر عنه بالصخب والأصوات العاليـة، ولأنـه محدود فهو ينتهي بانتهاء هذه المظاهر.

[وعاش الآباء القديسون حياة الفرح الروحاني ولم تسعفهم قدراتهم اللفظية والبلاغية عن وصفها، فقـد حـاول الـشيخ الروحاني المعروف بالقديس يوحنا سابا أن يصف حالة فـرح ولذة وسعادة وبهجة القديسين التي انعكست علـيهم نتيجـة حياتهم مع المسيح، فلم يستطع وبان عجزه، وجاءت عباراتـه أقرب إلى التصور منها إلى القدرة على الإفصاح والبيان فقـال " كنت أود أن أكتب ولكني لم أقدر .. ولما تحكمـت بطـرق كثيرة، وحاولت أن أصورها على الورق لغذاء أبناء شعبي فلـم

أتمكن ... في العالم الخارجي لا يوجد لها شبيه، وفي العالم الداخلي من يعلم بها. أشباه عالمنا لا يوجد بها، ومن عالم الروحانيين من يقدر أن يأتي لها بمثال. لا أعرف كيف أهدِّئ حرقة قلبي الذي يحترق ويغلي، بالكلام لا ينطق بها، وبالإشارة لا تُرى، وبالصور لا تُصوَّر، وبحركات الضمير لا تُسمع ...

قُهرتُ منها قهراً عظيماً، غُلبت منها مثل من لا يعرفها. سكت عنها مثل من لم يحس بها. غفلت عنها مثل من لا توصف، سكت عنها مثل من ليس هو كفء لها. كم أنا حزين جداً، إذ لم أعرف كيف أصورها أو أشبهها، وإن كانت لا تُشبَه أطلبوها يا إخوتي أطلبوها. أطلبوها لتمتزج بكم، طوب (فرح) نعيمها أرفع من كل التطويبات (الأفراح)، ليس للذتها مثيل! هذا هو تفسيرها، ذلك الذي قيل أنت يا أبي فيَّ وأنا فيك، وأيضاً ليكونوا فينا واحداً (يو ١٧: ٢١). طوبى لمن ذاق هذه الطوبى. طوبى لمن صارت نفسه مع لحمه وعظامه في هذه اللذة التي ليس لها تفسير "] ([1]).

([1]) بستان الروح جزء ٣ ص١٦٩، ١٧٩ للمتنيح نيافة الأنبا يوأنس أسقف الغربية.

(٣) أسباب الفرح الروحاني من واقع الكتاب المقدس

أساس كل فرح روحاني هو روح الرب، وهو يدعو الإنسان أن يفرح بخلاصه وبوصاياه وبرؤيته وبأعماله وبرحمته، لذا دعا الكتاب إلى الفرح بالرب فقال " افرحوا أيها الصديقون بالرب واعترفوا لذكر قدسه " (مز ٩٧: ١٢)، " أفرح وابتهج بك، أرنم لاسمك أيها العالي " (مز ٩: ٢)، " لأنه به تفرح قلوبنا " (مز ٣٣: ٢١)، " ليبتهج ويفرح بك طالبوك " (مز ٤٠: ١٦)، " يفرح الصديق بالرب ويحتمي به، ويبتهج كل المستقيمي القلوب " (مز ٨٤: ١٠٠)، " فيلذ له نشيدي وأنا أفرح بالرب " (مز ١٠٤: ٣٤)، " لتفرح قلوب الذين يلتمسون الرب " (مز ١٠٥: ٣)، وتقول العروس في سفر النشيد " فليبتهج ويفرح بك " (نش ١: ٤).

ويتساءل قداسة البابا شنوده الثالث: ما أسباب فرح القديسين بالرب؟ فقال: [إنهم فرحون بصحبته لهم، وبعشرتهم له، فرحون بالتجديد الذي أخذوه في المسيحية، بهذه الحياة الجديدة الثابتة في الرب، إذ وجدوا " الأشياء العتيقة قد مضت، وهوذا الكل قد صار جديداً ". إنهم فرحون بالحب الإلهي الذي لمس قلوبهم، فطهرهم من كل شر ومن كل شبه شر، إنهم — في

تمتعهم بالوجود الإلهي – فرحون بعمل الروح القدس فيهم، فرحون بنعمة الله التي لا تفارقهم إنه كما يقول الرسول " فرح لا يُنطق به ومجيد " (١بط ١: ٨). إنه فرح النفس بالرب، فرح لما وجدوه، باعوا كل شيء واشتروه ... إنه فرح روحاني، يختلف عن كل أفراح العالم ... فرح بملكوت الله داخل النفس... قد يعجب العالم له: كيف تفرحون، وأنتم بعيدون عن كل شهوات العالم وملاذه وترفيهاته ومتعه، بعيداً عن مباهج المادة ولذة الحواس؟ **إن الفرح بالرب هو أعمق من أن يستطيع العالم أن يفرحه.**

أنه فرح من الداخل، لا يعتمد على أسباب خارجية .. أهل العالم يحصلون على أفراحهم من مصادر خارج نفوسهم ... أسباب تختص بالمادة، أو إكرام الناس، أو ما يجذب الحواس، أو بأسباب تتعلق بالأسرة أو بالمركز أو بالجاه والغنى ... أما أولاد الله، فيفرحون من الداخل، بسُكنى الله في قلوبهم، وإحساسهم بوجوده معهم، في داخلهم ... يشعرون بيده في حياتهم، فيفرحون باستلامه لهذه الحياة وتدبيره لها، يحسون بتعزيات الروح داخلهم فيفرحون، يشعرون بالله يعمل في قلوبهم، ويغرس فيها مشاعر مقدسة، ويغسلها فتبيض أكثر من الثلج، فيفرحون.

يحسون أنهم في حالة روحية، لا يستطيعون التعبير عنها، ويكفيهم أنهم يتمتعون بها] (١).

(أ) الفرح بخلاص الرب:

الخلاص الذي أتمه الرب على الصليب، يبعث الفرح في قلب كل إنسان، فليتصور كل إنسان إن حكم الموت كان يجب أن يقع عليه، وعُفيَ منه بموت المسيح عنه، فما هو إذن مقدار الفرح الذي يملأ قلبه؟ إنه حقاً فرح لا يُنطق به ولذا قال الكتاب عن هذا الفرح " هذا هو اليوم الذي صنعه الرب فلنفرح ونبتهج فيه " (مز ١١٨: ٢٤)، " عَظَّم الرب العمل معنا فصرنا فرحين " (مز ١٢٦: ٣)، " الرب قد ملك فلتبتهج الأرض ولتفرح الجزائر الكثيرة " (مز ٩٧: ١).

ورأى حبقوق هذا الخلاص قبل أن يتممه الرب فقال " أفرح بإله خلاصي " (حب ٣: ١٨). وفرحت السيدة العذراء أيضاً بهذا الخلاص وقالت " تعظم نفسي الرب وتبتهج روحي بالله مخلصي " (لو ١: ٤٦). وبشر الملاك أيضاً بهذا الخلاص للرعاة الذين كانوا يحرسون حراسات الليل فقال لهم

---

(١) سلسلة الله والإنسان (٢) الوجود مع الله ص٧٨، ٧٩. لقداسة البابا شنوده الثالث.

" ها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب، أنه ولد لكم اليوم مخلص هو المسيح الرب " (لو ٢: ١٠، ١١).

(ب) الفرح برؤية الرب:

رؤية الرب تُفرح القلب، فمن لا يفرح برؤية شخص عزيز عليه لم يره منذ زمن بعيد؟ ومن لا يفرح برؤية ملك الملوك ورب الأرباب؟ ومن لا يفرح برؤية من تشتهي الملائكة أن تَطّلع عليه؟ ومن لا يفرح برؤية ذاك الذي قيل عنه " أنت أبرع جمالاً من بني البشر " (مز ٤٥: ٢).

إن رؤية الرب أدخلت الفرح إلى قلب كل من رآه فقد قال يسوع لتلاميذه " أراكم أيضاً فتفرحون، ولا ينزع أحد فرحكم منكم " (يو ١٦: ٢٢). وهذا ما حدث بالفعل بعد قيامته المقدسة، إذ فرحوا برؤيته وانتزع الخوف من قلوبهم كما قال الكتاب " ففرح التلاميذ إذ رأوا الرب " (يو ٢٠: ٢٠)، " فسجدوا له ورجعوا إلى أورشليم بفرح عظيم " (لو ٢٤: ٥٢). وبعد قيامة السيد المسيح ظهر أيضاً للتلاميذ وأراهم يديه ورجليه وفرحوا برؤيته إذ " بينما هم غير مصدقين من الفرح ومتعجبون قال لهم أعندكم طعاماً. فناولوه جزءاً من سمك مشوي وشيئاً من شهد عسل. فأخذ وأكل قدامهم " (لو ٢٤:

٣٦ – ٤٢). حتى هيرودس الملك الذي وافق على صلب السيد المسيح، قال عنه الكتاب " وأما هيرودس فلما رأى يسوع فرح جداً، لأنه كان يريد من زمان طويل أن يراه لسماعه عنه أشياء كثيرة، وترجى أن يرى آية تُصنع منه " (لو ٢٣: ٨).

(ج) الفرح بوصايا الرب:

وصايا الرب مفرحة فهي ليست ثقيلة (١يو ٥: ٣) خصوصاً لمن يقرأها ويتخذها نبراساً لحياته، فبعدما تعرض إرميا النبي لآلام الاضطهاد والسجن قال " وُجدَ كلامك فأكلته، فكان كلامك لي للفرح ولبهجة قلبي، لأني دعيت باسمك يارب إله الجنود " (إر ١٥: ١٦)، وقال أيضاً داود النبي " وصايا الرب مستقيمة تُفرح القلب " (مز ١٩: ٨)، " فرحت بطريق شهاداتك كما بكل غنى " (مز ١١٩: ١٤). وقد سُئل **القديس الأنبا أنطونيوس** ذات مرة عن معنى قول الرسول " افرحوا بالرب " فقال القديس " **إذا فرحنا بإتمام الوصايا فهذا هو الفرح بالرب، فلنفرح بتكميل وصايا الرب وبنجاح إخوتنا، ولنحفظ أنفسنا من فرح العالم أو الضحك إن أردنا أن نكون من خواص ربنا** " (١).

---

(١) بستان الرهبان ص٤٢٠ طبعة بني سويف.

(د) الفرح برحمة الرب:

ما أبهج وما أعظم الفرح الذي يدخل إلى قلب الإنسان حينما يلمس رحمة الرب عليه خاصة في غفران الرب لخطاياه، ومساندته له طوال رحلة حياته، فيشعر بخجل أمام مراحم الرب الكثيرة عليه، ويشعر أيضاً " بفرح عظيم يملأ كل كيانه وحياته لا يستطيع أن يعبر عنه بكلمات إلا بخفقات داخل قلبه تشكر محبة الرب العظيمة ورحمته عليه، ويتغنى مع داود بغفران خطيته " أبتهج وأفرح برحمتك لأنك نظرت إلى مذلتي وعرفت في الشدائد نفسي " (مز ٣١: ٧)، " ارحمني لأنني إليك أصرخ اليوم كله، فرِّح نفس عبدك لأني إليك يارب أرفع نفسي " (مز ٨٦: ٣، ٤)، " أرجع يارب حتى متى وترآف على عبيدك، أشبعنا بالغداة من رحمتك فنبتهج ونفرح كل أيامنا، فرحنا كالأيام التي فيها أذللتنا كالسنين التي رأينا فيها شراً " (مز ٩٠: ١٣ – ١٥).

فكلما شعر الإنسان بثقل خطاياه وآثامه التي ارتكبها، وكم هي رحمة الله وغفرت له، كلما كان فرحه عظيماً بهذه المغفرة والرحمة.

(هـ) الفرح بالذهاب إلى بيت الرب:

في الذهاب إلى بيت الرب يفرح القلب، ويتهلل بالوجود مع الرب، إذ لم تكن هناك فرصة للاختلاء به خارج بيته، نظراً لأن الإنسان ينشغل في أعمال كثيرة وارتباطات ومسئوليات تعوقه عن الوجود مع الله، لذلك يحث المزمور كل إنسان قائلاً " اعبدوا الرب بالفرح أدخلوا دياره بالتهليل " (مز ١٠٠: ١). وهناك في بيت الرب تنسكب النفس في صلاة حارة مع الرب، تعرض أمامه مشاكلها وأحزانها، فتسمع منه حلولاً لمشاكلها وتعزيات لأحزانها فتفرح وتبتهج به، كما قال إشعياء النبي " وأفرحهم في بيت صلاتي " (إش ٥٦: ٧).

وتفرح النفس أيضاً بالقائلين لها هلم فنذهب إلى بيت الرب، لأن النفس تشعر بمحبة هؤلاء وسعيهم لراحتها وخلاصها، وفرح داود بذلك فقال في المزمور " فرحت بالقائلين لي إلى بيت الرب نذهب " (مز ١٢٢).

(و) الفرح بالضيقات من أجل المسيح:

ذاق التلاميذ هذا النوع من الفرح، فبعدما سُجنوا وجُلدوا "ذهبوا فرحين، لأنهم حُسبوا مستأهلين أن يُهانوا من أجل اسمه" (أع ٥: ٤١)، لذلك يقول القديس بولس " لذلك أُسر

بالضعفات والشتائم والضرورات والاضطهادات لأجل المسيح " (٢كو ١٢: ١٠). وهكذا لاقى الشهداء والمعترفون والقديسون العذابات والموت بفرح روحاني من أجل اسم المسيح.

وقد يتعرض المؤمن إلى ضيقات وآلام كثيرة، ومع ذلك تجده يتمتع بفرح روحاني عميق، لا تزعزعه التجارب والآلام، ولسان حاله يقول مع القديس بولس الرسول " كحزانى ونحن دائماً فرحون " (٢كو ٦: ١٠). فإن منظره من الخارج يبدو حزيناً، بينما قلبه من الداخل يتهلل فرحاً بالمسيح الساكن فيه.

(ز) الفرح بقوة الرب:

الإنسان الروحي الذي يتمتع بيد الرب القوية وعمله معه، دائماً يتمتع بالفرح الروحاني. وهو يقول مع بولس الرسول " أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني " (في ٤: ١٣) ولما لا يفرح وهو يستطيع كل شيء في المسيح، لذلك يقول داود في المزمور " يارب بقوتك يفرح الملك، وبخلاصك كيف لا يبتهج جداً " (مز ٢١: ١). فالمؤمن يفرح بقوة الرب التي يستطيع بها أن ينتصر على الأعداء الخفيين والظاهرين، والأعداء الروحيين والجسديين، وبقوة الرب يستطيع أن ينتصر على الذات والجسد والعالم والخطية ... وحياة الانتصار التي يحياها، تُسبب له فرحاً روحانياً.

(ح) الفرح بأعمال الرب:

الإنسان الروحي يفرح بكل ما صنع الرب، لأن كل شيء خلقه الله فيه بصمة يديه وهو يُذَكره بالله، الذي خلق كل شيء للإنسان قبل أن يوجده هو، لكي يتمتع بالخليقة كلها ويكون سيداً عليها، وحينما يدرك الإنسان ذلك يقدم الشكر لله قائلاً له " لأنك فرحتني يارب بصنائعك، بأعمال يديك أبتهج " (مز ٩: ٤).

(ط) الفرح بالرجاء والحياة الأبدية:

وعود الرب لأبنائه تبعث فيهم روح الفرح الروحاني، ولذلك قال الرسول " فرحين في الرجاء " (رو ١٣: ١٢). ويقول الرب لأولاده " لا تخف أيها القطيع الصغير، لأن أباكم قد سُر أن يعطيكم الملكوت " (لو ١٢: ٣٢). وقال الرب لتلاميذه " لا تفرحوا أن الشياطين تخضع لكم، بل افرحوا أن أسماءكم مكتوبة في السموات " (لو ١٠: ٢٠)، " تعالوا إليَّ يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعد لكم من قبل تأسيس العالم " (مت ٢٥: ٣٤). فالوعد بالملكوت يبعث الفرح الروحاني في قلب أولاد الله.

(٤) أسباب الفرح الروحاني في حياة الراهب

البعض من المؤمنين وخاصة من لهم علاقة قوية بالله، تذوقوا جزءاً من الفرح الروحاني، ولكن حقيقة، مهما وصلوا فلن يبلغوا إلى ما وصل إليه الرهبان من فرح روحاني وتهليل سماوي. فالفرح الذي يتمتع به الراهب هو ما قال عنه الكتاب " لا يُنطق به ومجيد " (١بط ١: ٨). هو أسمى من أن يُعبَّر عنه بكلمات أو أوصاف أو مشاعر، حتى وإن حاولت جاهداً أن أنقل لك جزءاً منه، فلن أستطع أن أعبر لك عنه بصدق، أو أنقل لك الحقيقة الصادقة الكاملة عنه.

لِمَ لا يفرح الراهب وهو المخلوق المذلل من الله؟ ولِمَ لا يفرح وهو الذي يتمتع بالوجود الدائم مع الله، في الصلاة والتسبيح؟ ولِمَ لا يفرح وهو الذي يتمتع بمحبة الله وعنايته الفائقة به؟ ولِمَ لا يفرح الراهب وهو الكائن الذي يعيش بلا هم في هذه الحياة مثل طيور السماء؟ ولِمَ لا يفرح وهو الذي أخذ وعداً من فم السيد المسيح، أن " من ترك أباً أو أماً أو ... إلا ويأخذ مئة ضعف في هذه الحياة والحياة الأبدية " (مر ١٠: ٢٩، ٣٠)؟ ولِمَ لا يفرح الراهب، وهو الذي يعيش حياة التوبة كل يوم، فيصير أبيض من الثلج، ويكون بلا قلق أو ضيق أو

اضطراب؟ ولِمَ لا يفرح الراهب بعد أن أصبح يجلس على ق
العالم، حيث لا يشتهي شيئاً ولا يريد شيئاً منه؟ ولِمَ لا يف
الراهب، وقد اُختير للدعوة الرهبانية، وأصبح مميزاً من
الشعوب، ليكون خادماً أميناً في بيت الرب، إذ سمع الص
الإلهي يقول " ميزتكم من الشعوب لتكونوا لي " (لا ٢٠:

وإلى جانب ما ذكرناه سابقاً عن أسباب الفرح الروح
نورد هنا أسباب أخرى تختص بالراهب الذي يعيش الح
الرهبانية داخل الدير.

(أ) الفرح بالله ذاته:

لقد ترك الراهب كل شيء وراءه، حاسباً إياه نفاية من
السيد المسيح، لذا يقتني فرحاً ليس له مثيل: إذ قد اقتنى الج
الكثيرة الثمن وخبأها في قلبه، فلا يستطيع العالم أو الشيط
أي أحد أن ينزعها منه، فيفرح لأن الله هو نصيبه الذي اخت
فلا يسكن قلبه سواه، فهو ميراثه على الأرض وفي الس
لذلك يتغنى الراهب مع إرميا النبي قائلاً: " نصيبي هو ال
قالت نفسي " (مراثي ٣: ٢٤). والراهب اختار النص
الصالح الذي لن يُنزع منه مثل مريم أخت لعازر (لو ١٠:
الله بالنسبة للراهب أصبح كل كيانه، ويشغل كل تفكيره

مشاعر قلبه، وحواسه، وكل تحركاته. أي أنه مركز حياته كلها، لذلك تُصبح حياته ممتلئة بالفرح الروحاني.

فيقول القديس مكاريوس الكبير " لأن الذين حُسبوا أهلاً لأن يُنير المسيح أذهانهم بالروح، يقودهم الروح بهدايات مختلفة، وتعمل النعمة في قلوبهم سراً، وتكون لهم راحة روحية، فتارة تعلو بهم وتفرح قلوبهم بفرح وسرور لا يوصف، وتارة تكون لهم كالعروس التي تتنعم بحب عريسها، وتارة تحلق بهم فيصيرون كالملائكة، تملين من فرط الإنذهال بالسرائر الإلهية ([1]).

(ب) الوجود الدائم مع الله:

إن كان أي شخص يمضي ساعات قليلة مع الله كل يوم، فالراهب يقضي عمره كله مع الله، يضع أمامه دائماً ما قاله القديس بولس في أثينا " به نحيا ونتحرك ونوجد " (أع ١٧: ٢٨). كل ما يعمله في الدير يعمله لله، حتى أمور الحياة العامة التي يعملها من أكل وشرب ونوم ... الخ فهو يعملها ليُمكّن الجسد من القيام للصلاة ويقدم العبادة المرضية لله، ويكون له المقدرة على السجود وعمل الميطانيات وغيره.

([1]) كتاب حياة الصلاة الأرثوذكسية طبعة دير السريان ص١٨٧.

هذا بخلاف الساعات التي يقضيها في إتمام صلواته في الأجبية، والتسبحة اليومية، وحضور القداسات، فالراهب بلا شك له فرصة أكبر للوجود مع الله، وتنمو هذه العلاقة حتى يصل إلى الوجود الدائم معه، فيصبح قلبه دائماً في حالة صلاة في أثناء سيره أو إتمام أي عمل أُسند إليه، يرفع قلبه إلى الله ويصلي صلاة يسوع. لا يترك أي وقت في يومه دون أن تكون له صلة بالله، حتى أثناء نومه تكون أحلامه مقدسة، في صلاة وتسبيح. أو في مواقف مقدسة حدثت أثناء النهار مع إخوته الرهبان. واقتراب الراهب إلى الله بهذا القدر ووجوده دائماً معه يؤسس في قلبه فرحاً وسعادة روحانية لا يعادلها في الكون أي شيء.

حتى وإن تعرض الراهب لضيقة ما، لا تفقده فرحه أبداً. لأنه يثق بوجود الله معه في الضيقة، مثل الثلاثة فتية في آتون النار (دا ٣)، ومثل شعب بني إسرائيل الذي كان الله يسير معهم في عمود النار ليلاً وعمود السحاب نهاراً. وكما قال أحد القديسين عندما سأله أولاده الرهبان: **أين وجد آباؤنا الله؟ فقال: وجدوه في الضيقة. فلا نعجب إن كان الراهب يفرح بالضيقات والآلام والأحزان، فهو يعلم أنه سيجد الله داخلها!** وفي نهايتها سيحصل على تعزيات إلهية وأفراح لا يعبر عنها. كما قال

القديس بولس في (عب ١٢: ١١) " ولكن كل تأديب في الحاضر لا يرى أنه للفرح بل للحزن، وأما أخيراً فيعطي الذين يتدربون به ثمر بر للسلام ".

(ج) الفرح بمحبة الله وعنايته:

حقاً إن محبة الله وعنايته تشمل الخليقة كلها، إنما يغدق على أولاده الرهبان بعناية خاصة وحنان دافق ومحبة شاملة، وحينما يشعر الراهب بهذه المحبة والعناية الفائقة من الله نحوه، كلما غرق في بحر من الغبطة والفرح الروحاني الذي لا يوصف.

وتتزايد غمرة الفرح في قلب الراهب، حينما يلمس محبة الله له واهتمامه بخلاص نفسه، حتى وإن انحرف عن الطريق السليم، أو ارتكب خطية ما، سرعان ما يجد رحمة الله ومحبته وعنايته، اقتربت منه وقوَّمته إلى الصواب.

وكأنه يقول له " أنا أكون له أباً وهو يكون لي ابناً. إن تعوج أؤدبه، بقضيب الناس، وبضربات بني آدم، ولكن رحمتي لن تُنزع منه " (٢صم ٧: ١٤، ١٥).

بل ما أعظم الفرح أن يشعر الراهب أنه في حضن الرب، كطفل يحمله أبوه على منكبيه، إنه أمام هذه المحبة والعناية الفائقة يتهلل قلبه فرحاً قائلاً " أعظمك يارب لأنك احتضنتني ولم

تشمت بي أعدائي " (مز ٣٠: ١).

وأمام محبة الله الغامرة للراهب وسعيه الدائب لخلاص نفسه وتقويمه في طريقه الرهباني، لا يستطيع إلا أن يقول لله في فرح وحب " لقد أخجلتني محبتك العظيمة لي يارب ".

بل أن محبة الله وعنايته بالراهب تمتد لتشمل الأمور الجسدية التي يحتاجها في معيشته اليومية. فلا يخطر على باله شيئاً معيناً من هذه الأمور، إلا ووصل إليه في الحال بطريقة عجيبة، يقف أمامها الراهب صامتاً متفكراً في هذه المحبة والعناية الإلهية. وقد امتلأ قلبه فرحاً روحانياً، ذاكراً وعود الله الصادقة والأمينة لمحبيه " أطلبوا أولاً ملكوت الله وبره، وهذه كلها تزداد لكم " (مت ٦: ٣٣).

فكلما كان الراهب صادقاً في طلب الملكوت، كلما كان الله صادقاً أيضاً في وعوده وأقواله.

(د) الحياة بلا هم:

الراهب الذي يسكن في البرية، غالباً ما يعيش بلا أي هم. وهذه الحياة تجلب له فرحاً روحانياً يفوق العقل، يفقده إن ترك البرية.

والراهب يعيش البتولية كركن أساسي من أركان الحياة الرهبانية، فيعيش بلا هم لأنه يهتم فقط فيما للرب، لا يشغل حياته غير إرضاء الرب، فلا زوجة ولا أولاد ولا مسئولية تجاه

رعايتهم والاهتمام بنواحي معيشتهم من أكل ومشرب وملبس... والتزامات الحياة العامة ...

وهو أيضاً يعيش بلا هم من جهة معيشته كراهب في الدير، فهو يعيش حياة التسليم الكامل لله، لا تربكه أو تشغله ضروريات الحياة من أكل أو شرب أو ملبس أو أموال أو ممتلكات أرضية. وتحرره من هذه القيود يجعله يعيش بلا هم، ويدخل الفرح الروحاني إلى حياته. فهو في ذلك يشبه طيور السماء التي " لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن وأبوكم السماوي يقوتها " (مت ٦: ٢٦). بل هو أكثر غبطة وفرحاً من قول السيد المسيح " ألستم أنتم بالحري أفضل منها " وأكثر ثقة وطمأنينة من قوله " فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس ... لأن أبوكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها " (مت ٦: ٣١، ٣٢) (١).

سوف نخصص باباً منفرداً لهذه النقطة في هذا الكتاب.

(١) يمكن الرجوع إلى سمو الرهبنة الأنبا متاؤس ص ٢٤٠، بستان الرهبان ص٩٣ الأنبا بيصاريون.

(هـ) الفرح بالرجاء:

إلى جانب كل ما ذكرنا من أسباب الفرح الروحاني في النقطة رقم (ط)، فإن الحياة الرهبانية لها وعود جميلة من قبل الله، يكفي قوله " ليس أحد ترك بيتاً أو والدين أو إخوة أو امرأة أو أولاد من أجل ملكوت الله إلا ويأخذ هنا في هذا الزمان أضعافاً كثيرة، وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية " (لو ١٨: ٢٩، ٣٠).

فالراهب يعيش في الدير على رجاء وعد السيد المسيح ويشعر باقترابه إلى الملكوت أكثر من أي وقت مضى قبل دخوله الدير، ودائماً يشعر بقرب انطلاقه لتحقيق ما يترجاه، وهذا الشعور يملأه بفرح لا ينطق به، إذ يحسب يوم انتقاله هو يوم عرسه الحقيقي.

(و) الفرح بحياة التوبة والنقاوة:

يُطلق البعض على الرهبنة،حياة التوبة، فهي دعوة للتوبة كل يوم، فالراهب يحاسب نفسه كل يوم على أخطائه، وبسرعة يقوم ويذهب إلى أب اعترافه، ويقر بما أخطأ فيه، ويجاهد ألا يعود إليه مرة أخرى.

وبذلك يعيش حياة النقاوة والطهارة وتصبح حياته نقية وطاهرة لا يشوبها أي خطية، بل هو يجاهد ضد أصغر خطية

يرتكبها، مما يؤهله للدخول إلى شركة الفرح الروحاني مع الرب. لأن الخطية هي أهم سبب يولد الخوف والقلق والكآبة والحزن للإنسان.

كما أن حياة النقاوة التي يحياها الراهب، تجعله يشعر بجرم أقل خطية، فحياته كمثل ثوب أبيض إن وقعت عليه أي بقعة صغيرة تظهر عليه بوضوح وحينما يراها يذهب بسرعة إلى أب اعترافه ليزيل آثار الخطية من حياته، وهكذا تتجدد نقاوته بالتوبة اليومية.

علاوة على ذلك، فهو في كل يوم، يُقدم توبة، يُلقي بثقل الخطية الذي يحمله على المسيح، مما يُشعره بأن حمله خفيف، وبالتالي لا يشعر بأي ثقل أو أي ضغوط في حياته، وهذا يجلب له فرحاً روحانياً لا يُعبَّر عنه.

(ز) الجلوس على قمة العالم:

يقول القديس أغسطينوس: " جلست على قمة العالم، حينما أحسست في نفس أنني لا أخاف شيئاً ولا أشتهي شيئاً ". فالراهب يرى هذا العالم وكل شهواته، وما فيه من مناصب ومال وجاه، قد تكوم على هيئة تل كبير تسلق على قمته وجلس عليها، واضعاً كل شيء تحت قدميه، فهو لا يريد منه

شيئاً، بل تحرر من قيوده كلها، حتى قيود الجسد والذات، وحتى الرغبة في الوصول إلى أي مركز، حتى لو كان دينياً، فشعر شعور المنتصر الجبار الذي لا يخاف !! فبلا شك كل هذا يُدخل إلى حياته فرحاً روحانياً، بعكس من يترقب باهتمام شيئاً ما أو مركزاً يشتهي الحصول عليه، فإن نال شهواته، وقع في براثن شهوة أخرى، ومن هذه إلى تلك، وكأن الشهوة هي التي تملكته وهو عبد لها، فكل ما أعطى العالم شيئاً له، يرغب المشتهي في المزيد، وهو غير شاعر بالرضا، لأنه في الحقيقة، لا يدرك هذا الإنسان، ماذا يريد؟! إلى أن ينتهي العمر وهو يعيش في خوف وقلق واضطراب وألم. بينما الراهب الذي تحرر من كل هذا يتمتع بالفرح الروحاني.

يقول القديس إبيفانيوس: " لا تحبوا متاع الدنيا فتستريحون وتفرحون في الآخرة، تحفظوا من لذات العالم فلا يقوى عليكم وجع الشيطان. (١).

وقال أنبا أوغريس: " الذي ليست له محبة للقنية، له حياة بلا اهتمام، أما المحب للقنية فله منغص في قلبه الذي هو الاهتمام.(١).

---

(١) بستان الرهبان ص١٧٨.

وقال القديس أنبا موسى الأسود: " محبة المقتنيات تزعج القلب، والزهد فيها يمنحه استنارة " ([2]).

وقال أنبا أغاثون: " إن محبة المقتنيات متعبة جداً تؤدي إلى نهاية مريرة، لأنها تسبب اضطراباً شديداً جداً للنفس، فينبغي أن نطردها من البدء، لأنها إن أزمنت فينا صار اقتلاعها صعباً "([3]).

(حـ) الفرح بالدعوة الرهبانية:

الرهبنة دعوة إلهية لأفراد معينين من البشر، تختارهم العناية الإلهية، ليكونوا مكرسين للعبادة والتسبيح، لا عمل لهم ولا اهتمام بأي شيء آخر غير الله، وكما اختار الله قديماً شعب بني إسرائيل ليكونوا له شعباً مختاراً دون الشعوب الأخرى، هكذا يختار الله الرهبان ليكونوا له عابدين ومسبحين قائلاً لهم " ميزتكم من الشعوب لتكونوا لي " (لا ٢٠: ٢٦)، ولأن هذه الدعوة مقصودة من الله لشخص معين، فأنها تُضفي عليه فرحاً خاصاً حينما يكتشفها !! فيتهلل مع داود النبي قائلاً " اختارنا ميراثاً له " (مز ٤٧: ٤).

([1]) بستان الرهبان ص١٧٨.

([2]) بستان الرهبان ص١٧١.

([3]) بستان الرهبان ص١٧١.

وطوَّب المزمور هؤلاء المدعوين إلى هذه الحياة فقال: " طوبى لكل السكان في بيتك يباركونك إلى الأبد " (مز ٨٤: ٤)، وفي موضع آخر يقول: " طوبى للذي تختاره وتقربه ليسكن في ديارك، لنشبعن من خير بيتك، قدس هيكلك " (مز ٦٥: ٤)، " طوبى للأمة التي الرب إلهها، الشعب الذي اختاره ميراثاً لنفسه " (مز ٣٣: ١٢)، " اعلموا أن الرب ميز تقيه " (مز ٤: ٣).

فالراهب المدعو لهذه الدعوة يفرح باختيار الله له، بأن يسكن في بيته (الدير) ويباركه إلى الأبد " لأن يوماً واحداً في ديارك خير من ألف " (مز ٨٤: ١٠).

أي مجد هذا وأي فرح وأي فخر للراهب الذي يُدعى من الله لهذه الدعوة المقدسة، لخدمة وتسبيح ملك الملوك ورب الأرباب، أولئك مثل اللاويين المفروزين من بين الشعوب لخدمة الرب إذ قال الرب لموسى " وتفرز اللاويين من بين بني إسرائيل، فيكون اللاويون لي، وبعد ذلك يأتي اللاويون ليخدموا خيمة الاجتماع فتطهرهم وترددهم ترديداً. لأنهم موهوبون لي هبة من بين بني إسرائيل، بدل كل فاتح رحم بكر كل من بني إسرائيل قد اتخذتهم لي " (عد ٨: ١٤ – ١٦).

وكأن الرهبان المختارون واقفون بين ست مليارات نسمة، وعين الله عليهم جميعاً وتختار من بينهم هذا الشخص وذاك ليكون راهباً. فيقول واحد من الواقفين، هل أنا الذي تشير إلىّ وتدعوني، فيقول له الله، لا. هذا هو الشخص. ويشير الله إلى شخص آخر ويدعوه، فيقول هل أنا يارب؟ فيجيبه الرب نعم أنت أنت .. فلنتساءل معاً كم يكون عدد الرهبان الموجودين في العالم؟ أنهم قليلون جداً بالنسبة لتعداد العالم، لذلك فهو فرح عظيم للراهب، حينما يتيقن أنه واحد ممن اختيروا في المليون لهذه الدعوة. ولهذا **قال القديس يوحنا القصير** " بالرغم أننا، (أي الرهبان) نفر قليل في نظر الناس، لكن دعونا نقدر الشرف الذي لنا أمام الله " ([1]).

ونختتم هذا الجزء بوصف **القديس يوحنا ذهبي الفم** لحياة الفرح والسلام التي يحياها الرهبان فيقول:

" أولئك الرهبان الذين يتأملون أمور الملكوت ويناجون الله نفسه، قلاليهم خالية من الإزعاج وأجسامهم خالية من الأسقام، بل هي أطهر من النور، عملهم هو عمل آدم الأول قبل سقوطه حينما كان يناجي الله بحرية، ويقيم في الفردوس المملوء بكل

([1]) بستان الرهبان مطرانية بني سويف ص١٢٥.

سعادة وبركة، هم ليسوا أقل منه بل يتفاضلون عليه بمقدار عظم النعمة التي انسكبت عليهم من الروح القدس وكمثل الملائكة، بقلب واحد مبتهج منير وصوت واحد للجميع كما لو كان خارجاً من فم واحد، يرتلون لإله الكل ويكرمونه ويشكرونه على خيراته، سواء الفردية أو الجماعية " ([1]).

([1]) سمو الرهبنة لنيافة الأنبا متاؤس ص٢٤٧.

(٥) الانتقال من الفرح النفساني إلى الفرح الروحاني

يسود على الراهب في بداية حياته الرهبانية، طابع الفرح النفساني، وقد يكون ذلك نتيجة لتأثره بالحياة في العالم لسنين طويلة قبل دخوله الدير، والتي ينتج عنها سيادة النفس وتحكمها على الروح كنتيجة لضعف العلاقة بينه وبين الله من جراء الحياة المادية في العالم، أن الروح لم تقو بعد، ولم تدخل مراحلها السيادية على تصرفاته وحياته كلها.

وينشأ الفرح النفساني في حياة الراهب الأولى لأسباب كثيرة، قد تكون بسبب العمل الذي يُسند إليه داخل الدير، فقد يشعر بتحقيق ذاته في العمل، بالإضافة إلى ما يسمعه من كلمات المديح والثناء من الآخرين، لكن بعد أن ينتهي من العمل ويرجع إلى قلايته، يشعر بفراغ كبير يملأ حياته كلها، وينطفيء الفرح الذي كان عنده.

وقد يكون الفرح النفساني بسبب أهمية العمل الذي أُسند إليه، كأن يُسند إليه مسئولية معينة في إدارة الدير، أو عمل متميز له أهميته، فيبتدئ يشعر بأهميته واحتياج الكثيرين إليه، فيفرح بذلك، لكن سرعان ما يزول منه الفرح بسبب زوال المسئولية أو العمل المكلف به.

وقد يكون السبب في الفرح النفساني في حياة الراهب الجديد، ارتباطه بصداقة مع مجموعة من الرهبان، أو راهب معين ارتاح للالتصاق به والحديث إليه، ولكن ما أن يحدث أي سبب وتتفرق المجموعة عن بعضها أو يبتعد الراهب الذي كان يرتبط معه بصداقة ويتحدث إليه لأي خلاف وقع بينهما، أو يُختار أحد منهم ويترل الخدمة أو يتغير العمل الذي كان يجمعهم، حينئذ يفقد الفرح، فيلجأ إلى الله في علاقة قوية داخل قلايته ويبتدأ يشعر بعدم قيمة هذا النوع من الفرح، مقارنة بالفرح الروحي العميق والمشبع الذي حصل عليه من الله في قلايته ولم يشعر به من قبل فيمتلئ قلبه من الفرح الروحاني.

وقد يتولد داخل قلب الراهب فرح نفساني بسبب مديح الناس له أو بسبب حصوله على قلاية جديدة أو سيامته راهباً أو قساً أو قمصاً أو من أجل مأكل أو مشرب أو ملبس .... أو بسبب حصوله من أحد الرهبان على مرقد يرقد عليه أو سجادة جديدة يفرشها في قلايته أو ... أو قد يكون بسبب مقابلته للعلمانيين أو نزوله إلى العالم، أو مقابلة أسرته ... إنها أمور كثيرة مشابهة لما ذكرنا تولد فرحاً نفسانياً للراهب، وهي كلها أمور خارجة عن الله ومع زوالها يزول الفرح بها.

ولذا فالراهب الذي يقع تحت تأثير الفرح النفساني، غالباً ما يكون مزاجه متأرجحاً، تجده تارة فرحاً مسروراً وتارة أخرى تجده حزيناً مغموماً ذلك لأن المؤثر النفسي هو الذي يتحكم في سلوكه ومزاجه.

وأحياناً كثيرة ينخدع الراهب في بداية حياته الرهبانية بالفرح النفساني، الناتج عن الجهادات والممارسات الروحية، كالصلاة والصوم والميطانيات، والخدمة لإخوته الرهبان، والمواظبة على حضور التسبحة والقداسات .. وينشأ هذا الفرح داخله بسبب إتمامها على أكمل وجه، إذ يشعر بأنه قد أكمل المطلوب منه كراهب؟! وقد ينشأ من كونه ملتزماً في قوانينه وحياته الرهبانية، فيسمع مديحاً عن سلوكه هذا ..!!

وقد ينشأ الفرح النفساني في داخله نتيجة لتدرجه في ممارسات وجهادات عالية تفوق إخوته الرهبان في المجمع، أو أنه أتم قانون أو ميعاد الصوم الذي حدده لنفسه ... فمهما تعددت أسباب هذا الفرح فلن تُعطي الراهب الشبع أو الفرح الحقيقي لأنها بعيدة عن الله مصدر الفرح الروحاني، حتى لو بدا في مظاهرها الأعمال الروحانية ...

ويرفع الله – الرحوم المحب للبشر (وخاصة لأبنائه الرهبان)– الراهب الجديد من الفرح النفساني إلى تذوق الفرح الروحاني، وذلك في تدرج عجيب وتدبير إلهي ليس له مثيل عبر حياته الرهبانية الطويلة، حتى يصبح الله هو الهدف الرئيسي من هذه الممارسات والجهادات، حينئذ يدخله الفرح الروحاني، وهذا الفرح نراه كل يوم على وجوه الآباء الرهبان الذين تمرسوا وتدربوا على الجلوس في القلاية لأوقات طويلة، وأصبح لهم علاقة قوية بالله.

إن السعادة والفرح بالنسبة للراهب، لهما مقياس يختلف عن مقياس أهل العالم، فقد ترى الراهب معبس الوجه من شدة النسك الذي يمارسه، ومع ذلك حينما تقترب إليه وتتعامل معه، تجد قلبه ممتلئاً بالفرح والسعادة، وقد يعيش في قلايته أياماً بل وأسابيع في حبس، ومع هذا تجده يعيش داخلها في فرح روحاني لا يُعبَّر عنه، وقد يقضي أوقاتاً كثيرة في صلوات حارة تصحبها دموع غزيرة، ومع هذا قلبه من الداخل يتهلل فرحاً، وقد يعيش حياة الفقر الاختياري في ملبسه ومأكله ونومه ومعيشته داخل قلايته، ولكنه يعيش في فرح وسعادة، أكثر ممن في حوزتهم ممتلكات كثيرة، وقد لا يمتلك أي شيء من أموال وغنى هذا

العالم، لكنه أسعد بكثير ممن يمتلكون الملايين، لأنه يمتلك الجوهرة الكثيرة الثمن التي هي ربنا يسوع المسيح كما قال بولس الرسول " كفقراء ونحن نغني كثيرين، كأن لا شيء لنا ونحن نملك كل شيء " (٢كو ٦: ١٠).

إن الفرح الروحاني الذي يتمتع به الراهب هو فرح عميق في أعماقه الداخلية، لا تزعزعه أي ضيقات أو آلامات يتعرض لها من عدو الخير، ولا حتى آلام حمل الصليب التي يعيشها كل يوم أي الجهاد في الصلاة والصوم والميطانيات ... فكل هذه تحدث خارج نفسه، ولا تتسرب أبداً إلى داخله. ولذا فقد يظهر على وجهه الحزن، لكنه في الداخل قلعة حصينة لا تتزعزع وينطبق على حالته هذه قول الرسول " كحزانى ونحن دائماً فرحون " (٢كو ٦: ١٠). بل هو يثق أن " كل تأديب في الحاضر لا يُرَى أنه للفرح بل للحزن، وأما أخيراً فيعطي الذين يتدربون به، ثمر بر للسلام " (عب ١٢: ١١).

إن الراهب في هذه الحالة، يُشبه العليقة الخضراء المشتعلة بالنار ولم تحترق أغصانها، فالنار كانت ممسكة بأغصانها وأوراقها ولكنها لم تحرقها أو تلاشي خضرتها، فالضيقات التي تُشبه النار

تحيط بالراهب من الخارج، لكنها لا تقدر ولا تقوى على أن تفقده سلامه وفرحه الداخلي.

قد أكون مبالغاً إن قلت أن حياة الراهب في البرية، غير مليئة بالأحزان والضيقات والأوجاع، فينبغي أن نعي أنه إنسان يعيش في الجسد، فقد يشن عليه إبليس حروباً كثيرة وعنيفة يبتغي منها أن يفقده فرحه، فيحاربه بالحزن أو بصغر النفس أو بالضجر .. ولكنه في حكمة، يلجأ بسرعة إلى الله في صلوات وتضرعات، حتى تُرفع عنه حرب إبليس، فسرعان ما يستجيب الله للصلاة وتأتيه المعونة الإلهية وتملأ قلبه بالفرح الروحاني الذي لا يُنطق به.

بالحقيقة، إن الراهب الذي ترك أمجاد العالم وشهواته، منحلاً من جميعها وارتبط بالله الواحد الذي هو مصدر الفرح الحقيقي الدائم، هو بلا شك أسعد إنسان على وجه الأرض، بل أكثر ممن ذاقوا الفرح الروحاني وهم في العالم. فحياة الفرح الروحاني الذي يعيشه الراهب في البرية لها مذاقة أسمى بكثير من حياة الفرح الروحاني التي يعيشها أخوه الراهب الذي نزل ليخدم في العالم. فحياة الفرح في البرية لها مذاقة أسمى من حياة الفرح في العالم.

(٦) الفرح الروحاني عربون لفرح الملكوت

إن كان مثل الوزنات (مت ٢٥: ١٤ – ٣٠)، يعطي صورة عما سيحدث في نهاية العالم عند مجيء السيد المسيح للدينونة، ومكافأته لصاحب الخمس وزنات وصاحب الوزنتين ومعاقبته لمن أخفى فضته ولم يربح بها. فمن جهة أخرى يُشير إلى حياة الراهب المجاهد الذي يتاجر ويربح بما أعطاه الله من وزنات منذ دخوله الحياة الرهبانية، فبعد جهاده جهاداً روحياً شاقاً لسنين طويلة، يكافئه الله بالفرح الروحاني قبل نهاية حياته الرهبانية كعربون للفرح الأبدي في السماوات.

طوبى لذلك الراهب الذي سمع صوت السيد المسيح قائلاً له " نعماً أيها العبد الصالح والأمين، كنت أميناً في القليل فسأقيمك على الكثير، أدخل إلى فرح سيدك " (مت ٢٥: ٢١، ٢٣)، " لأن كل من له يعطى فيزاد، ومن ليس له فالذي عنده يؤخذ منه " (مت ٢٥: ٢٩).

وحينما يستحق الراهب أن يسمع صوت السيد المسيح قائلاً له أدخل إلى فرح سيدك، حينئذ يتذوق أفراح الملكوت الأبدي وهو ما زال يعيش في الجسد " لأن ملكوت السموات ليس أكل وشرب بل هو بر وسلام وفرح في الروح القدس " (رو ١٤: ١٧).

وقد ينطبق مثل الوزنات على الشخص المجاهد الأمين، الذي يعيش في العالم، فحينما يرى الله جهاده وتعبه وربحه، يُسمعه الصوت الممتلئ فرحاً " أدخل إلى فرح سيدك " (مت ٢٥: ٢١، ٢٣). وحينما يسمع الدعوة الرهبانية من الفم الإلهي، يستسلم لها منقاداً نحو الدير، حينئذ يدخل ويصير راهباً مع إخوته الرهبان، فيبدأ معهم رحلة الفرح الروحاني بالرب يسوع داخل أسوار الدير، كعربون للفرح الأبدي بالرب يسوع في السماء.

ويقول القديس أغسطينوس: " ومفديو الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون بترنم وفرح أبدي على رؤوسهم. ابتهاج وفرح يدركانهم ويهرب الحزن والتنهد " (إش ٣٥: ١٠). النفس بالتأمل تصل حتماً إلى جزائها السري العالي، الذي على رجائه تعبت وجاهدت كثيراً فتنعم بفرحة الخير الحقيقي، وتتنسم رائحة صفاء وهدوء الأبدية، وأفراح أخرى غير موصوفة: سرور خفي في الداخل، فرح وطرب في القلب، اشتياق ملتهب نحو الله، تهليل داخل النفس لا ينقطع (١).

---

(١) حياة الصلاة الأرثوذكسية طبعة دير السريان العامر ص ١٨٧.

(٣)

السلام الروحاني في المجامع الرهبانية

أولاً : ما بين سلام الله الروحاني وسلام العالم

ثانياً : السلام الروحاني

ثالثاً : سمات السلام الروحاني

رابعاً : أهم الأسباب التي تؤدي بالراهب إلى فقدان السلام

خامساً : ما يجعل راهب البرية أكثر سلاماً

سادساً : الحث على السعي نحو السلام الروحاني

سابعاً : السلام الروحاني عربون لحياة الملكوت

أولاً : ما بين سلام الله الروحاني وسلام العالم

السلام الذي يعطيه الله، يختلف تماماً عن السلام الذي يعطيه العالم. ويتضح هذا من قول السيد المسيح لتلاميذه: " **سلاماً أترك لكم سلامي أعطيكم، ليس كما يعطي العالم أعطيكم** " (يو ١٤: ٢٧). نعم سلام الرب يسوع يختلف عما يعطي العالم، فالسلام الذي يعطيه الله نابع من ذاته، وهو سلام حقيقي غير مزيف لأنه نابع من ملك السلام، وقد تنبأ إشعياء عن ملك السلام فقال: " لأنه يولد لنا ولد، ونعطى ابناً وتكون الرئاسة على كتفه، ويدعى اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً أباً أبدياً **رئيس السلام**، لنمو رئاسته **وللسلام لا نهاية** ... " (إش ٩: ٦، ٧).

والكنيسة تطلب دائماً في صلواتها قائلة: " **يا ملك السلام**، أعطنا سلامك، قرر لنا سلامك، وأغفر لنا خطايانا " وسلام الله معطى من **صانع السلام** " أنا الرب ... مصور النور وخالق الظلمة صانع السلام ... أنا الرب صانع كل هذه " (إش ٤٥: ٥ – ٧) ودعاه بولس " **إله السلام** " (عب ١٣: ٢٠).

ولذا أي سلام يحصل عليه الإنسان بعيداً عن السيد المسيح ملك السلام فهو غير حقيقي ومزيف، وهو الذي يعطيه العالم لأولاده الذين استسلموا له في ذل وهوان، فهو بأشياء كثيرة

ووسائل متعددة يحاول أن ينسيهم ويبعد عن ذهنهم الله والدينونة الرهيبة والموت ... ليحصلوا على سلام وهمي من نسيان الواقع. وهم في هذه الحالة يشبهون من يأخذ حقنة أو دواءً مخدراً يُنسيه ما يمر به من ألم المرض، لكن سرعان ما يظهر الألم من جديد، فما أن يفيقوا إلى واقعهم ويفقدوا السلام الوهمي يرجعون إلى الكآبة الأولى والحزن والاضطراب الذي يهربون منه بل وأكثر ألماً مما قبل، فكلام الرب واضح لكل إنسان .. " لا سلام قال إلهي للأشرار " (إش ٥٧: ٢١، ٤٨: ٢٢).

قصد أحد الممثلين المشهورين طبيباً وشكا إليه الهموم التي أضنته وكادت تُذهب به فأجابه إني أدلك على دواء ليس عندي غيره فإذا لم يفلح فما أنا بطبيب. فقال الممثل ما هو؟ أجاب أن تداوم حضور روايات الممثل المضحك الشهير كارليني فإنه يلاشي كل حبة من الكآبة في قلب كل مهموم متوجع، فأجاب المريض وأسفاه! إني أنا كارليني يا سيدي الطبيب، أنا الذي أُضحك الألوف أشكو الكآبة القاتلة و لم أجد من يُضحكني ويُعطي قلبي سلاماً.

هذا هو حال الكثيرين الذين يفتشون عن سلام القلب بعيداً عن واهب السلام ومصدره رئيس السلام الرب يسوع المسيح ([1]).

ثانياً: السلام الروحاني

السلام الروحاني سيمفونية رائعة، يتلذذ بها أولاد الله، الذين أصبح لهم علاقة قوية مع الله، ووجود دائم معه، أنه ينبع من داخل قلوبهم التي أصبح بداخلها ملكوت الله، أنهم يتمتعون بأنغامه العذبة في سكونهم وهدوئهم في البرية وشتان بين أنغام السلام الروحاني وبين سلام العالم، بل وبين السلام الروحاني الموجود في العالم. فسلام الله الروحاني لا يُوصف، إذ أن الرسول بولس الذي صعد إلى السماء الثالثة، ورأى أموراً لا يُنطق بها. لم يستطع أن يصف هذا السلام بكلمات عاجزة عن أن تعبر عنه، فقال أنه يفوق كل عقل (في ٤: ٧). وإذا كان يفوق كل عقل فكيف نستطيع أن نتحدث عنه، إنه شيء يفوق إدراكنا؟!

ولكن كل ما نستطيع أن نقوله، أن السلام الروحاني هو حالة تُصاحب حلول الله في القلب " ها ملكوت الله داخلكم " (لو ١٧: ٢١)، وكما يقول القديس بولس الرسول " ملكوت

([1]) عن كتاب التعزيات الإلهية ص٦٣ تأليف سعد ميخائيل.

الله ليس أكل وشرب، بل هو بر وسلام وفرح في الروح القدس" (رو ١٤: ١٧)، وسبحت به ملائكة السماء يوم ميلاد السيد المسيح قائلة " المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة " (لو ٢: ١٤)، ومتى كان على الأرض (الجسد) سلام إلا حينما ولد الرب يسوع ابن الإنسان فأتى بالمسرة إلى البشر.

إذن فالسلام الروحاني هو الراحة القلبية والهدوء الداخلي، نتيجة لسُكنى الله وحلوله في الإنسان، **ويقول الشيخ الروحاني** ([1]) التحرر من الأوجاع بسلام يجعل الملك (المسيح) يجلس في خدره (القلب)، ومتى يسكن المسيح ملكاً في القلب واتخذه مقراً ملكياً له، فاض القلب بالسلام الروحي الذي يفوق كل عقل.

ثالثاً: سمات السلام الروحاني

ينبع السلام الروحاني من داخل الإنسان، حيث يسكن الله في داخله، ويفيض به بعد ذلك من الخارج، مع ذاته أولاً (ملامحه، كلامه، تحركاته ...) ثم مع الآخرين.

([1]) عن كتاب سمو الرهبنة لنيافة الأنبا متاؤس أسقف ورئيس دير السريان ص٢٤٥.

ولذا فليس كل من يظهر على ملامحه أو كلامه سلام شكلي من الخارج، يعبر بصدق عما في داخله، فقد يكون له مظهر السلام بينما في داخله بركان مكتوم، واضطراب ما بعده اضطراب.

من هنا كان للسلام الروحاني سمات، تجعله يختلف عن السلام العالمي وهي:

(١) السلام الروحاني سلام عميق:

من سمات السلام الروحاني أنه عميق جداً ودفين داخل الإنسان، لا تستطيع كل ضيقات العالم أن تنزعه أو تزعزعه، لأن أولاد الله يملكون سلام الله في قلوبهم حسب قول لسان العطر إلى أهل كولوسي: " وليملك في قلوبكم سلام الله " (كو ٣: ١٥).

والإنسان في هذه الحالة يُشبه السفينة الكبيرة التي تمخر عباب المحيط، تضطرب الأمواج حولها، وهي سائرة في رصانة نحو هدفها، هكذا تحيط المتاعب من خارج، بالإنسان الروحي الذي يعيش في سلام روحاني، ولكنها لا تستطيع أن تتسرب داخل نفسه أو تفقده سلامه، فليس من الصالح أن يجعل الإنسان سلامه يتوقف على المؤثرات الخارجية، إن اضطربت الأحوال

من حوله، يضطرب معها وإن هدأت يهدأ أيضاً، إنما ينبغي أن يكون أكبر من الظروف وأقوى من الأحداث التي يتعرض لها حتى لا يفقد سلامه الروحاني.

وقد تعرض داود النبي لضيقات وحروب كثيرة من شاول الملك ومن أعدائه، إلا أنه لم يفقد سلامه فقال " إن قام عليَّ جيش فلن يخاف قلبي، إن قام عليَّ قتال ففي هذا أنا أطمئن " (مز ٢٧: ١ – ٣). وفي مزمور آخر يقول " إلهنا ملجأنا وقوتنا ومعيننا في شدائدنا التي أصابتنا جداً، لذلك لا نخشى إذا تزعزعت الأرض وانقلبت الجبال إلى قلب البحار، تعج المياه وتجيش، وتزعزع الجبال بعزته، مجاري الأنهار تفرح مدينة الله لقد قدس العلي مسكنه والله في وسطها فلن تتزعزع " (مز ٤٦). إن أنت سألت داود لماذا لا يخشى إذا تزعزعت الأرض، وانقلبت الجبال إلى قلب البحار، وحينما تعج المياه وتجيش وتتزعزع الجبال، يجيبك بقوله: " لأن مجاري الأنهار تُفرح مدينة الله، ولأن العلي قد قدس مسكنه، وهو في وسطها فلن تتزعزع.

إن مدينة الله ليست سوى قلب الإنسان المؤمن الذي يسكنه العلي، ومجاري الأنهار ليست سوى رمز للروح القدس وعمله في الإنسان، ألم يقل السيد المسيح " إن عطش أحد فليقبل إليَّ

ويشرب، من آمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حي. قال هذا عن الروح القدس الذي كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه " (يو ٧: ٣٧ – ٣٩).

إن سلام المسيح الروحاني كالنهر ذي المياه الصافية، يظل يتدفق ويعمق مجراه في هدوء وسكون، ممتداً إلى الأمام حتى يصب في البحر اللانهائي ... " ليتك أصغيت لوصاياي، فكان كنهر سلامك، وكلجج البحر برك " (إش٤٨: ١٨). وعلى نحو ما يعمق النهر مجراه بعامل الزمن، هكذا سلام الله يزداد عمقاً وتدفقاً على مر الأيام " وأجعل كل بنيك تلاميذ الرب، وسلام بيتك كثيراً " (إش ٥٤: ١٣) .. وقد تزول الجبال وتتزعزع الآكام، أما سلام الرب فيظل ثابتاً.

إن سلام المسيح الروحاني أعلى من هياج العاصفة، فطالما هو موجود في سفينة حياتنا، يستطيع أن يُسكت أشد العواصف عنفاً، وأكثر الرياح هياجاً، ليعطي من فيضه سلاماً لخاصته ومحبيه وهذا ما حدث مع السيد المسيح. إذ قام وانتهر الريح وقال للبحر: " أسكت أبكم فسكنت الريح وصار هدوءاً عظيماً

" سلام جزيل للذين يحبون اسمك، وليس لهم شك " (مز ١١٩: ١٦٥) ([1]).

(٢) السلام الروحاني بركة من الله

السلام الروحاني هو بركة من الله لأولاده وشعبه، كما قال داود النبي " الرب يعطي شعبه قوة، الرب يبارك شعبه بالسلام " (مز ٢٩: ١١)، " إني أسمع ما يتكلم به الرب الإله، إنه يتكلم بالسلام لشعبه وقديسيه وللذين رجعوا إليه بكل قلوبهم " (مز ٨٥: ٨، ٩)، ويقول معلمنا بولس الرسول " فكل الذين يسلكون بحسب هذا القانون عليهم سلام ورحمة " (غل ٦: ١٦).

وهكذا بارك السيد المسيح تلاميذه الأطهار بعد قيامته المقدسة قائلاً لهم " سلام لكم " فامتلأت قلوبهم سلاماً وفرحاً وطمأنينة. وبارك أيضاً المرأة الخاطئة قائلاً لها: " إيمانك قد خلصك اذهبي بسلام " (لو ٧: ٥٠)، وقال أيضاً لنازفة الدم " إيمانك قد شفاك اذهبي بسلام " (لو ٨: ٤٨).

([1]) بستان الروح لنيافة المتنيح الأنبا يوأنس أسقف الغربية جزء ٣ ص١٦٧، ١٦٨

(٣) السلام الروحاني عطية من الله

السلام الروحاني يُعتبر من أعظم العطايا الإلهية للإنسان، فالسيد المسيح أعطاه لتلاميذه قائلاً لهم " سلاماً أترك لكم، سلامي أنا أعطيكم، ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا " (يو ١٤: ٢٧). فالسلام الروحاني هو عطية روحية وليس مجرد كلمات، وكما كان سلام المسيح لتلاميذه بعد قيامته بركة لهم، كان أيضاً عطية فائقة لهم، لذلك نصلي في ختام الثيئوطوكيات الآدام قائلين: " يا ملك السلام أعطنا سلامك ... " ونصلي أيضاً في ختام الثيئوطوكيات الواطس قائلين " أيها المسيح كلمة الآب الإله الوحيد أعطنا سلامك المملوء فرحاً، كما أعطيته لرسلك القديسين، قل لنا مثلهم، سلامي أنا الذي أخذته من أبي أنا أتركه معكم من الآن وإلى الأبد " وأعطى السيد المسيح هذا السلام لرسله الأطهار ليعطوه هم أيضاً للناس قائلاً لهم: " أي بيت دخلتموه، فقولوا أولاً السلام لهذا البيت، فإن كان هناك ابن السلام يحل سلامكم عليه، وإن لم يكن فيرجع إليكم " (لو ١٠: ٥). وأعطت السيدة العذراء هذا السلام الروحاني والمملوء فرحاً لأليصابات، إذ لما سمعت سلام مريم ارتكض الجنين بابتهاج في بطنها، وامتلأت أليصابات من الروح القدس

(لو ١: ٤٠، ٤١) ثم صرخت أليصابات قائلة " ... فهوذا حين صار صوت سلامك في أذني ارتكض الجنين بابتهاج في بطني " (لو ١: ٤٤). وهكذا أعطاه الرسل للمؤمنين وهذا واضح في رسائل بولس الرسول والكاثوليكون.

(٤) السلام الروحاني من ثمار الروح القدس

السلام الروحاني هو أحد ثمار الروح القدس التي ذكرها القديس بولس الرسول في رسالته إلى أهل غلاطية: " أما ثمر الروح فهو محبة فرح سلام ... " (غل ٥: ٢٢)، وقال أيضاً عنه في الرسالة إلى رومية " ملكوت السموات ليس أكل وشرب، بل هو بر وسلام وفرح في الروح القدس " (رو ١٤: ١٧). إذن في الروح القدس بر وسلام، أي أن السلام هو في الروح القدس، والإنسان الذي يسكن في داخله الروح القدس، يثمر سلاماً روحانياً يفوق العقل، فهو ثمر طبيعي لكل من يعيش مع الله ويمتلأ من روحه القدوس.

(٥) سلام يفوق كل عقل

من سمات السلام الروحاني إنه سلام يملأ كل الكيان والعقل والقلب والفكر " وسلام الله الذي يفوق كل عقل يحفظ قلوبكم وأفكاركم في المسيح يسوع " (في ٤: ٧) في هذا السلام

(الغير العادي) يشعر الإنسان بطمأنينة وفرح وهدوء داخلي وراحة نفسية، فإن سُئل عن وصف مشاعر السلام الذي يعيشه، لا يجد ما يستطيع أن يعبر عنه إلا أنه مطمئن جداً ومرتاح البال، بل ويفيض من هذا الإنسان سلام على كل من يتكلم معه أو ينظر ملامح وجهه، بل أن تأثير هذا السلام المنبعث من هذا الإنسان يمتد إلى ما حوله من طبيعة وجمادات، وقوة تأثيره بالسلام تتوقف على قوة علاقته بالله، فكلما كان وجود الله داخل الإنسان قوياً، كلما كان له تأثير قوي على الآخرين والعكس صحيح.

والسلام الروحاني هو سلام إلهي يفوق كل عقل، لأن الله يفوق كل تصور أو تفكير إنساني، لذلك عجز القديسون عن التعبير عنه بكلمات أو أوصاف. ويمكن الرجوع إلى ما كتبه القديس يوحنا سابا المعروف بالشيخ الروحاني، كمحاولة لوصف حالة الفرح والسلام التي يعيشها القديسون رغم مقدرته على البيان وظهور عجزه.

(٦) سلام شامل

والسلام الروحاني يتسم بالشمولية، أي يشمل **سلام مع الله، وسلام مع الآخرين، وسلام أيضاً مع الذات.** والإخلال

بأحد هذه البنود الثلاثة يفقد الإنسان السلام الكامل، فكيف يعيش الإنسان في سلام إن لم يكن بينه وبين الله سلام (أي البعد عن كل ما يغضب الله) حتى وإن ظن أن له سلاماً مع الآخرين، فلن يكون له سلام مع ذاته بسبب الخطية وعدم الصلح مع الله.

وأيضاً إن فقد الإنسان سلامه مع الآخرين بسبب شجار أو حسد سيؤدي إلى فقد سلامه مع الله والذات بسبب الخطية. وهكذا أيضاً إن لم يكن للإنسان سلام مع ذاته وكان هناك صراع داخلي وانقسام بين الروح والجسد فسيؤثر ذلك على سلامه مع الله، لأنه لم يحسم داخله الصراع بين الجسد والروح وهو يعرج بين الفرقتين، وأيضاً يؤثر على سلامه مع الآخرين لأن اضطرابه الداخلي سيظهر في معاملاته الخارجية مع الآخرين، فتارة يعاملهم باللين والحب طالما يسلك حسب الروح، وبالشدة والقسوة وهو يسلك حسب الجسد، وبالتالي يفقد سلامه معهم.

والشمولية أيضاً في السلام الروحاني لا يشوبها أي نقص ولو في جزء بسيط من أحد البنود الثلاثة، أي أن فقدان السلام مع الله، بسبب خطية ما في حياة الإنسان، سيؤثر بلا شك على

سلامه مع الله وبالتالي على سلامه مع الآخرين ومع ذاته مما يؤدي إلى فقدان السلام الروحاني.

وينطبق هذا على فقدان السلام مع الآخرين، حتى ولو بسبب خلاف مع فرد واحد. وأيضاً على فقدان السلام مع الذات بسبب شيء بسيط كالصراع الداخلي من أجل اختيار شيء ما أو اتخاذ قرار في موضوع ما.

رابعاً: أهم الأسباب التي تؤدي بالراهب إلى فقدان السلام الروحاني

هناك أسباب عديدة تؤدي بالراهب إلى فقدان السلام ولكن أهم هذه الأسباب:

(١) **الخطية:** فالخطية هي انفصال عن الله، وعندما ينفصل الراهب عن الله ينفصل عن مصدر السلام فيفقد وجود الله معه، إذ لا شركة لله مع الخطية، ولذا يفقد سلامه الروحاني، إذ قال " لا سلام قال الرب للأشرار " (إش ٤٨: ٢٢). وقال أيضاً " أما الأشرار فكالبحر المضطرب لأنه لا يستطيع أن يهدأ، وتقذف مياهه حمأة وطيناً، ليس سلام قال إلهي للأشرار " (إش ٥٧: ٢١).

من أجل ذلك **قال القديس أغسطينوس** في مناجاته للرب " ستظل قلوبنا قلقة إلى أن تجد راحتها فيك ". ولا يخفي عنا جميعاً ما تسببه الخطية من اضطراب وقلق وحزن وخوف وأمور كثيرة تفقد الراهب اتزانه وبالتالي سلامه الروحاني.

فحينما انفصل الابن الضال عن أبيه وأخذ ماله وأضاعه في عيش مسرف، ظن أنه سيستمتع بالحرية والسلام، ولكن ما حدث عكس ما توقع، إذ بدأ يحتاج ويجوع ويشعر بالمذلة والمهانة " كم من أجير عند أبي يفضل عنه الخبز وأنا هنا أهلك جوعاً " بل اشتهى أن يأكل من الخرنوب الذي كانت الخنازير تأكله ولم يجد، وأخيراً وصل إلى حافة الموت إذ قال عنه أبوه " ابني هذا كان ميتاً فعاش وكان ضالاً فوجد " (لو ١٥).

وقبل سقوط داود النبي كان يعيش في سلام نتيجة علاقته القوية مع الله، لذلك كان يغنى بالمزمار والقيثارة في فرح وتهليل ويدعو كل الخليقة أن تفرح معه قائلاً " هللوا للرب يا كل الأرض اعبدوا الرب بالفرح، ادخلوا دياره بالتهليل " (مز ١٠٠: ١، ٢). ولكن بعد

ما أخطأ مع امرأة أوريا الحثي، لم يعد يشعر بالسلام بسبب انفصاله عن الله بالخطية التي ارتكبها، فقال في حزن وألم " اشفني يارب فإن عظامي قد اضطربت، ونفسي قد انزعجت جداً " (مز ٦).

فأقل خطية يقترفها الراهب تُسبب له انزعاجاً وقلقاً وخوف، لأنه يشعر بثقل الخطية وظلمتها في داخله، ولكن ما أن يقدم عنها توبة ويعترف بها أمام الكاهن، يحملها السيد المسيح عنه فيشعر بالفرح والراحة، ويرجع إليه السلام الروحاني مرة أخرى.

(٢) **والراهب المتسخ بالخطية تجده دائماً في حالة تشاؤم،** ينظر إلى كل شيء نظرة سوداء ويتوقع الشر في كل لحظة، ويشك في نيات كل من حوله، كما يشك في سلوكهم وكل هذا يترع منه أي سلام روحاني.

(٣) وإن كانت الخطية أصلها الشهوة، فالخاطيء لا يتوقف عندما ينال شهوته، بل تظهر **شهوات أخرى بديلة** تتحكم في قلبه بلا نهاية، فهو يفكر كيف يحقق ما يشتهيه قلبه؟ وكيف يصل إليه؟ وما هي الصعاب التي تعترضه؟ ومن هم منافسوه؟ وكيف ينتصر عليهم؟ أو

ربما كيف يحتال لكي يصل؟ وهكذا يرتبك كل كيانه ويصاب بالتوتر وينتج عن هذا ضياع وفقدان السلام الروحاني من حياته.

(٤) يفقد الراهب السلام بسبب **مشاعره الحساسة نحو كرامته أو نحو حقوقه،** فأقل كلمة يستشعر منها خدشاً لحقوقه أو كرامته تراه يضطرب من الداخل، وتتأثر أعصابه وقد يحتد أو يغضب أو يتصرف بطريقة عنيفة تدل على عدم تمتعه بالسلام الداخلي.

(٥) ويفقد الراهب سلامه الروحي بسبب **سوء الظن،** وما ينتج عنه من اضطراب الفكر بسبب الشكوك، أو بسبب استنتاجاته التي تتعبه، وينتج عن ذلك تضخم المشاكل أو العقد النفسية، وتصبح حياته في رعب مما يفقده سلامه.

(٦) يفقد الراهب سلامه الروحي بسبب **إرهاق الأعصاب الناتج عن الإرهاق الجسدي أو النفسي،** ويؤدي هذا الإرهاق بصاحبه إلى الغضب والنرفزة وبالتالي إلى فقدان السلام والاطمئنان الذي كان يملأ حياته.

(٧) **أخطاء بعض الرهبان المتهاونين** وتصرفاتهم المؤذية أو المقلقة أو المثيرة تسبب للراهب الملتزم القلق وفقدان السلام الروحاني.

(٨) **مصادقة الرهبان القلقين والمضطربين** أو الخائفين والمتسجسين تساعد على انتقال العدوى إلى الراهب الذي يعيش في سلام دون أن يدري.

(٩) **الأخبار ووسائل الإعلام** بأخبارها المثيرة التي تصل إلى الدير عن طريق الزوار، تؤثر على الراهب وعلى تفكيره وأعصابه، حتى يظن هذا المسكين وكأن العالم قارب على الانتهاء، أو أن كوارث توشك أن تحدث، وقد تتلاحق إلى مسامع الراهب هذه الأخبار بسرعة، وهكذا يعيش في توتر مستمر. بل أحياناً يروي زوار الدير أخباراً مقلقة سواء عامة أو خاصة تدخل في صميم الأسرة مما ينقل القلق ويهدم السلام الروحاني الذي كان يتمتع به الراهب.

(١٠) **محبة المقتنيات** تفقد الراهب سلامه فهي غالباً ما تسبب له قلقاً على ضياعها أو سرقتها أو تجعله شغوفاً على زيادتها، لذلك **قال أنبا أوغريس:** " الذي ليست له محبة

للقنية له حياة بلا هم (أو اهتمام)، أما المحب للقنية، فله منغص في قلبه، الذي هو الاهتمام ([1]).

خامساً: ما يجعل راهب البرية أكثر سلاماً

هناك أسباب متعددة تضفي على الراهب الذي يعيش في البرية سلاماً روحانياً يفوق بكثير عمن يعيشون في العالم. وقد تكون أحياناً بعض الأسباب واحدة، ولكنها تكون أعمق بكثير في حياة الراهب، فالإيمان أقوى والحواس أهدأ والسكون أعمق والنقاء أكثر ... فهيا ندخل معاً لنتعرف على أسرار هذه الحياة الجميلة التي تضفي على الراهب سلاماً روحانياً تجعله يتميز عن غيره بهذا السلام:

(١) قوة الإيمان

من المهم أن ندرك أن السلام الروحاني هو الثمرة الأولى للإيمان، كما يقول القديس بولس الرسول " فإذ قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح " (رو ٥: ١). وهو الثمرة الأولى لأن أساسه دم الفادي والمخلص الذي قال عنه الكتاب " صانعاً سلاماً بدم صليبه " (كو ١: ٢٠).

([1]) بستان الرهبان طبعة بني سويف ص١٧٨.

ويُعتبر السلام من أعظم عطايا الله لبني البشر في شخص السيد المسيح ... فالسلام الذي فقده الإنسان بمعصية أبينا آدم، نستعيده بالإيمان من قبل تجسد الابن الكلمة.

ويحصل الإنسان على السلام الروحاني، طالما كان له إيمان بالله وثقة قوية في عمله معه، وبقوته الإلهية التي تحيط به، وعنايته إذ يرسل ملائكته لتحفظه وتنجيه من كل شر ومن كل ضربة ومن كل تجربة العدو. وحينما يكون للإنسان إيمان أنه في حمى الله، ووجوده معه بصفة دائمة، يشمله سلام روحاني يفوق كل عقل. حتى وإن تعرض لمشكلة كبيرة في حياته، فإن إيمانه بوجود الله في كل مشكلة، يجعله دائماً يعيش في سلام روحاني، لأنه يثق أن " كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الله " (رو ٨: ٢٨). فحينما يضع الإنسان الله بينه وبين الضيقة، تختفي الضيقة، ويرى الله وحده في محبته ورعايته وحنانه.

والراهب الذي ترك العالم تائهاً في الجبال والبراري والمغائر وشقوق الأرض، يسكن في قلبه إيمان قوي بالله يفوق بكثير عن الإيمان الذي في قلوب من يعيش في العالم، إذ أنه بالإيمان خرج للدعوة الموجهة إليه من قبل الله ولم يعلم إلى أين يذهب؟ متمثلاً بأبينا إبراهيم الذي قال عنه الكتاب بالإيمان خرج وهو لا يعلم

إلى أين يذهب (عب ١١). خرج الراهب من العالم وله إيمان قوي بالله الذي يدبر كل أمور حياته، يدبر له المكان الذي يسكن فيه، والطعام والشراب والملبس ... له إيمان بالله الذي ينجيه من أي حيوان مفترس ومن الدبيب الذي يملأ البرية. ويحوي بستان الرهبان كثيراً من قصص السواح والنساك الذين عاشوا في الجبال والبراري ولهم إيمان قوي بعناية الله لهم. وأحد هؤلاء النساك **الأنبا بولا أول السواح** الذي سكن مغارة في الجبل دون أن يكون لها باب وكان في قلبه سلام روحاني لم يهزه الخوف من الحيوانات المفترسة والدبيب الذي يملأ البرية. ولم يفقد سلامه يوماً أو قلق لتفكيره في ما سيتناوله من طعام أو شراب. ولهذا دبر له الله غراباً يأتيه كل يوم بنصف رغيف وأنبع له عين ماء ليشرب منها، كما حثه على عمل ثوب من ليف النخيل لستر عريه .... وهناك كثير من القديسين كان لهم نفس قوة الإيمان التي عاش بها الأنبا بولا السائح مثل **الأنبا بيصاريون والأنبا سيرابيون والقديسة آناسيمون السائحة** وغيرهم. فكانت قوة إيمانهم سبباً لتمتعهم بالسلام الروحاني.

ولم يفقد راهب البرية سلامه الروحاني بسبب قلقه إن مرض يوماً ما. لأن داخله إيماناً قوياً بالله الذي يحفظه من أي مرض أياً

كان، حتى وإن أصيب بمرض فلن يهمه هذا ولا يفقده سلامه لأنه يؤمن أن الجسد للرب (١كو ٦: ١٣). بل وإن تعرض الجسد للموت فلا يتأثر من ذلك لأنه يقول " إن عشنا فللرب نعيش وإن متنا فللرب نموت إن عشنا وإن متنا فللرب نحن " (رو ١٤: ٨). إيمانه القوي داخل قلبه يقول، ما هو أقصى شيء قد يحدث لي! المرض سيقتلني أم الحيوانات المفترسة ستفترسني أم الجوع والعطش سيقضي عليَّ، لا يهمني أي شيء من هذا لأني سوف أرتاح وأتحرر من قيود الجسد منطلقاً إلى الله. فمن سيفصلني عن محبة المسيح أشدة أم ضيق أم اضطهاد أم جوع أم عري أم خطر أم سيف .... (رو ٨: ٣٥ – ٣٩).

والإيمان القوي الذي يعيشه الراهب والناتج عن حبه لله، يحثه أن يسلم حياته كلها لله، فيعيش حياته مثل طفل يحمله أبوه أو يمسك يد أبيه، لذا فهو لا يخاف من أي شر أو أذى يقترب إليه، لأن الله سيبعده عنه، حتى وإن اقترب نحوه فسوف يحوله الله لخيره. والكنيسة تصلي من أجل الأديرة ورهبانها قائلة " أذكر يارب هذا الموضع المقدس الذي لك وكل أديرة آبائنا الأرثوذكسيين والساكنين فيها بإيمان الله "(أوشية الموضع).

ولأنه يعيش في حضن أبيه، لا يضطرب لأي شيء، ولا يشغل فكرة أو يقلقه أي أمر من أمور الحياة لأن أباه يقول له دائماً لا تهتموا بما تأكلون أو بما تشربون أو بما تلبسون .... لا تهتموا بالغد ... أطلبوا أولاً ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لكم (مت ٦). فلذلك هو لا يهتم ولا يهمه ماذا يعمل؟ أو ماذا يأكل؟ أو ماذا ستتدبر حياته فيما بعد؟ وماذا سيكون ... أنه لا يعلم سوى شيء واحد فقط هو أن كل الأمور تعمل معاً للخير للذين يحبون الرب " (رو ٨: ٢٨) وأننا " به نحيا ونتحرك ونوجد " (أع ١٧: ٢٨). كل هذا الإيمان والتسليم الكامل لله يضفي على حياته سلاماً روحانياً. يتعجب منه كل من يراه، بل ويتأثر به كل من نظر إلى وجهه وتكلم معه.

وعلى النقيض من هذا نجد الإنسان الذي يعيش في العالم، يفكر، ويخطط، ويرتب، ويلتجئ إلى مساعدات الآخرين، وإلى استشارتهم في مشاكل وأمور حياته، وهذا السلوك جعله يترك يد الله ويمسك بيد البشر، وهنا يتركه الرب، لأنه ترك الرب ولهذا يقع في الارتباك والشك والخوف والقلق .... وكل هذا يفقده سلامه.

والسلام الروحاني الذي يتمتع به الراهب في حياته، ينبع من– إيمان داخلي عميق داخل قلبه بوجود الله معه وبعمله لأجله – الله ضابط الكل، الصانع الخيرات، الحافظ والمعين والمنقذ ... ولذلك إن تعرض الراهب لضيقة ما، لا يفكر فيها بل في الله الذي يحلها، لذلك لا يفقد سلامه أبداً.

ونضع هنا مثالاً لتوضيح المعنى .. فإن بات راهبان في مغارة في الجبل، أحدهما أخذ يفكر في الذئاب والثعابين والحيات والعقارب ودبيب الأرض، فيخاف ويضطرب ولا يقدر أن ينام أبداً من شدة الخوف، ويفقد بسبب ذلك سلامه الداخلي، لأنه في كل لحظة ينتظر شراً وخطراً سيحدث له، أما الآخر فلأنه يؤمن بوجود الله معه وحفظه له، يبيت مطمئناً في سلام، على الرغم من أن الظروف الخارجية واحدة. لكن لأن مشاعر القلوب اختلفت بينهما، لذا فقد أحدهما سلامه لأنه فقد شعوره بوجود الله معه، بينما الآخر كان في سلام لشعوره بوجود الله دائماً معه.

ويقول قداسة البابا شنوده الثالث في ذلك (١):

[إن المؤمنين بعمل الله وحفظه لا يضطربون أبداً، واعتمادهم على الله يمنحهم سلاماً داخلياً عميقاً، بل أن إيمانهم يجعلهم يرون الخير في كل شيء .. حتى ما يبدو أنه ضيق وتعب، لابد أن الله سيحوله إلى خير، وفي الثقة بالله، يحيون حياة التسليم الكامل والسلام العميق.

وليس معنى الإيمان أن الإنسان يقف موقفاً سلبياً، بل على العكس أنه يعمل كل ما يستطيعه، دون انزعاج واضعاً الأمر من أوله في يد الله. وواضعاً أمامه أيضاً قول الكتاب " غير المستطاع عند الناس، مستطاع عند الله " (لو ١٨: ٢٧) ... ومادام الله يرى كل شيء، ويريد الخير للكل، ويستطيع ذلك، فلماذا فقدان السلام؟!

فإن فقد أحد سلامه القلبي أمام المشاكل، فلابد أن هناك خللاً داخل القلب يحتاج إلى علاج، فقد يكون هذا الخلل قلة إيمان، أنتجت شكاً فخوفاً فاضطراباً.]

وإيمان الراهب بسلامة الطريق الرهباني الذي يسلكه، وإيمانه أيضاً بمواعيد الله لمن ساروا في هذا الطريق أي الوعد لهم

---

(١) كتاب الهدوء لقداسة البابا شنوده الثالث ص١١٣.

بالملكوت كقوله " من ترك أباً أو أماً أو ... يأخذ مائة ضعف والحياة الأبدية " (مت ١٩: ٢٩) يعطيه سلاماً روحانياً يفوق كل عقل.

(٢) التجرد والفقر الاختياري

التجرد والفقر الاختياري أحد النذور الرهبانية، والتي ينبغي أن يُمارسها كل راهب اختار هذا الطريق، بل عليه أيضاً أن يسعى ويجاهد حتى يتجرد من ذاته، فكلما تجرد من أمور هذا العالم وعاش الفقر والعوز، غمره سلام روحاني يفوق كل عقل.

ويقول مار إسحاق: النفس لا تقدر أن تتحرر من تخبط الأفكار بدون التجرد (عدم القنية). ولا تشعر بسلام الفكر بغير هدوء الحواس (١). فالذي له حاجات كثيرة ومقتنيات وفيرة، له بالطبع أسباب كثيرة للحزن والقلق، يقلق، من ناحية للحفاظ عليها وزيادتها، ومن ناحية أخرى، يخاف لئلا يفقد شيئاً منها. وهذا ما تفرضه الحياة على الإنسان الذي يعيش في العالم، أما الراهب الذي يعيش في البرية، فليس له ما يفقده ويتأسف على ضياعه، وليس من أهدافه جمع المقتنيات والاهتمام

(١) ميامر مار إسحاق جزء ٣ ص٣١. إصدار أبناء البابا كيرلس السادس.

بالماديات، وما يصاحب ذلك من قلق وهم واضطراب، إنما اهتمام الراهب يَنصَبّ على شيء واحد، هو ملكوت الله (لو ١٢: ٢٠).

ويحكي لنا بستان الرهبان قصصاً كثيرة من حياة القديسين الذين تجردوا من قشاش هذا العالم واستبدلوا الغنى العالمي بالغنى في الفضيلة، واستبدلوا كنوز العالم بكنوز معرفة الله ومحبته حسب الوعد الإلهي: " وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابيء لكي تعرف أني أنا الرب الذي يدعوك باسمك " (إش ٤٥: ٣) والظلمة والمخابيء هي الرهبنة في البراري.

عاش الرهبان في البراري كما وصفهم الكتاب " طافوا في جلود غنم وجلود معزى معتازين مكروبين مذلين. وهم لم يكن العالم مستحقاً لهم. تائهين في براري وجبال ومغاير وشقوق الأرض " (عب ١١: ٣٧، ٣٨) عاشوا هكذا ولكنهم كانوا في ملء السلام الروحاني الذي لم يستطع أهل العالم أن ينالوه بغناهم وممتلكاتهم، ويختلف السلام الروحاني بين الرهبان. إذ يتوقف عمق السلام الروحاني على درجة التجرد والفقر الاختياري الذي يعيشه الراهب. فكلما زاد تجرده وفقره كلما زاد السلام الروحاني الذي يتمتع به في حياته والعكس صحيح.

لذلك **قال الأنبا موسى الأسود:** " محبة المقتنيات تزعج العقل، والزهد فيها يمنحه استنارة " (١).

وقال الأنبا أغاثون " أن محبة المقتنيات متعبة جداً تؤدي إلى نهاية مريرة لأنها تسبب اضطراباً شديداً جداً للنفس، فسبيلنا أن نطردها منذ البدء، لأنها إن أزمنت فينا صار اقتلاعها صعباً(٢).

(٣) هدوء وسكون البرية:

إن طبيعة الهدوء والسكون التي تتميز بها البرية، تساعد الراهب الذي يعيش فيها على اقتناء السلام الروحاني. فالهدوء الخارجي الناتج من سكون الطبيعة، يعطي الراهب هدوءاً في داخله، أي داخل القلب والفكر والحواس. وكل هذا يمنحه سلاماً روحانياً يفوق كل عقل.

(٤) معاشرة الرهبان:

الراهب الذي يعيش في الدير مع إخوته الرهبان، غالباً ما يتعامل معهم كثيراً ودائماً ما تكون كلماتهم هادئة وتحركاتهم متزنة ووجوههم مملوءة بشاشة وسلاماً. كل هذا السلام الذي يتمتعون به، ينتقل إلى من يتعامل معهم دون أي افتعال. ولذا

(١) بستان الرهبان ص١٧١.
(٢) بستان الرهبان ص١٧١.

يظهر السلام في حياة الراهب الذي يعيش في البرية عن من يعيشون في العالم المضطرب ويسكنه المضطربون.

سادساً: الحث على السعي نحو السلام الروحاني

ليس أعظم من أن يعيش الراهب في سلام روحاني يفوق كل عقل، فكثير ممن يعيشون في العالم يطلبونه وقليلون هم الذين يحصلون عليه، بل هناك من يملكون كنوز العالم ومجدها، يبحثون عنه نظير أي ثمن، لكن حينما يسمعون قول السيد المسيح " بع كل مالك وتعال اتبعني " يمضون في حزن مفضلين أن يتركوا السلام عن أن يتركوا كل أموالهم، ولو أنهم ذاقوا حلاوة هذا السلام، لسعوا إليه مقدمين كل ما يملكون نظير أن يحصلوا عليه.

ولذا **يقول أحد الآباء الروحيين** قولاً بسيطاً، ولكن يكمن فيه عمق روحي " **اشتر سلامك بأي ثمن** " ويقول آخر " **بكل حيلة تحيل ألا تفقد سلامك** " وهذا يعني أنه ينبغي على الراهب أن يسعى إلى السلام مع الله، بكل ما له من قدرة، حتى لو كلفه ذلك ترك أي شيء محبوب عنده ويبعده عن الله، مثل الخطية أو أي شهوة أو رغبة. ويسعى أيضاً إلى السلام مع الناس حتى لو اضطره ذلك إلى كسر الذات والذهاب لمراضاتهم، أو

التنازل عن رأيه الخاص، أو لو أدى إلى تعبه وخدمتهم، عامة يضحي بأي شيء مقابل أن لا يفقد سلامه الروحاني مع الله ومع إخوته الرهبان.

لذلك يقول داود النبي في المزمور " من أراد أن يحب الحياة، ويرى أياماً صالحة على الأرض، فليكفف لسانه عن الشر وشفتيه عن أن تتكلما بالمكر، **ليطلب السلام ويجد في أثره** " (مز٣٤: ١٢، ١٣)، (١بط ٣: ١١). ويدعو أيضاً القديس بولس الرسول إلى السلام مع كل الناس قائلاً " **اتبعوا السلام مع الجميع**، والقداسة التي بدونها لن يرى أحد الرب " (عب ١٢: ١٤). ويقول أيضاً " فلنعكف إذاً على ما **هو للسلام** وما هو للبنيان **بعضنا لبعض** " (رو ١٤: ١٩). " **عيشوا بالسلام**، وإله المحبة والسلام يكون معكم " (٢كو ١٣: ١١). " مجتهدين إلى حفظ وحدانية الروح **برباط السلام** " (أف ٤: ٢٣). " حاذين أرجلكم باستعداد **إنجيل السلام** " (أف ٦: ١٥).

ويحث **القديس مكاريوس الكبير** أولاده الرهبان على المحبة والسلام قائلاً لهم [إن أحببتم بعضكم بعضاً فإن الله يسكن فيكم، وإن كان في قلوبكم شر، فلن يسكن الله فيكم، احذروا الوقيعة لئلا تصيروا كالحية، احفظوا أسماعكم عن كلام النميمة

لتكون قلوبكم نقية، واهربوا من كل ما ينجس القلب، **أكرموا بعضكم بعضاً لتكون السلامة والمحبة بينكم**، إن غضب أحد على أخيه وإخوته، فلا يسترح له بال قبل أن يصلحه بحلاوة المحبة، فقد كُتب لا تغرب الشمس على غيظكم، **قبلوا بعضكم بعضاً بقبلة السلام، وذلك ليخزى عدو السلام ويفرح إله السلام، وتكونوا له بنين لأنه قال: إن فاعلي السلام يدعون أبناء الله**، صلوا بالروح دائماً كما أمر الرسول، اتضعوا لإخوتكم واخدموهم حسب قوتكم لأجل المسيح، لتنالوا منه الجزاء، فقد قال له المجد: " ما تصنعونه بهم فبي تصنعونه "] (١).

ويكمل **القديس مكاريوس** عظته لأولاده الرهبان فيقول لهم: [اغفروا لبعضكم بعضاً لتنالوا الغفران، فقد قال الرب اغفروا ليغفر لكم ... داوموا على حفظ هذه الوصية فإن ربحها عظيم ولا تعب فيها، كونوا أبناء السلام ليحل سلام الرب عليكم، كونوا أبناء المحبة لترضوا محب البشر ...] (٢).

وكان الآباء الشيوخ بالدير حريصين أن يحصنوا أولادهم الرهبان على أن يعيشوا في سلام، ولا يفقدوه لأي سبب. لأن

---

(١) بستان الرهبان ص٣٢، ٣٣.

(٢) بستان الرهبان ص٣٤.

الراهب متى فقد سلامه فلن يُثمر في قلايته أبداً، ولن يكـــون في هدوء وراحة بداخلها حتى يرجع إلى سلامه مرة أخرى. مـــتى فقد الراهب سلامه لا يستطيع أن يصلي أو يتأمل أو يقـــرأ ... كما وهو في سلامه.

وقد سعى الآباء الرهبان، أن لا يدخلوا إلى فكرهم وقلبهم أي كلمة أو حديث يجعلهم يفقدون سلامهم، ويحـــضرني الآن قول لأحد الآباء الشيوخ البسطاء والذين عشنا بينـــهم بـــدير السريان، فكان حينما لا يعجبه قول أو حديث لأي راهب كان يقاطعه قائلاً " **سلامتك يا راسي** " لأنه كان يحرص لئلا يفقده سلامه.

سابعاً: السلام الروحاني عربون لحياة الملكوت

يقول معلمنا بولس الرسول، في رسالته إلى أهـــل رومية " ملكوت السموات ليس أكلاً وشرباً، بل بر وسلام وفرح في الروح القدس " (رو ١٤: ١٧). من هنا يصبح الراهب الذي يعيش السلام الروحاني (في الروح القدس)، شخـــصاً يعـــيش ملكوت السموات على الأرض.

وأُعلن ذلك للقديس بولس الرسول ورآه حينما أُختطف إلى السماء الثالثة، أي إلى الفردوس، وسمع كلمات لا يُنطق بها، ولا يسوغ لإنسان أن يتكلم بها (٢كو ١٢). ولهذا حينما يـــتكلم القديس بولس عن الملكوت، فهو يتكلم عن ما سمعه من السماء عينها، ويصف حقيقة ما رآه بعينيه وليس من تخيله. فعلى الرغم من كونه لم يدخل ملكوت السموات و لم يرهـــا، لأن ذلـــك سوف يكون في اليوم الأخير، ولكنه عاين الفردوس ورأى الحالة التي سوف يكون عليها الأبرار والصديقون فيما بعد.

ولأن السلام الروحاني (أي في الروح القدس) هو جزء من ملكوت السموات. فالراهب الذي يعيش السلام الروحاني هـــو شخص يعيش ملكوت السموات، وهو مازال على الأرض، أو بل هو يعيش أيام السماء على الأرض، بل هو شخص تـــذوق الحياة الأبدية وهو ما زال في الجسد.

ونجد أن ما يساعد الراهب على اقتناء السلام الروحـــاني، فضائل عظيمة من خلالها يستطيع أن يعيش ويتذوق الملكوت.

فالسلام الروحاني الذي يتمتع به الراهب، ينتج من إيمانـــه القوي. والإيمان كما يصفه بولس الرسول " هو الثقة بما يرجى والإيقان بأمور لا ترى " (عـــب ١١: ١)، أي أن الـــسلام

(٤) أسباب الفرح الروحاني في حياة الراهب

البعض من المؤمنين وخاصة من لهم علاقة قوية بالله، تذوقوا جزءاً من الفرح الروحاني، ولكن حقيقة، مهما وصلوا فلن يبلغوا إلى ما وصل إليه الرهبان من فرح روحاني وتهليل سماوي. فالفرح الذي يتمتع به الراهب هو ما قال عنه الكتاب " لا يُنطق به ومجيد " (١بط ١: ٨). هو أسمى من أن يُعبَّر عنه بكلمات أو أوصاف أو مشاعر، حتى وإن حاولت جاهداً أن أنقل لك جزءاً منه، فلن أستطع أن أعبر لك عنه بصدق، أو أنقل لك الحقيقة الصادقة الكاملة عنه.

لِمَ لا يفرح الراهب وهو المخلوق المذلل من الله؟ ولِمَ لا يفرح وهو الذي يتمتع بالوجود الدائم مع الله، في الصلاة والتسبيح؟ ولِمَ لا يفرح وهو الذي يتمتع بمحبة الله وعنايته الفائقة به؟ ولِمَ لا يفرح الراهب وهو الكائن الذي يعيش بلا هم في هذه الحياة مثل طيور السماء؟ ولِمَ لا يفرح وهو الذي أخذ وعداً من فم السيد المسيح، أن " من ترك أباً أو أماً أو ... إلا ويأخذ مئة ضعف في هذه الحياة والحياة الأبدية " (مر ١٠: ٢٩، ٣٠)؟ ولِمَ لا يفرح الراهب، وهو الذي يعيش حياة التوبة كل يوم، فيصير أبيض من الثلج، ويكون بلا قلق أو ضيق أو

اضطراب؟ ولِمَ لا يفرح الراهب بعد أن أصبح يجلس على قمة العالم، حيث لا يشتهي شيئاً ولا يريد شيئاً منه؟ ولِمَ لا يفرح الراهب، وقد اُختير للدعوة الرهبانية، وأصبح مميزاً من بين الشعوب، ليكون خادماً أميناً في بيت الرب، إذ سمع الصوت الإلهي يقول " ميزتكم من الشعوب لتكونوا لي " (لا ٢٠: ٢٦).

وإلى جانب ما ذكرناه سابقاً عن أسباب الفرح الروحاني، نورد هنا أسباب أخرى تختص بالراهب الذي يعيش الحياة الرهبانية داخل الدير.

(أ) الفرح بالله ذاته:

لقد ترك الراهب كل شيء وراءه، حاسباً إياه نفاية من أجل السيد المسيح، لذا يقتني فرحاً ليس له مثيل: إذ قد اقتنى الجوهرة الكثيرة الثمن وخبأها في قلبه، فلا يستطيع العالم أو الشيطان أو أي أحد أن ينزعها منه، فيفرح لأن الله هو نصيبه الذي اختاره فلا يسكن قلبه سواه، فهو ميراثه على الأرض وفي السماء. لذلك يتغنى الراهب مع إرميا النبي قائلاً: " نصيبي هو الرب قالت نفسي " (مراثي ٣: ٢٤). والراهب اختار النصيب الصالح الذي لن يُنزع منه مثل مريم أخت لعازر (لو ١٠: ٤٢). فالله بالنسبة للراهب أصبح كل كيانه، ويشغل كل تفكيره وكل

التنازل عن رأيه الخاص، أو لو أدى إلى تعبه وخدمتهم، عامة يضحي بأي شيء مقابل أن لا يفقد سلامه الروحاني مع الله ومع إخوته الرهبان.

لذلك يقول داود النبي في المزمور " من أراد أن يحب الحياة، ويرى أياماً صالحة على الأرض، فليكفف لسانه عن الشر وشفتيه عن أن تتكلما بالمكر، **ليطلب السلام ويجد في أثره** " (مز٣٤: ١٢، ١٣)، (١بط ٣: ١١). ويدعو أيضاً القديس بولس الرسول إلى السلام مع كل الناس قائلاً " **اتبعوا السلام مع الجميع**، والقداسة التي بدونها لن يرى أحد الرب " (عب ١٢: ١٤). ويقول أيضاً " فلنعكف إذاً على ما **هو للسلام** وما هو للبنيان **بعضنا لبعض** " (رو ١٤: ١٩). " **عيشوا بالسلام**، وإله المحبة والسلام يكون معكم " (٢كو ١٣: ١١). " مجتهدين إلى حفظ وحدانية الروح **برباط السلام** " (أف ٤: ٣). " حاذين أرجلكم باستعداد **إنجيل السلام** " (أف ٦: ١٥).

ويحث **القديس مكاريوس الكبير** أولاده الرهبان على المحبة والسلام قائلاً لهم [إن أحببتم بعضكم بعضاً فإن الله يسكن فيكم، وإن كان في قلوبكم شر، فلن يسكن الله فيكم، احذروا الوقيعة لئلا تصيروا كالحية، احفظوا أسماعكم عن كلام النميمة

لتكون قلوبكم نقية، واهربوا من كل ما ينجس القلب، **أكرموا بعضكم بعضاً لتكون السلامة والمحبة بينكم**، إن غضب أحد على أخيه وإخوته، فلا يسترح له بال قبل أن يصلحه بحلاوة المحبة، فقد كُتب لا تغرب الشمس على غيظكم، **قبلوا بعضكم بعضاً بقبلة السلام، وذلك ليخزى عدو السلام ويفرح إله السلام، وتكونوا له بنين لأنه قال: إن فاعلي السلام يدعون أبناء الله**، صلوا بالروح دائماً كما أمر الرسول، اتضعوا لإخوتكم واخدموهم حسب قوتكم لأجل المسيح، لتنالوا منه الجزاء، فقد قال له المجد: " ما تصنعونه بهم فبي تصنعونه "] ([1]).

ويكمل **القديس مكاريوس** عظته لأولاده الرهبان فيقول لهم: [اغفروا لبعضكم بعضاً لتنالوا الغفران، فقد قال الرب اغفروا ليغفر لكم ... داوموا على حفظ هذه الوصية فإن ربحها عظيم ولا تعب فيها، كونوا أبناء السلام ليحل سلام الرب عليكم، كونوا أبناء المحبة لترضوا محب البشر ...] ([2]).

وكان الآباء الشيوخ بالدير حريصين أن يحصنوا أولادهم الرهبان على أن يعيشوا في سلام، ولا يفقدوه لأي سبب. لأن

([1]) بستان الرهبان ص٣٢، ٣٣.

([2]) بستان الرهبان ص٣٤.

الراهب متى فقد سلامه فلن يُثمر في قلايته أبداً، ولن يكـــون في هدوء وراحة بداخلها حتى يرجع إلى سلامه مرة أخرى. مـــتى فقد الراهب سلامه لا يستطيع أن يصلي أو يتأمل أو يقـــرأ ... كما وهو في سلامه.

وقد سعى الآباء الرهبان، أن لا يدخلوا إلى فكرهم وقلبهم أي كلمة أو حديث يجعلهم يفقدون سلامهم، ويحـضرني الآن قول لأحد الآباء الشيوخ البسطاء والذين عشنا بينـــهم بـــدير السريان، فكان حينما لا يعجبه قول أو حديث لأي راهب كان يقاطعه قائلاً " **سلامتك يا راسي** " لأنه كان يحرص لئلا يفقده سلامه.

سابعاً: السلام الروحاني عربون لحياة الملكوت

يقول معلمنا بولس الرسول، في رسالته إلى أهـــل رومية " ملكوت السموات ليس أكلاً وشرباً، بل بر وسلام وفرح في الروح القدس " (رو ١٤: ١٧). من هنا يصبح الراهب الذي يعيش السلام الروحاني (في الروح القدس)، شخـــصاً يعـــيش ملكوت السموات على الأرض.

وأُعلن ذلك للقديس بولس الرسول ورآه حينما أُختطف إلى السماء الثالثة، أي إلى الفردوس، وسمع كلمات لا يُنطق بها، ولا يسوغ لإنسان أن يتكلم بها (٢كو ١٢). ولهذا حينما يـــتكلم القديس بولس عن الملكوت، فهو يتكلم عن ما سمعه من السماء عينها، ويصف حقيقة ما رآه بعينيه وليس من تخيله. فعلى الرغم من كونه لم يدخل ملكوت السموات و لم يرهـــا، لأن ذلـــك سوف يكون في اليوم الأخير، ولكنه عاين الفردوس ورأى الحالة التي سوف يكون عليها الأبرار والصديقون فيما بعد.

ولأن السلام الروحاني (أي في الروح القدس) هو جزء من ملكوت السموات. فالراهب الذي يعيش السلام الروحاني هـــو شخص يعيش ملكوت السموات، وهو مازال على الأرض، أو قل هو يعيش أيام السماء على الأرض، بل هو شخص تـــذوق الحياة الأبدية وهو ما زال في الجسد.

ونجد أن ما يساعد الراهب على اقتناء السلام الروحـــاني، فضائل عظيمة من خلالها يستطيع أن يعيش ويتذوق الملكوت.

فالسلام الروحاني الذي يتمتع به الراهب، ينتج من إيمانـــه القوي. والإيمان كما يصفه بولس الرسول " هو الثقة بما يرجى والإيقان بأمور لا ترى " (عـــب ١١: ١)، أي أن الـــسلام

الروحاني ينتج من تطلع ورؤية الراهب للأمور السماوية التي لا ترى، ورؤيته ومعايشته لها تكون بصفة دائمة، لذا تجعله يعيش ملكوت السموات على الأرض. وهذا ما عاشه القديس يوحنا القصير كما يذكر بستان الرهبان.

- مرة جاءه جمَّال إلى القديس يوحنا القصير ليحمل أوعيته، فلما دخل ليحضر له الضفائر نسيها لأنه كان مشغولاً في التأمل في المناظر المعقولة الإلهية – وقرع الجمَّال الباب فخرج إليه ونسى مرة أخرى – فقرع مرة ثالثة، فخرج إليه ودخل وهو يقول (الضفائر للجمَّال، الضفائر للجمَّال) ([1]).
- ومرة جاء إليه بعض الإخوة ليأخذوا منه (قففاً) فقرع أحدهم، فخرج إليه وقال له : ماذا تطلب أيها الأخ؟ فأجابه (قففاً). فتركه ودخل وجلس يخيط فقرع آخر فخرج إليه وقال ماذا تريد أيها الأخ؟ فقال له هات لي قفة يا أبتاه، فدخل وجلس يخيط ونسى من فرط تأملاته. ثم أن الأخ قرع مرة أخرى فخرج إليه وقال له ماذا تريد يا أخي؟ فقال " القفف أيها الأب " فأمسكه بيده وأدخله إلى القلاية وقال إن

([1]) بستان الرهبان ص٧٨.

كنت تريد قفة فخذ ما تريده فأني لست متفرغاً لك في هذه الساعة ([2]).

- وقيل عنه أنه ضفر في بعض الأوقات ضفيرة تصلح لعمل زنبيلين، لكنه خاطها زنبيلاً واحداً، ولم يعلم بذلك إلا عندما وصل إلى آخر الضفيرة، وذلك لأن فكره كان مشغولاً بالمناظر الإلهية ([3]).

وينتج السلام الروحاني عند الراهب، من حياة التجرد والفقر الاختياري، والتي بدورها تجعل الله يغنيه بما هو سماوي، بل إنه كلما ازداد الراهب في تجرده داخل قلايته، وكلما ازداد فقره من قشاش هذا العالم، كلما شعر بالغنى الإلهي الذي يؤهله للنظر في السماويات. ولذا يتذوق الراهب ملكوت السموات حينما يعيش السلام الروحاني.

والراهب الذي نذر أن يعيش حياة الطهارة والعفة، اقتنى السلام الروحاني، لأنه حيث تكون طهارة وعفة، لا تكون هناك خطية، وحيث لا توجد خطية هناك يكون السلام الروحاني.

([2]) بستان الرهبان ص٧٨.
([3]) بستان الرهبان ص٧٨.

وكما يقول الكتاب " اتبعوا السلام مع الجميع، والقداسة التي بدونها لن يرى أحد الرب " (عب ١٢: ١٤). ولذا فالراهب الذي يعيش في طهارة وعفة، أي في قداسة، يكون دائماً في سلام روحاني، وتكون بينه وبين الله دالة عظيمة، يستطيع من خلالها أن يرى الرب، ويعيش أيام السماء على الأرض.

وعندما يعيش الراهب حياة الهدوء والسكون في البرية والذي يحصل به على السلام الروحاني. يستطيع من خلالهما أن يتمتع برؤية الله.

وكما قال أحد الآباء لتلميذه إذا أحضرت وعاء ماء وحركته، ثم نظرت بوجهك فيه فهل ترى شيئاً؟ قال له التلميذ لا. وبعد أن هدأ الماء قال له أنظر إذن مرة أخرى. فقال له إني أرى وجهي، فقال له الشيخ إن أردت أن ترى الله فالزم السكون والبعد عن العالم.

وهكذا من خلال السلام الروحاني الذي يقتنيه الراهب من حياة السكون والهدوء، يعيش الحياة الأبدية وهو ما زال في الجسد.

وإلهنا الرحوم الذي أحبنا، واختار أولاده الرهبان " ميراثاً لنفسه " (مز ٣٣: ١٢)، (مز ٤٧: ٤) دائماً ما يُكلل جهادهم في أواخر حياتهم بالسلام الروحاني الذي يفوق كل عقل، كعربون للحياة الأبدية، وامتداد للسلام الأبدي الذي سيعيشونه في السماء.

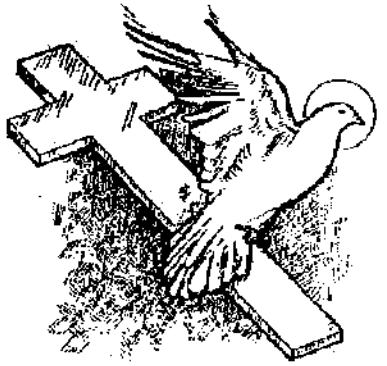

(٤)

الصداقة الروحانية في المجامع الرهبانية

أولاً: الصداقة:

ثانياً: الصداقات وتأثيرها في المجامع الرهبانية

ثالثاً: أنواع الصداقات

(١) صداقات جسدية

(٢) صداقات روحية

رابعاً: الصداقة مع الله (الارتباط بالواحد)

(الصديق الألزق من الأخ)

أولاً: الصداقة

هناك فرق كبير بين الصداقة والزمالة داخل الدير، فالعلاقة بين الرهبان داخل الدير الواحد، هي علاقة محبة وأخوة ولا يصح أن نسميها صداقة، لأنه لا يمكن للراهب أن يصادق كل رهبان الدير، إنما هو يختار عدداً قليلاً منهم، قد يكون واحد أو أكثر، يجمعهم هدف واحد وفكر واحد وصفات وسلوكيات واحدة، كأن يحبون أن يتمشوا معاً أو يتزاوروا ويقضوا وقتاً معاً. ودائماً ما يكونون متقاربين في حالة مرض أحدهم، أو مروره بضيقة أو تجربة ما، كما وقد يتخللها الإفصاح لهم ببعض الخصوصيات وليس كلها.

وهناك صفات كثيرة يتحلى بها الصديق يذكر بعضها القديس مكسيموس في عدة نقاط (١):

(١) الصديق الحميم هو من يشارك قريبه أثناء المحن في احتمال الضيقات والشدائد والتجارب والنكبات، كأنها تخصه، دون اضطراب وتذمر.

(١) كيف نحيا مع الله جزء ٣ ص٣٦٣، ٣٦٤.

(٢) الصديق الأمين هو سر متين، لأنه إذا كان صديقه في رغد وسعة، كان له نعم المستشار ونعم الشريك، وإذا كان في محنة كان له نعم المعين ونعم الحبيب.

(٣) العاملون بدقة بوصايا الله، والأصفياء الأصليون لأحكام الله، هم وحدهم لا يتركون أصدقاءهم إذا سمح الله بتجربتهم.

(٤) أما ماقتو وصايا الله وجهلة أحكامه، فأنهم يشاركون أصدقاءهم إذا كانوا في سعة ويتركونهم إذا وقعوا في محنة، وكثيراً ما ينحازون عنهم ويقفون مع أعدائهم.

ثانياً: الصداقات وتأثيرها في المجامع الرهبانية

على الرغم أن الحياة الرهبانية في مفهومها الأول وفي جوهرها هي الوحدة والبعد عن كل أحد للارتباط بالواحد أي الله. إلا أننا لا ننكر مع ظهور ونشأة التجمعات الرهبانية داخل الأديرة وخارجها ظهرت صداقات بين الرهبان وبعضها.

من هنا كان للصداقة في المجامع الرهبانية لها تأثيرها الخطير، سواء على المجمع الرهباني ككل، أو على الراهب الذي يحب الجلوس معهم والحديث إليهم. فلا شك أن أحاديث الأصدقاء

وسلوكياتهم، تؤثر على الفرد، فإنك تستطيع أن تتعرف على شخصية أي راهب من خلال معرفتك بأصدقائه الذين يتعامل معهم.

ولهذا أشار آباء الرهبنة الأُوَّل إلى أهمية ذلك في أقوالهم (١)

قال مار إسحاق: محادثة الفضلاء والمشير الحكيم سور رجاء.

قال الأنبا باخوميوس: إذا ضعفت عن أن تكون غنياً بالله، فالتصق بمن يكون غنياً به، لتسعد بسعادته وتتعلم كيف تمشي حسب أوامر الإنجيل، فإذا أحببت الأطهار فإنهم يكونون لك أصدقاء، ومعهم تصل إلى مدينة الله المملوءة نوراً.

وقال شيخ: إذا أقام راهب عمَّال في موضع مع رهبان غير عمَّالين، فإنه لا يفلح إلا إذا ضبط نفسه، ولم يرجع إلى الوراء، ويكون بذلك مستحقاً جزاءً صالحاً، أما الراهب البطَّال الذي يقيم بين مجاهدين، فإن انتبه فإنه يمشي إلى قدام، ولن يرجع إلى وراء.

وقال آخر: من اجتمع بإخوة عمَّالين، فلو كان غير عمَّال فإن لم يتقدم إلى قدام، فلن يتأخر إلى وراء، كذلك من يجتمع

(١) بستان الرهبان ص ٢٣٧.

بإخوة متهاونين، فلو كان عمَّالاً فإن لم يخسر فلن يربح. الساقط فلينهض لئلا يهلك، والقائم فليحفظ لئلا يسقط.

وقال شيخ آخر: إذا أنت مشيت مع رفيق صالح من قلايتك إلى الكنيسة، فإنه يُقدمك ستة أشهر وإذا أنت مشيت مع رفيق رديء من قلايتك إلى الكنيسة فهو يؤخرك سنة. والكتاب المقدس يقول " المعاشرات الرديئة تفسد الأخلاق الجيدة " (١كو ١٥: ٣٣).

ثالثاً: أنواع الصداقات

تتعدد أنواع الصداقات وتختلف حسب أهداف وسلوكيات كل مجموعة، ولكن يمكن تقسيمها إلى نوعين من الصداقات. الأولى منها تُسمى **صداقات جسدية**، ويتمركز سلوك هذه الصداقة حول أمور عالمية أو جسدية. أما الثانية، فتُسمى **صداقات روحية**، ويتمركز سلوك هذه الصداقة حول كل ما هو روحي. وسوف نأخذ كل واحدة من هذه الصداقات على حدة.

(١) صداقات جسدية:

ينشأ هذا النوع من الصداقات بين الرهبان، في بداية الحياة الرهبانية، ومحور هذه الصداقات أمور عالمية وجسدية، كالأكل

والشرب معاً، أو الجلوس للسمر والضحك والتسلية معـاً، أو التمشية وتضييع الوقت، أو أي شيء من هذا القبيل، وغالباً ما يتخلل هذه الصداقات أحاديث غير بناءة من نقد لإدارة الدير أو الاعتراض على سياسة المسئولين، أو نقد سلوك وتصرفات بعض رهبان الدير، أو التهكم والنميمة واغتياب الآخرين.

وبعد انقضاض هذه الجلسات، يرجع الراهـب منـهم إلى قلايته، وقد تملكه الكسل والملل والتواني ... مما قد يـؤدي إلى فتور روحي في الحياة الروحية.

ولذا حذر **مار إسحاق السرياني** من ذلك فقال " لا تكـن صديقاً لمحب الضحك الذي يحب أن ينال من الناس ويشهر بهم لأنه يقودك إلى تعود الاسترخاء. (١).

وقد يستمر الراهب في هذه العلاقات فترة قصرت أو طالت إلى أن يفيق منها حينما يدرك تأثيرها الضار على خلاص نفسه، وعدم جدوى مثل هذه الصداقات في الحياة الرهبانية، وغالباً لا تستمر هذه الصداقات طويلاً، لأنه سرعان ما تدب الخلافـات بين أفرادها بسبب الذات أو الشعور بالتقيد وعدم الراحـة أو

(١) ميامر مار إسحاق جزء ٣ ص١٩٥ إصدار أبناء البابـا كيرلـس، بستان الرهبان ص٣٢٥.

الالتزام خاصة في الأمور الجسدية التي كانت الأساس في تكوين هذه الصداقات.

وهذه الصداقات تشبه البيت المبني على الرمل، وليـس لـه أساس، فحينما تهب الريح تصدم هذا البيت، فيسقط ويكـون سقوطه عظيماً. فإذا هبت على هذه الصداقات أي خلافـات، تسقط وتنحل هذه الصداقات، لأن رباطها أمور جسدية وعالمية قريبة من الفناء.

وينصح القديس برصنوفيوس أحد أبنائه الذي سأله عـن ذلك(١). سأل أخ شيخاً: أحسن أن يقيم أحد صداقة مـع أخ من عمره؟ أجابه الشيخ: أنه حسن ألا تكون لأحد صداقة مـع أخ من عمره، لأن الصداقة تطرد النوح (الروحي). أما أنـت فلا تصادق أياً كان من شأنه أن يفقدك النـوح، لأن فقدانـه يسبب لك ضرراً كبيراً. فبدون التعب والنوح لا يستطيع أحـد أن يقتني شيئاً صالحاً. درب عينيك على عدم الالتفاف إلى أحد، فنق قلبك من الدالة الخطرة التي تؤدي بالراهب إلى ضياع كـل أثماره.

(١) كيف نحيا مع الله جزء ٣ ص٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨.

ثم يردف القديس حديثه قائلاً:

فالشبان ينبغي عليهم أن يكونوا حريصين على أنفسهم في كل شيء، لأن الشيطان سريعاً ما يوقعهم في الفخ. فإنهم قبل كل شيء، عندما يجلسون معاً يبدأون بالحديث في ما ينفع النفس، لكن حديثهم لا يلبث أن يؤول بهم إلى المماحكات والدالة والضحك والذم وإلى شرور أخرى كثيرة فيتم ما قيل بالرسول " بعدما ابتدأتم بالروح الآن تتصرفون بالجسد " (غل ٣: ٣). ولهذا يسقطون لأنهم يحبون الصداقة عن غير وعي. وحدود محبتهم بعضهم لبعض هي عدم الذم، عدم الغضب، عدم الاستهانة، ألا يطلبوا ما لأنفسهم ولا يفضلوا راحتهم على راحة القريب، ألا يحبوا من أجل جمال الجسد أو لأنهم نالوا مساعدة الآخر: ألا يجلسوا معاً بدون ضرورة ماسة، مخافة أن يسقطوا في الدالة المهلكة التي تبدد ثمر الراهب وتتركه مثل عود يابس.

وهناك صداقات جسدية أخطر من هذه الصداقات تسبب الهلاك بل الدمار لأي راهب، وهي أن يكون للراهب صداقات مع العلمانيين، فهو يترك صداقة إخوته الرهبان ليبحث عن صداقات أخرى خارج الدير مع العلمانيين أو الضيوف التي تزور الدير. في هذه الحالة يصبح الراهب واحداً منهم ولكن في

زي راهب، ويبتدأ يتغير سلوكه الرهباني إلى سلوك العلمانيين، وتتحول أحاديثه معهم من الروحانية إلى أحاديث حول أمور العالم ومشاكله.

ونهاية هذه الصداقات تدمر حياة الراهب الروحية بالتمام، وإن زادت أكثر من هذا تُدمر ما تبقى عنده من شكل الرهبنة.

ودائماً ما يُحذر الآباء والشيوخ أولادهم الرهبان من الخلطة بالعلمانيين فيقول **القديس ثيئوفان الناسك:** الحياة داخل الدير شاقة لمن يريدون أن يعيشوا بصحبة الناس.

قال الأنبا انطونيوس: لا تخالط علمانياً بالجملة ([1]).

وقال آخر: لا تصادق رئيساً ([2]).

وقال شيخ : لا تصادق صبياً ولا تبغض إنساناً ([3]).

وقال الأنبا أنطونيوس: لا تتحدث مع صبي، لا تصادقه البتة ولا تعاشره بالجملة ولا ترهبنه بسرعة ([4]).

([1]) بستان الرهبان ص٢٣٤.

([2]) بستان الرهبان ص٢٣٤.

([3]) بستان الرهبان ص٢٣٣.

([4]) بستان الرهبان ص٢٣٣.

قال القديس إكليماكوس: من يحب مخالطة النـــاس لـــن يستطيع أن يتفرغ لنفسه وهو عاهة لنفسه (١).

قال مار إسحاق: العادم من الأصدقاء المغرورين، عادم من الضنك (٢).

قال الأنبا إشعياء: إياك أن تقتني لك أصدقاء من بين رؤساء الدنيا لكي لا يبعد الله عنك (٣).

(٢) صداقات روحية (٤):

يتكون هذا النوع من الصداقات بين جماعة الرهبان، فهـــو يسمو عن الصداقات الجسدية إلى الأمور الروحية، فإن قوامهـــا التأمل في الكتاب المقدس أو أي مواضيع روحيـــة، أو حفـــظ الألحان، أو أي حديث روحي مقدس عن أي مفهوم روحـــي، عامة هذه الصداقات دائماً ما يؤلفها ويوحدها الروح القـــدس مثل قيثارة تعزف ألحاناً عذبة، وتُخرج كلمات وأصوات روحية تطرب النفس وتُنعشها.

---

(١) بستان الرهبان ص٢٢٥.
(٢) بستان الرهبان ص٢٣٥.
(٣) بستان الرهبان ص١٤٥.
(٤) أنظر كتاب بستان الفضيلة الجناح الآخر، للمؤلف.

ويزداد رباط هذه الصداقة المقدسة مع مرور الأيام والسنين، لأن أساسها وقيامها السيد المسيح، لأنه يقول " حيثما اجتمـــع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وســـطهم " (مـــت ١٨ : ٢٠). بل وإن حاولت قوى الشر زعزعة مثل هذه الصداقات راغبة في هدمها لنقائها وقداستها، لن تستطيع أبداً، لأن أساسها المحبة التي لا تسقط أبداً (١كو ١٣: ٨)، حتى وإن حدث بين الرهبان بعض الخلافات من زرع إبليس، سرعان ما تزول هذه الخلافات وتعود المياه إلى مجاريها، بل أن المحبة بينـــهم تُـــصقل وتزداد صلابة وقوة.

وأمثال هذه الصداقات منتشرة بكثرة بين الرهبـــان وســـط المجامع الرهبانية، وهي مشجعة للراهب، ودافعاً قوياً له في الطريق الرهباني. فقد تتخلل هذه الجلسات الروحية، إثـــارة موضـــوع روحي معين، يمس شخصاً من المجموعة، فمن خلال الأحاديث والمناقشات، تنصلح أفكاره وتتقوم طرقه إلى الـــصواب دون أن يشعر أحد بأي شيء. ولذا فإن هذه الصداقات تؤمن الراهـــب من أن ينحرف فكرياً أو أن يفتر روحياً، كما تحميه أيضاً مـــن أي ضربات يمينية يوجهها عدو الخير ليعصف به، وإن اختلفت الآراء بين المجموعة، ولم تتفق على رأي روحي معين، تـــذهب

وتسترشد من أحد الشيوخ الرهبان في الدير أو من أب الاعتراف وتأخذ منه الرأي الأصوب.

ويتكلم عن ذلك الأنبا بولا الطموهي قائلاً:

" إذا اتخذت لك صديقاً أميناً وقبلك إليه، فإن كنت ضعيفاً فهو يُشددك ويجعلك شجاعاً، وهو سوف يجعلك عمالاً مجاهداً، ويصير لك سياجاً متيناً وسنداً قوياً يعينك، ويكون لك كشجرة مظللة تستريح عنده من جميع أتعابك، ويكون لك قوة وثباتاً وعزاءً في ضيقاتك، وتجده في شدائدك يحمل جميع أتعابك، وإذا ألقيت عليه أتعابك كلها فهو يرفعها عنك " (١).

ويقول أيضاً القديس إسطفانوس الطيبي:

" إذا اتخذت لك صديقاً، فليكن إنساناً مؤمناً، أعماله أفضل من أعمالك، إنساناً محباً لله، لا يكون منشغلاً بأمور هذا العالم التي تغرق الناس. ولا تكن صديقاً لإنسان لا ينالك منه ربح بسبب انشغاله بأمور هذا العالم، بل كن صديقاً للفقير ولمحب الله والمتواضع والغريب الذي يحفظ الغربة، ولمن كان متمنطقاً بمخافة

(١) فردوس الآباء جزء ٣ ص١٨٩.

الله، والمسكين الذي يحمل الصليب ويضع حارساً على فمه (مز ٣٩: ١)، يا ابني كن صديقاً لكل الذين يخافون الله " (١).

وتتميز هذه الصداقات بأنها تُلهب القلب بمحبة الله، فبعد أن ينصرف كل راهب إلى قلايته، وقد أخذ شحنة روحية جبارة يقف ليصلي بفرح وتعزية وتأمل وبلا ملل، ولا يود أن ينتهي من صلاته، وإن فتح الكتاب المقدس لا يريد أن يغلقه، بل كلما انتهى من قراءة أصحاح بدأ في الإصحاح الذي يليه، ويستمر في ذلك ساعات طويلة، وقد يرجع الراهب إلى قلايته ومعه آية أعجبته أو موضوع روحي أثير أثناء الحديث مع أصدقائه الرهبان، ويضغط الفكر الروحي على الراهب ويستمر معه ساعات طويلة، بل وكلما حاول إيقافه لكي يغفو قليلاً، حتى يقوم لصلاة نصف الليل والتسبحة، لا يستطيع إيقافه، إلا عندما يدق جرس نصف الليل ويذهب إلى الكنيسة للصلاة.

ويقف ضد هذه الصداقات في الأديرة، قلة من الرهبان المتهاونين، الذين ينعتون أصحاب هذه الصداقات، بكلمات التهكم والسخرية، وقد يصفونهم أحياناً بالجنون، ولكن بينما مثل هؤلاء يرشقونهم بهذه الكلمات، يتسلل أولئك الروحيون إلى

(١) فردوس الآباء جزء ٣ ص ١٥٨

الملكوت. ويقول في ذلك **القديس أنبا تيموثاوس** " إن أنت صادقت الله، يقوم عليك كل واحد، ويجعلون عقبهم على رأسك، وفي الآخر يجعلون عليك إكليلاً من ياقوت، وتاجاً ملوكياً يضعونه على رأسك ([1]).

ويذكر **الأب يوسف** الوسائل التي تعمل على استمرار الصداقة ([2]).

أولاً: ازدراء الأمور الزمنية واحتقار كل ما نملكه لأنه من الخطأ تماماً أن نهتم بأباطيل العالم وكل الأمور المزدرية أكثر مما نهتم بالأمور الأقيم ألا وهي محبة القريب ..

ثانياً: يجدر بكل إنسان أن يقطع رغباته فلا يظن في نفسه أنه حكيم ومختبر مفضلاً آرائه عن آراء قريبه.

ثالثاً: يلزمه أيضاً أن يعرف أن كل شيء - حتى ما يبدو مفيداً وضرورياً - يحتل المركز الثاني بعد بركة الحب والسلام.

رابعاً: عليه أن يتحقق أنه لا يجوز له أن يغضب قط بسبب حسن أو رديء.

([1]) فردوس الآباء جزء ٣ ص١٩٥.

([2]) مناظرات يوحنا كاسيان ص٣٩٧، ٣٩٨

خامساً: يجدر به أن يحاول شفاء كل حنق عند أخيه تجاهه ولو بغير سبب وذلك بنفس الطريقة التي بها يرغب في أن يتخلص هو من حنقه ضد أخيه. وليعلم أن حنق أخيه ضده هو أمر شرير مثل حنقه هو ضد أخيه، فيبذل كل طاقته أن يستبعد عن ذهن أخيه الحنق تماماً.

أخيراً والأمر الذي بلا شك حاسم، وهو أنه يجب عليه أن يتحققه كل يوم أنه راحل عن هذا العالم. وبهذا ليس فقط لا يسمح للغضب أن يبقى، بل ويضبط كل حركات الشهوات والخطايا من كل الصنوف.

رابعاً: الصداقة مع الله

(الصديق الألزق من الأخ)

يستمر الراهب في صداقته الروحية مع الرهبان مدة طويلة، من خلالها تنمو حياته الروحية، وتتعمق بقوة في محبة الله، وهنا يتدخل الله ليفطم الراهب حتى من هذه الصداقات الروحية، ليصبح الله هو الواحد فقط في حياته، وهو الصديق الألزق من الأخ، يصبح الله بالنسبة له، النبع الوحيد الذي يأخذ منه الراهب شبعه ويأخذ منه تعزيته.

وعبر عن ذلك **أحد الشيوخ** فقال " إن المرأة الشونمية، استقبلت أليشع لأنها لم تقم علاقة مع إنسان. إن الآباء يشبهون المرأة الشونمية بالنفس، وأليشع بالروح القدس، ويقولون بأن النفس في أية ساعة تبتعد عنها العلاقات الجسدية، يفتقدها الروح القدس، ويصبح في إمكانها أن تلد ولو كانت عاقراً "(١).

وينبغي على الراهب الذي ينفرد بالصداقة مع الله فقط دون شريك له، أن لا تكون له خلافات مع أي راهب من إخوته الذين في الدير، لئلا تكون صداقته لله، نوعاً من الانطواء أو العزلة غير الصحيحة، والتي تسبب له الأمراض النفسية.

فيقول القديس أنبا تيموثاوس " إن شئت أن تصادق الله، فلا تُحزن أحداً من الناس، ولو أكثر الإساءة إليك، بل أترك الأمر لله "(٢).

ومما يشجع الراهب ويدفعه للارتباط بالواحد عدة أمور نذكر منها:

(١) الشبع الروحي في الله فقط:

بعد أن يمكث الراهب فترة يستقي روحياته من خلال الصداقات الروحية مع إخوته الرهبان، يجد أنه لم يزل في احتياج روحي إلى الله، لأنه لم يشعر بالشبع الروحي، لذا يبدأ يبحث

(١) كيف نحيا مع الله جزء ٤ ص٦١.

عن مصدر الشبع الحقيقي الذي يسد احتياجه، فلن يجد سوى الله وحده، وهذا يجعله يعزف عن الآخرين، وينحل من رباط الصداقة الروحية مع إخوته الرهبان، ويستبدلها بالصداقة مع الله فقط، الذي يجد فيه الشبع الحقيقي لكل كيانه وحياته داخل الدير.

(٢) كبر السن، ومحبة الجلوس في القلاية:

مع مرور الأيام والسنين التي تمر على الراهب في الدير، يكبر في العمر وتقل كمية العمل المطلوبة منه، أو يعفى منه نهائياً إذا رأى المسئولون أن هذا أصلح له، وبالتالي يكون له فرصة ووقت أطول للجلوس في القلاية، وعدم الخروج منها إلا عند الضرورة، مما ينمي بينه وبين الله علاقة أقوى وتصير صداقة حميمة بينه وبين الله، يحب الحديث إليه دائماً في الصلاة ويحب سماع صوته من خلال كلامه معه في القراءة الدائمة للكتاب المقدس، ونتيجة لعدم خروجه كثيراً من القلاية، تقل علاقته مع الآخرين وتفتر تدريجياً، بينما داخل القلاية تقوى صداقته مع الله، ودون أن يشعر الراهب أو يتصنع ذلك تتبدل صداقته مع الرهبان بصداقته مع الله.

(٣) أمانة الله في صداقته

كل يوم يمر على الراهب في الدير، يلمس فيه أمانة الله نحوه، فكم من مرة قطع عهداً مع الله أن يعيش له ولا يفعل الخطية،

ولكنه نكث هذا الوعد، ورغم كل ما ارتكبه من شرور وخطايا وخيانة .... نحو الله، يجد مراحمه تسعى نحوه لتجديد العهد مرة أخرى، بينما إن هو نكث العهد مع صديق له، يصعب أن يقبل الصديق أن يُعيد العلاقة مرة أخرى، وإن رجعت العلاقة مرة أخرى، لا تكون مثل الأول بل تكون بحساب وحساسية. بل أكثر من هذا يشعر بعطايا الله ونعمه الكثيرة له، والتي أجزلها عليه ولم يكن يمتلكها قبل خيانته لله فهو يقول حيث كثر الإثم فلتكثر هناك نعمتك.

يلاحظ الراهب محبة الله المتناهية وأمانته المقدسة، على العكس تماماً، من عدم محبته الكاملة لله وخيانته المتواترة له، كما يقارن أيضاً بين محبة الله وتذبذب محبة الأصدقاء وعدم الأمانة في الوعود والصداقة. كل هذا يدفعه للتخلي عن الكل والارتباط بالواحد الألزق من الأخ.

بل الأعجب من ذلك أن الله يسمح ببعض الخلافات بين الراهب وإخوته، لكي ينحل الراهب من أي ارتباط حتى وإن كان مع إخوته الرهبان في الدير، ليرتبط بالصديق الواحد أي الله، وهنا يحقق الراهب الهدف الحقيقي والأساسي من الرهبنة، كما **قال مار إسحاق** وهو " الانحلال من الكل للارتباط بالواحد ".

(٥)

تأثير الجو الروحي على الحياة الرهبانية

أولاً: خطورة المؤثرات العالمية

ثانياً: تأثير الجو الروحي على الحياة الرهبانية

(أ) سُكنى البرية

(ب) الغيرة المقدسة

(جـ) النظر إلى وجوه الشيوخ

(د) عدم وجود معطلات

أولاً: خطورة المؤثرات العالمية

الإنسان عامةً يتأثر بالجو المحيط به، سواء كان صالحاً أم رديئاً، ولهذا نجد أن الحياة في العالم تضفي على من يعيشون فيه جواً عالمياً، بينما نجد أن الحياة داخل أسوار الدير أو في البراري والجبال، تُضفي على الراهب جواً روحياً، يُساعده على التقرب إلى الله. ونظراً لكل هذه التأثيرات التي يُحدثها العالم في الناس، تزايدت رغبة الشباب الذي يتطلع إلى التقرب نحو الله، في الابتعاد عن هذه الأجواء المعثرة، بالدخول إلى الأديرة للترهب فيها، سعياً للحياة والمعيشة في وسط روحي مليء بالروحانية والقداسة.

ولهؤلاء الشباب حق في سعيهم المحمود هذا، إذ أن العالم الذي يعيشون فيه مليء بمؤثرات سريعة ومثيرة ومتعددة ... لا يستطيع المرء أن يحمي نفسه من سهامها المميتة، إلا بالابتعاد قدر الإمكان عنها. فالعالم الآن مليء بأخبار حوادث محلية وعالمية سواء أخبار كوارث اقتصادية وسياسية وطبيعية ودينية وحربية... وأصبح متاحاً لكل إنسان الآن أن يسمعها ويراها في أي وقت يشاء، وبسهولة ما أبسطها سهولة وسلاسة من خلال وسائل الإعلام وشبكة الإنترنت ... كل هذا إلى جانب ما

يتعرض له من عثرات ومضايقات خلال يومه، وقت مزاولة عمله أو عند قضاء التزاماته الأسرية العامة. كل هذه المؤثرات وغيرها لها تأثير سيء على من يعيش في العالم، وبالتالي تتسبب في فتور العلاقة بين الإنسان والله ثم ما تلبث أن تنقطع هذه العلاقة بعد فترة وجيزة. ولهذا كان تحذير الكتاب المقدس قائلاً: " المعاشرات الرديئة تُفسد الأخلاق الجيدة " (١كو ١٥: ٣٣). كما قال أيضاً داود النبي في مزموره " طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة المنافقين، وفي طريق الخطاة لم يقف، وفي مجلس المستهزئين لم يجلس " (مز ١: ١). ولعل الجو الشرير الذي عاش فيه لوط وعائلته مع أهل سدوم وعمورة كاد يتسبب في هلاكه وهلاك عائلته، لولا عناية الله به، إذ أرسل له ملاكاً ليخرجه من وسط هذا الجو الفاسد، قائلاً له " **اهرب لحياتك، لا تنظر إلى ورائك، ولا تقف في كل الدائرة، اهرب إلى الجبل لئلا تهلك** " (تك ١٩: ١٧).

حتى الراهب الذي يترل إلى العالم لقضاء أمر ما، أو الذي يترل إلى حقل الخدمة في العالم، لم ينجّ من سموم العالم ومؤثراته، على الرغم من إيمانه الداخلي العميق، **من الحقيقة الرهبانية الصادقة، أن الرهبنة هي الابتعاد الكلي عن العالم، أو كما**

يقول مار إسحاق " الابتعاد عن الكل للارتباط بالواحد " أي الله الواحد. فكيف يبتعد الراهب عن الكل وهو يعيش في العالم مع الكل؟ كما أن الرهبنة موت عن العالم، فكيف يموت عن العالم، والعالم يحيط به من كل جهة لمحاولة إثارة الأوجاع الخامدة فيه؟ إن كل راهب يعي هذه الحقيقة، يعلم جيداً أنه كالسمكة التي إذا خرجت من الماء فأنها تموت، وهو إن خرج من ديره إلى العالم، سوف يتعرض للموت، وإن لم يمت فلن يحتفظ سوى بالاسم والشكل فقط دون العمق والرائحة.

ولهذا شجع الآباء الشيوخ في الأديرة أولادهم الرهبان على الثبات في الدير، وعدم الخروج منه إلا للضرورة القصوى كالعلاج من مرض ما أو لأي أمر هام وضروري يلزم نزول الراهب من الدير. وكان لهم مقولة جميلة ومشجعة يقولونها دائماً وهي " **لا تخرج من الدير وأنا أضمن لك خلاصك** " كان كل هذا الحرص على أولادهم، حتى يحتفظوا بنقاوتهم من شرور العالم وعثراته، ولهذا قال داود النبي في مزمور " **مغروسين في بيت الرب في ديار إلهنا يزهرون** " (مز ٩٢: ١٣). ونورد هنا بعض أقوال الآباء التي تُظهر مدى تأثير العالم

على حياة الراهب، ومدى خطورة النزول إلى العالم والخلطة بالعلمانيين ومصادقتهم:

◆ قال أحد الشيوخ:

إذا كان الراهب حريصاً مجاهداً، فإن الله يطلب منه ألا يرتبط بشيء من أمور هذه الدنيا، لئلا يشغله ذلك عن ذكر ربه، وعليه أن يطلب إليه بلجاجة وبكاء ليغفر الله خطاياه ([1]).

◆ وقال شيخ:

كل من ذاق حلاوة المسكنة، فإنه يستثقل ثوبه الذي يلبسه وكوز الماء الذي يشرب به، لأن عقله قد اشتغل بالروحانيات، فإذا ما ارتبط الراهب بالدنيا وما فيها، وصنع هواه فإن جميع تعبه يضيع سدى ([2]).

◆ وقال أنبا أبوللو:

لتكن عندكم هذه علامة عظيمة للنجاح متى اقتنيتم عدم الشهوة لشيء ما من أمور العالم، لأن هذا هو فاتحة جميع مواهب الله ([3]).

([1]) بستان الرهبان ص١٧٥.

([2]) بستان الرهبان ص ١٧٥.

([3]) بستان الرهبان ص ١٧٥.

❖ وقال مار إسحاق:

✚ كل إنسان تدبيره رديء، حياة هذا العالم عنده شهية، ويلي ذلك قليل المعرفة ([1]).

✚ من يهرب من سبح العالم بمعرفة يكتنز في نفسه رجاء العالم العتيد .. والذي يفر من نياح الدنيا قد أدرك بعقله السعادة الأبدية ([2]).

❖ وقال شيخ:

ينبغي ألا نرغب في نياح هذا العالم لئلا يُقال لنا : قد أخذت خيراتك في حياتك ([3]).

❖ وقال القديس مكاريوس

إن محبي المسيح الذين أرادوه قد تركوا نعيم الدنيا ولذاتها وصارت منزلة العالم عندهم كمنزلة العويد الصغير فلم يتألموا على فقد شيء منه ([4]).

([1]) بستان الرهبان ص ١٧٦

([2]) بستان الرهبان ص ١٧٦.

([3]) بستان الرهبان ص ١٧٦.

([4]) بستان الرهبان ص ١٧٦.

❖ وقال مار أفرام:

✚ إن أعظم الناس قدراً من لا يبالي بالدنيا في يد من كانت؟ ([1]).

✚ ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما بين أيدي الناس يحبك الناس ([2]).

❖ وقال أحد القديسين:

النفس تشتهي أن تخلص، إلا أنها مشتبكة بالأشياء الباطلة، وعند اشتغالها بالأمور الدنيوية، يصعب عليها تعب الآخرة، حتى أنها لا تقدر على أن تُصَلِّب على وجهها بغير طياشة، فصلاة كهذه ليست لها قوة فعالة، ولكنها قد صارت عادة([3]).

❖ وقال شيخ:

✚ كما أن عيني الخنزير تنظران إلى الأرض ولا يرفعهما، كذلك كل من أحبت نفسه اللذات العالمية، بصعوبة يرفع عقله إلى الله، ويهتم بشيء مما يرضيه ([4]).

✚ وسُئل مرة: ما هو العالم؟ وكيف نعرفه؟ وما هو مقدار معزته لمحبيه؟

([1]) بستان الرهبان ص ١٧٦.

([2]) بستان الرهبان ص ١٧٦.

([3]) بستان الرهبان ص ١٧٦.

([4]) بستان الرهبان ص ١٧٦.

فأجاب: إن العالم هو تلك الزانية التي بشهوة حسنها تجذب الناظرين إليها، إلى حبها، والمقتنص بعشقه والمتشبث به، لا يقدر أن يتخلص منه حتى تفنى حياته، فإذا ما عراه من كل شيء وأخرجه من منزله يوم موته، حينئذ يعرف الإنسان في ذلك اليوم أنه خداع وسراب مضل، حتى إذا ما جد الإنسان في الخروج من هذا العالم المظلم فإنه لن يستطيع الخلاص من حبائله مادام هو منغمساً فيه ([1]).

◈ قال شيخ:

المنصرف إلى العالم بعد رفضه إياه، إما أن يسقط في فخاخه ويتدنس قلبه بأفكاره، وإما أنه لا يتدنس لكنه يدين المتدنسين فيتدنس هو أيضاً ([2])

◈ وقال أنبا موسى الأسود:

ملازمة خوف الله تحفظ النفس من المحاربات وحديث أهل العالم والاختلاط بهم يظلم النفس وينسيها التأمل ([3]).

([1]) بستان الرهبان ص ١٧٧.

([2]) بستان الرهبان ص ٢٠٣.

([3]) بستان الرهبان ص ٢٠٣.

◈ وقال شيخ:

كمثل من هو حامل جوهرة ثمينة، ويمضي بها في طريق، وتشاع عنها أفكار سمحة، فيصبح في كل وقت مَرغُوبَاً من السالب، هكذا الذي قد اقتنى جوهرة العفة، ويسير في العالم، الذي هو طريق الأعداء، بدلاً من أن يدخل منزل القبر (القلاية) الذي هو بلد الثقة. فهذا ليس له رجاء في أن يفلت من اللصوص السالبين، وكما أنه لا يمكن لذاك أن لا يخاف، كذلك أيضاً ولا هذا، لأنه لا يعرف من أي بلد وفي أي وقت يخرجون عليه بغتة ويُجردونه من جميع ماله ثم يُسلب في باب داره، الذي هو زمان الشيخوخة ([1]).

◈ وقال الأنبا موسى الأسود:

- ✚ لنرفض شرف العالم وكراماته لنتخلص من المجد الباطل.
- ✚ لا تهتم بشئون العالم كأنها غاية أمَلِّك في هذه الحياة، وذلك لتستطيع أن تخلص.
- ✚ لا يكن لك رجاء في هذا العالم لئلا يضعف رجاؤك في الرب.
- ✚ ابغض كلام العالم كي تبصر الله بقلبك، لأن الذي يخلط

([1]) بستان الرهبان ص ٢٠٢.

حديثه بحديث أهل العالم يُزعج قلبه.

+ محبة أهل العالم تُظلم النفس والابتعاد عنهم يُزيد المعرفة.

+ الذي يُريد إدراك الكرامة الحقيقية عليه ألا يهتم بأحد من الناس ولا يدينه، وكلما يُصلي تنكشف له الأمور التي تُقربه من الله فيطلبها منه، ويبغض هذا العالم، هكذا فإن نعمة الله تهب له كل صلاح.

+ إن الإنسان الذي يهرب من العالم يشبه العنب الناضج، أما الذي يعيش بين مباهج أهل العالم فإنه يشبه العنب الحصرم ([1]).

+ كان أخ مسرعاً في الذهاب إلى المدينة، فلما سأل شيخاً مشورة صالحة قال له الشيخ لا تسارع في الذهاب إلى المدينة، ولكن اهرب من المدينة بسرعة ([2]).

◆ قال البار إشعياء بصدد الابتعاد عن العالم:([3])

" أني في بعض الأوقات كنت جالساً بقرب القديس مكاريوس الكبير حين تقدم إليه رهبان من الإسكندرية ليمتحنوه

([1]) بستان الرهبان ص ٢٢٧.

([2]) بستان الرهبان ص ٢٢٧.

([3]) بستان الرهبان ص٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠

قائلين" " قل لنا كيف نخلص؟ ".

فأخذت أنا دفتراً وجلست بمعزل عنهم لأكتب ما يتحاورون به، أما الشيخ فأنه تنهد وقال : كل واحد منا يعرف كيف يخلص، ولكننا لا نريد الخلاص. فأجابوه كثيراً ما أردنا الخلاص، إلا أن الأفكار الخبيثة لا تفارقنا فماذا نعمل؟.

فأجابهم الشيخ: إن كنتم رهباناً، فلماذا تطوفون مثل العلمانيين. **أن الذي قد هجر العالم ولبس الزي الرهباني وهو وسط العالم، فهو لنفسه يخادع**، فمن كانت هذه حاله، فقد صار تعبه باطلاً، لأنهم ماذا يربحون من العلمانيين سوى نياح الجسد، **وحيث نياح الجسد لا يوجد خوف الله**، لا سيما إن كان راهباً ممن يدعون متوحدين، لأنه ما دُعي متوحداً إلا لكي ينفرد ليله ونهاره لمناجاة الله. أما الراهب المتصرف بين العلمانيين فهذه تصرفاته:

قبل كل شيء تكون فاتحة أمره أنه يضبط لسانه ويصوم، ويذلل نفسه إلى أن يعرف ويخرج خبره ويقال عنه: الراهب الفلاني هو عبد الله، وسرعان ما يسوق إبليس إليه من يُحضر له حوائجه من خمر وزيت وثياب ودراهم وكل الأصناف، ويدعونه " القديس، القديس ".

فبدلاً من أن يهرب من السبح الباطل الناتج عن قولهم لـه " القديس " يتعجرف الراهب المسكين، ويبـدأ في مجالـستهم، فيأكل ويشرب معهم، ويستريح براحتهم، ثم يقوم في الـصلاة ويعلي صوته حتى يقول العلمانيون أن الراهب يصلي سـاهراً، وكلما زادوه مديحاً، زاد هو كبرياء وعجرفة. فإن كلّمه أحـد بكلمة حسنة جاوبه حسناً.

ثم يكثر نظره إلى العلمانيين ليلاً ونهاراً ويرشقه إبليس بسهام النساء، ونشاب الصبيان، ويلقيه في اهتمامات عالميـة ويقلـق ويزعج كما قال الرب: إن كل من ينظر إلى امرأة نظرة شهوة فقد أكمل زناه بها في قلبه. وإن كان ينظر إلى هذا القول علـى اعتبار أنه خرافة، فليسمع قول الرب قائلاً له إن السماء والأرض تزولان وكلامي لا يزول.

وبعد ذلك يبدأ في حشد حاجته لسنته، بل يجمعها مضاعفة، ويبدأ كذلك في جمع الذهب والفضة، ويلقيه الشيطان في هـوة حب المال، فإن أحضر له إنسان شيئاً يسيراً أشاح بوجهه عنـه ولا يقبله كأنه لم يأخذ شيئاً، أما إن أحضر له إنسان ذهبـاً أو فضة أو ملبوسات أو غير ذلك مما يرضاه، فللوقت يقبله بفـرح ويعد المائدة الحسنة ويبدأ يأكل. أما البائس، لا بـل المـسيح،

فيتلوى جوعاً، ولا يفهمه أحد. لهؤلاء قال سيدنا المـسيح " إن دخول الجمل في ثقب إبرة، أيسر من دخول غني إلى ملكـوت الله ".

قولوا لي يا آبائي: هل الملائكة في السماء تجمع ذهباً وفضة وتسجد لله؟ فنحن يا إخوتي عندما لبسنا هذا الـزي، أتـرى لنجمع مقتنيات وحطاماً، أم لنصير ملائكة؟ **فإذا كنا يا إخوتي قد هجرنا العالم ورفضناه، فلماذا نتراخى أيضاً ويردنا إبليس عن طريق المسكنة**، أمَا فهمتم أن الخمر ونظر النساء والـذهب والفضة والنياح الجسدي وقربنا من العلمانيين، هذه كلها تبعدنا من الله، لأن أصل الشرور كلها محبة الفضة، **وبمقدار مـا بـين السماء والأرض من البعد، هكذا بين الراهب المحب للفـضة وبين مجد الله.**

نعم لا توجد رذيلة أشر من رذيلة الراهب المحب للفضة. **إن الراهب الذي يجالس العلمانيين يحتاج إلى صلوات قديـسين كثيرين**، أما سمعت قول الرسول يوحنا: " لا تحبوا العـالم ولا شيئاً مما في العالم فمن أحب العالم، فليست فيه محبة الله " كذلك الرسول يعقوب يقول أيضاً " من أراد أن يكون خليلاً للعالم فقد صار عدواً لله ".

فلنفر نحن أيها الإخوة من العالم كما نفر من الحيـــة، لأن الحية إذا نهشت فبالكاد تبرأ عضتها، كذلك نحن أيضاً إن شـــئنا أن نكون رهباناً فلنهرب من العالم، لأن الأوفق لنا أيها الإخوة أن تكون لنا حرب واحدة بدلاً من قتالات كثيرة.

قولوا لي يا إخوتي ويا آبائي، في أي موضع اقـــتنى آباؤنـــا الفضائل، أفي العالم أم في البراري؟ إذن، كيف تُقتنى الفـــضائل ونحن في العالم، لن نستطيع ذلك ما لم نجع وما لم نعطش وما لم نساكن الوحوش ونموت بالجسد، كيف نريد أن نرث ملكوت السموات ونحن بين العالم؟ لننظر إلى ممالك الأرض فأنه مـــا لم يحارب الجندي ويغلب فلن ينال الرتبة، فكم وكم أحرى بنا أن نفعل ذلك. فلا نظن أننا نرث ملكوت السموات ونحـــن بـــين العالم فلا يوسوس لنا الشيطان أفكاراً ردية هكذا قائلاً: اجمـــع حتى تستطيع أن تعمل صدقة. **لنعلم أن من لم يشأ أن يـــصنع رحمة من فلس واحد فلن يعمل رحمة من ألف دينار.**

لا يليق بنا أن نفعل ذلك يا إخوتي، لأن هذه الأمور هي من عمل العلمانيين، أن الله لا يريدنا نحن الرهبان أن نقتني ذهبـــاً أو فضة أو ملابس أو أموراً هيولية لأن الرب أوصى قائلاً " أنظروا إلى طيور السماء فإنها لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن في الأهراء،

وأبوكم السماوي يقوتها "، أن الراهب المقتني ذهباً وفضة لا يثق بأن الله قادر على أن يعوله، وإن كان لا يعوله فلن يعطيه مُلكه.

إن الراهب الذي عنده حاجته وينتظر من يحضر لـــه، هـــو شريك ليوداس الذي ترك النعمة وسعى طالباً محبة الفضة.

وبولس الرسول إذ عرف ذلك، لم يدع محبة الفضة أصـــل كل الشرور فحسب، بل وسماها أيضاً عبادة أوثان، فالراهـــب المحب للفضة هو عابد للأوثان. إن الراهب المحب للفضة بعيد عن محبة المسيح، الراهب الذي له في قلايته فضة فأنه يعبد ويـــسجد للأصنام المنقوشة، أعني الدنانير. وكل يوم يذبح لهـــا عجـــولاً وكباشاً، بإخضاع نيته وإرادته لمحبة الفضة الردية، تلـــك الـــتي تفصل الراهب عن طغمات الملائكة، **فيا لمحبة الفضة المرة، أصل كل الشرور، الفاصلة للراهب من مَلك السموات، والباعثـــة إياه إلى التعلق بسلاطين الأرض.** فيا لمحبة الفضة ســـبب كـــل الرذائل، الساحبة للسان الراهب المحب للفضة، لأنه قد تخلى عن الوصية القائلة " لا تكتروا لكم ذهباً ولا فضة ".

وقد يزعم ذلك الراهب المـــسكين قـــائلاً: إن الاقتنـــاء لا يضرني، وهو لا يعلم أنه حيث الذهب والفـــضة والهيوليـــات، فهناك دالة الشياطين وهلاك النفوس، والويل المؤبد. كيف يدخل

التخشيع في نفس إنسان مقتن للفضة، وقد حاد عن مصدر دعوته إلى الحياة الدهرية، نحو خالقه ورازقه، وصار بذلك متعبداً وساجداً لمنحوتات غير متحركة: أعني الدنانير، كيف يقتنى الخشوع مَنْ هذه صفته؟

يا إخوتي، ويا أحبائي كيف يكون لنا نحن الرهبان ذهب وفضة وملابس ولا نكف كذلك عن الجمع، مع أن البائس، لا بل المسيح، جائع وعطشان وعريان، ولا نفكر فيه؟ وماذا يكون جوابنا أمام السيد المسيح وقد هجرنا العالم، وها نحن نعاود الطواف فيه؟

إن طقسنا ملائكي لكننا جعلناه علمانياً، لا يكون هذا منا يا إخوتي. إيانا أن نعمله بل لنهرب من العالم، لأنه إن كنا بالكاد نخلص في البرية، فكيف يكون حالنا بين العلمانيين؟ فلن يكون لنا خلاص، ولا سيما والرب يقول " من لا يهجر العالم وكل ما فيه وينكر نفسه ويأخذ الصليب ويتبعني فلن يستحقني"، وأيضاً يقول " أخرجوا من بينهم وافترقوا عنهم وأنا أقبلكم وأجعلكم لي بنين وبنات ". (٢كو ٦: ١٧، ١٨)

أرأيتم عظيم المنفعة من الهروب من العالم، لأنه نافع لنا جداً وموافق، لأن مجالس العلمانيين ليس فيها شيء سوى البيع

والشراء وما يتعلق بالنساء والأولاد والزرع والدواب، فهذه المخالطة تُفصل الراهب عن الله، فمؤاكلتهم ومشاربتهم تجلب الكثير من الضرر. **ولسنا نعني بهذا أن العلمانيين أنجاس، معاذ الله، لكنهم يسلكون في الخلاص طريقاً آخر غير طريقنا،** فهروبنا هو هروب من مخالطتهم. فلنطلب سبهم فينا أكثر من مديحهم لنا، لأن سبهم لن يفقدنا شيئاً أما مدحهم فهو سبب عقوبتنا، فما منفعتي إذا أنا أرضيت الناس وأغضبت ربي وإلهي أنه يقول " لو كنت أرضي الناس فلست عبداً للمسيح ".

إذن فلنبتهل أمام ربنا قائلين يا يسوع إلهنا نحنا وأنقذنا من مخالطتهم.

ثانياً: تأثير الجو الروحي في الحياة الرهبانية

لمسنا سابقاً ما مدى تأثير العالم (المؤثرات العالمية) على النفس البشرية، ومدى الإفساد الذي تسببه لها، وكم تكون معطلة لكل نفس تسعى في طلب الله. ولهذا أردنا أن ندخل بك إلى البرية حيث يعيش الرهبان فيها، لترى مدى تأثرهم ونموهم في علاقتهم مع الله، من جراء الجو المقدس الذي يعيشون فيه.

(أ) سُكنى البرية:

الحياة في البرية جذبت إليها كثيراً من الرهبان، لأنهم وجدوا فيها ضالتهم التي ينشدونها أنها أكبر مشجع يؤثر على حياة الراهب الذي يطلب الله بصدق.

١ – إن أول ما تؤثر فيه البرية على حياة الراهب، هي إماتة كل شهوة من قلبه، كما **قال مار إسحاق** " إن مجرد النظر إلى البرية (القفر)، يُميت من النفس الحركات العالمية ويحميها من تواتر الأفكار، وإذا ماتت من النفس الحركات والشهوات العالمية، يبدأ يدب فيها الاشتياق إلى الله، ومحاولة التعرف عليه عن قرب واختباره طمعاً في الوصول إليه والاتحاد به. فكما أن النار التي لا يمدها أحد بالوقود تنطفيء، هكذا قلب الراهب الذي يسكن في البرية، تنطفيء من قلبه الحركات الشهوانية، لأنه لا يوجد في البرية ما يثير شهواته. ولذلك سعى آباؤنا الرهبان إلى البرية، حباً في الله وسعياً نحو الطهارة.

ونرى هذا في قصة القديس الأنبا أنطونيوس " في بداية حياته الرهبانية عندما سار حتى وصل إلى شاطيء النهر، حيث وجد هناك جميزة كبيرة فسكن هناك، ولازم النسك

العظيم والصوم الطويل، وكان بالقرب من هذا الموضع قوم من العرب، فاتفق في يوم من الأيام أن امرأة من العرب نزلت مع جواريها إلى النهر لتغسل رجليها، ورفعت ثيابها وجواريها كذلك، فلما رأى القديس أنطونيوس ذلك حَوَّل نظره عنهن وقتاً ما، ظناً منه أنهن يمضين. ولكنهن بدأن في الاستحمام في النهر، فما كان من القديس أن قال لها: يا امرأة أما تستحين مني وأنا رجل راهب؟ أما هي فأجابت قائلة له: أصمت يا إنسان، من أين لك أن تدعو نفسك راهباً؟ لو كنت راهباً لسكنت البرية الداخلية، لأن هذا المكان لا يصلح لسكنى الرهبان. فلما سمع أنطونيوس هذا الكلام، لم يرد عليها جواباً .... فقال في نفسه، ليس هذا الكلام من هذه المرأة، لكنه صوت ملاك الرب يوبخني، وللوقت ترك الموضع وهرب إلى البرية الداخلية وأقام بها متوحداً، لأنه ما كان في هذا الموضع أحد غيره في ذلك الوقت (١).

٢ – كما أن سكون البرية من أي تحركات بها كتحرك السيارات والأشجار والناس ... يؤدي إلى سكون الحواس

---

(١) بستان الرهبان ص٥، ٦.

وبالتالي إلى سكون القلب. كما **قال الشيخ الروحاني** " سكت فمك ليتكلم قلبك، وسكت قلبك ليتكلم الله ".

٣ – واتساع البرية نحو الأفق يخلق في الراهب قلباً متسعاً للجميع، يحتمل ضعفات الكل، ويحب الكل، ويسامح الكل، ويرحم الكل، إذ عندما ينظر إلى البرية، يتذكر مراحم الله التي لا حدود لها، التي هي أكثر من رمل البحر وأكثر من عدد النجوم والجبال وكل التخوم.

٤ – إن طبيعة البرية لا يبدو عليها أي مظاهر للحياة، إنما شبح الموت يُخيم عليها، وهذا يضفي موتاً داخل قلب الراهب، من نحو أي شيء مادي أو دنيوي، مما يجعل حياته أرضاً جيدة مهيأة لنمو الفضيلة، ولإيجاد علاقة روحية قوية بالله.

وبالرغم من أن البرية عادمة الحياة، إلا أن سُكنى الرهبان فيها أعطتها حياة، من الحياة التي استمدوها من عشرتهم مع الله.

٥ – كما أن طبيعة أرض البرية الصلبة، تخلق في قلب الراهب القوة والشجاعة في حياته، بل والصلابة في جهاده داخل قلايته، وأيضاً في حروبه ضد قوات الشر المتنوعة والشرسة.

٦ – كذلك خلو البرية من أي شيء مثل المباني والزراعات والمحلات التجارية والناس والحيوانات ... تدفع الراهب أن يعيش حياة التجرد والفقر الاختياري من أي متعلقات عالمية، كما تُحرك فيه عدم الرغبة أو عدم اشتهاء امتلاك الأراضي أو المزارع أو المحلات أو المباني ...

٧ – بل أكثر ما تضفيه البرية على حياة الراهب، هو الشعور بالغربة في هذا العالم، وهذا ما شعر به أبونا إبراهيم، حينما دعاه الرب قائلاً له أخرج من أرضك ومن عشيرتك وبيت أبيك، إلى الأرض التي أريك إياها، فخرج وهو لا يعلم إلى أين يذهب. بعد ذلك ذهب إلى حاران وتغرب هناك، ومن بعدها ذهب ليتغرب في أرض كنعان، وهكذا عاش أبونا إبراهيم، غريباً ساكناً في خيام، ولم يمتلك سوى مغارة المكفيلة ليدفن فيها سارة امرأته " (تك ٢٣). وقال عنه بولس الرسول في الرسالة إلى العبرانيين " بالإيمان إبراهيم لما دُعي أطاع أن يخرج إلى المكان الذي كان عتيداً أن يأخذه ميراثاً، فخرج وهو لا يعلم إلى أين يأتي. بالإيمان تغرب في أرض الموعد كأنها غريبة ساكناً في خيام مع إسحاق ويعقوب الوارثين معه لهذا الموعد عينه، لأنه كان

ينتظر المدينة التي لها الأساسات التي صانعها وبارئها الله (عب ١١: ٨ – ١٠).

وهكذا سلك في الغربة، موسى النبي وغيره ممن أقروا بأنهم غرباء ونزلاء على الأرض، لأنهم كانوا يبتغون وطناً أفضل أي سمائياً. لذلك لا يستحي بهم الله أن يُدعى إلههم، لأنه أعد لهم مدينة.

بهذا الفكر يعيش الراهب في البرية داخل الدير، فهو لا يملك أي شيء داخل قلايته، حتى ما يرقد عليه، وما يأكل فيه وما يشرب به ولا كتبه، حتى نفسه التي وهبها للمسيح. إن حياة الراهب في البرية، تغرس فيه هذا الشعور، وتجعله دائماً ينظر إلى وطنه السماوي.

٨ – ولأن البرية تبعد كثيراً عن العالم، فالراهب الذي يعيش فيها، يتولد داخل قلبه حياة التسليم والإيمان القوي بالله، فهو لا يعتمد على العون في أي شيء من أهل العالم، بل على الله الذي يعول كل الخليقة، حتى طيور السماء التي لا تزرع ولا تحصد (مت ٦). فكم بالأحرى خليقته التي صنعتها يداه.

وبستان الرهبان يحكي لنا قصة عن أحد الرهبان يذكر عن راهب إنه كان كثير الرحمة، وكان بالبلاد غلاء شديد، لكن قلبه لم يتحول عن فعل الرحمة، حتى فقد كل شيء له ولم يتبق لديه إلا ثلاث خبزات. وأراد الله امتحانه، فلما جاء ليأكل قرع سائل بابه فقال لنفسه: أجدر بي أن أظل جائعاً ولا أن أرد أخ المسيح بدون طعام في هذا الغلاء العظيم، فأخرج خبزتين له وأبقى لنفسه خبزة واحدة. وقام يصلي وجلس ليأكل، وإذا بسائل آخر يقرع الباب، فانتابته أفكار تضايقه من أجل الجوع الذي يعتريه، ولكنه رفضها بشدة. وأخذ الخبزة وأعطاها للسائل قائلاً: أنا أؤمن بالمسيح ربي، أني إذا أطعمت عبده في مثل هذا الوقت الصعب فإنه يطعمني هو من خيراته التي لم ترها عين، التي أعدها لصانعي إرادته. ورقد جائعاً، وبقى هكذا ثلاثة أيام لم يذق شيئاً وهو يشكر الله. وبينما كان يصنع خدمة الليل جاءه صوت من السماء يقول له " لأجل أنك أكملت وصيتي، وغفلت عن نفسك وأطعمت أخاك الجائع، لا يكون في أيامك غلاء على الأرض كلها ". فلما أشرق النور وجد على الباب جمالاً

محملة بخيرات كثيرة، فمجد الله وشكر الرب يسوع المسيح. ومن ذلك اليوم عمَّ الرخاء الأرض كلها.(١).

٩ – وحينما يخطو الراهب بقدميه على البرية، برمالها الصفراء التي تشبه لون الذهب، يُخيل إليه وكأنه يخطو على الذهب، ويطأ بقدميه على أموال العالم وذهبه ومجده، إلى أن يعبر إلى مدينة الله.

(ب) الغيرة المقدسة

إن كان الكتاب المقدس يحذر المؤمنين من الغيرة ممن يسلكون حسب الجسد، إلا أنه يمتدح الغيرة المقدسة في الأعمال الصالحة قائلاً " حسنة هي الغيرة في الحسنى " (غل ٤: ١٨)، ويقول بولس الرسول " كونوا متمثلين بي كما أنا أيضاً بالمسيح" (١كو ١١: ١)، وقال أيضاً " و لنلاحظ بعضنا بعضا للتحريض على المحبة والأعمال الحسنة " (عب ١٠: ٢٤).

والإنسان الذي يعيش مع الله وهو في العالم، يجد نفسه في خطر من الانحراف إلى الحياة العالمية، التي يحياها أغلب الناس من حوله. فهم يسعون لادخار المال بجشع شديد، والبعض منهم يجري وراء إشباع شهواته، والآخر منهم يحاول إشباع ذاته

(١) بستان الرهبان ص٤٨٢.

بطرق خاطئة .... إنه حينما يراهم، تدخله الغيرة الخاطئة، فينحرف ليصبح مثلهم، دون أن يشعر بذلك.

أما الحياة في البرية، فتختلف كليةً عن الحياة في العالم. فالرهبان الذين يعيشون في الأديرة، يجاهدون بشدة وبلا توقف في الصلاة والدموع والتسبيح وقراءة الكتاب المقدس والكتب الروحية والميطانيات والأصوام والقداسات ... جميعهم يعيشون في جو روحي مقدس وطاهر. كل منهم يرى الآخر، فتدخله الغيرة المقدسة، فيلتهب شوقاً نحو الوصول إلى ما وصل إليه أخوه، فيجاهد بقوة ونشاط حتى يصل مثلهم.

فمنذ أن يدخل الأخ إلى الدير، ويبدأ فترة الاختبار، يرى أمامه نماذج من الآباء الشيوخ، يجاهدون بقوة ويعيشون الفضيلة، ولم يشغلهم سوى خلاص أنفسهم، تدخله الغيرة المقدسة، محاولاً أن يتمثل بهم. فيبدأ هو الآخر في جهاد ونشاط مثلهم حتى يعطيه الرب كما أعطى آباءه من قبل. حتى إن مرت على أي راهب، فترات ضعف أو فتور روحي أو توان في حياته، فلن تمر عليه ساعات أو أيام قليلة، إلا ويرجع إلى جهاده مرة أخرى، فإن رؤيته لآبائه وإخوته الرهبان من حوله، تشعل فيه الغيرة

المقدسة إذ أنه حينما يقارن ذاته بإخوته الرهبان يشعر بالنقص والفتور.

إن الحياة في الدير، تحث على الصعود إلى الله، فكل راهب يرفع أخاه إلى أعلى دون أن يدري بذلك، وكأنه يقول مع عروس النشيد " اجذبني وراءك فنجري " (نش ١: ٤). إن توهج نار الحب الإلهي، المشتعلة في قلوب الآباء الرهبان، قادرة على إشعال أي فتيلة مدخنة أو منطفئة لراهب بينهم، ولهذا حرص الآباء على ذلك في أقوالهم (١).

❖ قال الأنبا باخوميوس:

إذا ضعفت عن أن تكون غنياً بالله، فالتصق بمن يكون غنياً به، لتسعد بسعادته، وتتعلم كيف تمشي حسب أوامر الإنجيل. إذا أحببت الأطهار، فأنهم يكونون لك أصدقاء، ومعهم تصل إلى مدينة الله المملوءة نوراً.

❖ وقال شيخ:

إذا أقام راهب عمَّال في موضع مع رهبان غير عمَّالين، فإنه لا يفلح إلا إذا ضبط نفسه، و لم يرجع إلى الوراء، ويكون بذلك

(١) بستان الرهبان ص٢٣٧.

مستحقاً جزاءً صالحاً. أما الراهب البطال الذي يقيم بين مجاهدين، فإن انتبه، فإنه يمشي إلى قدام ولن يرجع إلى وراء.

❖ وقال آخر:

من اجتمع بإخوة عمَّالين، فلو كان غير عمَّال، فإن لم يتقدم إلى قدام، فلن يتأخر إلى وراء. كذلك من يجتمع بإخوة متهاونين، فلو كان عمَّالاً فإن لم يخسر فلن يربح. الساقط فلينهض لئلا يهلك، والقائم فليتحفظ لئلا يسقط.

❖ وقال شيخ:

إذ أنت مشيت مع رفيق صالح من قلايتك إلى الكنيسة، فإنه يقدمك ستة أشهر، وإذ أنت مشيت مع رفيق رديء من قلايتك إلى الكنيسة فهو يؤخرك سنة.

(ج) النظر في وجوه الشيوخ:

لا ينكر أحد، أن الدير الخالي من الآباء الشيوخ، هو دير عقيم، كما يقول الآباء. فوجود الآباء الشيوخ في الدير يضفي عليه جواً روحانياً، ويحس بذلك كل من دخل إليه. ولذلك فالدير الخالي من الآباء الشيوخ هو دير يفتقر إلى الروحانية، وإلى الحنكة الرهبانية التي اكتسبها الآباء الشيوخ طوال حياتهم الرهبانية التي عاشوها في علاقة حية قوية مع الله. كما أن الدير

الخالي من الآباء الشيوخ، يفتقر إلى القدوة الرهبانية الحية المتجسدة فيهم. ولذلك فوجود الآباء الشيوخ في الدير، صمام أمان للإخوة طالبي الرهبنة، والرهبان المبتدئين الذين غالباً ما يتعرضون إلى أنواع حروب متعددة، ومضايقات من عدو الخير، وأيضاً كثيراً ما يتعرضون لشكوك وقلاقل في بداية حياتهم الرهبانية، وهم في هذه الأوقات العصيبة التي تمر عليهم، يصبحون في أشد الاحتياج إلى مؤازرة الآباء الشيوخ ومساعدتهم بالنصائح والصلوات حتى تمر هذه الفترة بسلام.

بل أن الرهبان المبتدئين في الحياة الرهبانية، حينما يرون الشيوخ الذين قضوا في الدير ما يزيد عن ٤٠ و٥٠ سنة في ثبات، تتشدد عزائمهم وتقوى. وحينما يرون اتضاعهم وبساطتهم، تسلم نفوسهم من ضربات الكبرياء والعجب الباطل الذي يشنه عدو الخير عليهم.

وأكثر من كل هذا، أن مجرد النظر إلى وجوه الآباء الشيوخ، الممتلئة فرحاً وسلاماً وطهراً وعفة وقداسة ومحبة واتضاعاً وهدوءاً، تكفي أن تعكس هذا الفرح والسلام والطهارة والهدوء إلى قلب الراهب المبتديء. ولهذا لم يكن الآباء الشيوخ يتكلمون كثيراً مع تلاميذهم، بقدر ما كانوا يعملون أمامهم ليعملوا مثلهم

أو كانوا يقولون " أنظر ما أفعله واعمل مثله " ويذكر بستان الرهبان عن ثلاثة شيوخ كانت لهم عادة في كل سنة أن يمضوا إلى الأنبا أنطونيوس، فكان اثنان منهم يسألانه عن الأفكار وعن خلاص نفسيهما، أما الثالث فلم يسأله زمانه كله عن شيء البتة. وبعد زمان طويل قال له الطوباوي: هذا الزمان كله تجيء عندي وما سألتني عن شيء. أما هو فقال له يكفيني نظري إلى وجهك يا أبي (١).

إن رؤية ثبات الآباء الشيوخ في الدير، وعدم ميلهم للنزول إلى العالم والخلطة بالعلمانيين، يُشجع أولادهم الرهبان على الثبات في الدير وعدم الميل للنزول إلى العالم، وعدم الخلطة بالعلمانيين.

ورؤية ثبات الآباء الشيوخ في قلاليهم مدة طويلة، دون أن يخرجوا منها، يشجع الرهبان على محبة الجلوس في القلاية، والثبات فيها مدة طويلة.

كلما زاد الآباء الشيوخ في الدير، كلما زاد ثقل الدير مجداً. بل أن وجود واحد أو اثنين من الشيوخ في الدير، يعطي للدير وزناً أكثر من مائة راهب مبتديء.

---

(١) بستان الرهبان ص٣٩٩.

إن سمات السيد المسيح ارتسمت على وجوه الآباء الشيوخ. بسبب طول السنين التي عاشوها معه. إنهم يشبهون موسى النبي الذي أصبح جلد وجهه يلمع من طول المدة التي قضاها مع الله على الجبل، فكان يضع برقعاً حينما يتكلم مع الشعب، لأنهم لم يستطيعوا النظر إلى وجهه (خر ٣٤: ٢٩ – ٣٥).

(د) عدم وجود معطلات:

إن طبيعة الحياة الديرية، تُفسح للراهب أن يملأ كل وقته بالعمل الروحي المقدس، لأنها تخلو من المعطلات الكثيرة التي تشغل الذين يعيشون في العالم، كالتليفزيون والكمبيوتر والانترنت، الذي أصبح يستحوذ على وقت وعقول الكثيرين، وهناك أيضاً الأصدقاء والمجاملات والأحاديث الغير بناءة التي تضيع الوقت، إلى جانب الأسرة وما تحتاجه من مصاريف يلتزم بإيجادها مما يلزمه العمل نهاراً وليلاً. هذا بالإضافة إلى ما يتعرض له من مضايقات واضطهادات وتحزبات في العمل. كل هذه المعطلات التي تستحوذ على فكر ومشاعر الذين يعيشون في العالم، يتحرر منها الراهب الذي ترك العالم وذهب ليعيش في البرية، في جو روحي مقدس وطاهر، تنمو فيه علاقته مع الله.

(٦)

بركات السكون في الحياة الرهبانية

أولاً: حياة السكون

(١) ما هو السكون؟

(٢) البحث عن مكان السكون

(٣) تفاوت السكون

ثانياً: بركات حياة السكون

(١) سكون الجسد (سكون القلاية)

(٢) سكون الحواس

(٣) سكون الفكر (العقل)

(٤) سكون القلب (المشاعر الداخلية)

أولاً: حياة السكون

(١) ما هو السكون:

سأل أخ **الأب روفس:** ما هو السكون؟ فأجابه الشيخ قائلاً: هو الجلوس في القلاية بمعرفة ومخافة الله، والامتناع عن ذكر كل شر، والمداومة على حفظ ذلك يلد التواضع وتحفظ الرهبان من العدو. (١).

ويقول الأنبا إشعياء: من يريد أن يلازم السكون من غير أن يقطع علل الأوجاع فهو أعمى (٢).

فإن كان السكون في مظهره الخارجي، سكون الفكر والقلب والحواس عن الاهتمام بالأوجاع والطياشة، فإن جوهره حركة الفكر والقلب والحواس بالهذيذ في الله. ولذلك **قال مار إسحاق:** السكون يجعلك في عشرة مع الله (٣).

وقال أيضاً: الذي يحب الحديث مع المسيح يجب أن يكون وحده، والذي يريد أن يكون مع كثيرين فهو محب لهذا العالم (٤).

---

(١) بستان الرهبان ص٣٩٢.
(٢) بستان الرهبان ص١٥٢.
(٣) بستان الرهبان ص٤٠٣.
(٤) بستان الرهبان ص٤٠٣.

وقال الأنبا إشعياء: مُنْ هو في السكوت فهو محتاج إلى هذه الثلاث خصال؛ خوف الله، صلاة دائمة، لا يدع قلبه يُسبى بأمر ما.

مَنْ هو في السكون ينبغي له أن يجعل خوف ملاقاة الله متقدماً كل نَفَس من أنفاسه. والسكون يجلب النوح (١).

ومع أن السكون في مظهره الخارجي، كسكون الفكر والقلب والحواس عن الاهتمام بالأوجاع والطياشة، عمل سلبي. لكن له أهمية كبيرة لأنه يساعد الراهب على الدخول في جوهر السكون الذي هو العمل الإيجابي، أي حركة الفكر والقلب والحواس بالهذيذ في الله.

(٢) البحث عن مكان السكون:

يبحث الكثيرون عن السكون في العالم، ولكنهم بعد عناء شديد لا يجدونه، وعندما تخطو أقدامهم الدير يشعرون بالسكون فيقرون أنهم لم يجدوا مثل هذا السكون في العالم. وحينما يسمع الراهب هذا التصريح منهم، يقدم الشكر الجزيل لله الذي منحه بركة السكون بسكناه في الدير، بعيداً عن ضجيج العالم وصخبه الذي يزعج القلب والفكر والنفس وجميع الحواس.

---

(١) بستان الرهبان ص١٥٢.

وبالمثل حينما يترل الراهب العالم لقضاء أمر ضروري كالعلاج أو للخدمة ... يشعر باضطراب وقلق شديد بسبب ازدحام الشوارع والمواصلات والأصوات العالية ... وإن حاول البحث عن مكان هادىء يجلس فيه بسكون، لن يجد إطلاقاً، إلا عندما يخطو نحو البرية. ويزداد السكون أكثر كلما اقترب من الدير. وهنا تكون الحقيقة التي يعلمها كل راهب، وهي **أن حياة السكون لن تكون إلا في البرية بعيداً عن ضجيج العالم وصخبه** ولذا حذر آباء الرهبنة الأول من كثرة نزول الراهب إلى العالم والخلطة بالعلمانيين، حتى لا يفقد سكونه ورهبانيته ورويداً رويداً يتحول إلى شخص علماني في زي راهب.

ولذلك **قال الأنبا أنطونيوس** لأولاده الرهبان: الذي يجلس في البرية (القلاية) يخلص من ثلاثة حروب، النظر والسمع والكلام. ويبقى له حرب القلب فقط ([1]).

وقال شيخ آخر: إن الراهب إذا أبطأ في المدن، فمن النظر والكلام يتلف ما كان اقتناه بتعب كثير في الهدوء (السكون)، وينسى الفضائل ويرتخي ويحب الراحة والشهوة ويتسجس من

([1]) كتاب " سأل أب شيخاً " ص٦٢.

جميع الحواس، من النظر والسمع والشم والذوق واللمس، وربما وقع في الزنا وبقية الأوجاع ([1]).

وسأل أخ شيئاً قائلاً: لماذا قال بعض الشيوخ، أن الذي هو في العالم مع الناس لا يُبصر خطاياه، إلا إن كان في السكون وفي البرية؟

أجاب الشيخ: من أجل سجس ودهشة العالم، ما يتفرغ للنظر في خطاياه. كما قال أحد الشيوخ للأخين اللذين كان أحدهما يخدم المرضى والآخر يُصلح بين الناس، ولما أن ملاً وتكاسلا، أن الذي في العالم ويعمل فضائل، من أجل سجسه لا يبصر خطاياه، فأما إذا صار في الهدوء فإنه يتفرغ لذلك، ويصل إلى طهارة القلب التي بها يعاين الله ([2]).

(٣) تفاوت السكون:

يتفاوت السكون بدرجات كبيرة، حسب المكان الذي يوجد فيه الشخص، فطبيعي أن تختلف درجة السكون التي توجد عند الشخص أو الراهب في العالم، عن درجة السكون التي توجد عند الراهب وهو في مجمع الدير، عنها وهو في الوحدة، في مغارة في الجبل أو يعيش حبس الأسابيع في قلايته.

([1]) كتاب سأل أب شيخاً ص٦٠.
([2]) كتاب سأل أب شيخاً ص٥٣.

وسوف نلاحظ هذا التفاوت الكبير في السكون، الموجود في العالم أو في مجمع الدير أو في الوحدة من خلال مقارنات بسيطة بينهما.

ما بين حياة السكون في العالم، والسكون في حياة راهب المجمع:

أي شخص يبحث عن السكون في العالم، يبحث عن شيء مفقود ونادر، فقلما يوجد السكون في وسط العالم، وإن وُجد فبصورة نادرة جداً، وفي أماكن محددة وقليلة. إذ كيف يحصل الإنسان على السكون وسط العالم المملوء بالأخبار المثيرة المحيطة به من كل ناحية، وكيف يحصل عليه وازدحام السكان والعربات والمواصلات أصبح في كل شبر على وجه الأرض، وكيف يجده وضروريات الحياة تحتم عليه العمل والحركة والكلام والسمع والتفكير والإحساس وتبادل المشاعر مع الآخرين ... وعلى ذلك أصبح مستحيلاً في هذه الأيام، أن يحصل الإنسان على السكون في العالم، حتى وإن استطاع استقطاع جزء من السكون في حياته، سيكون لفترات قليلة جداً، وعلى أوقات متباعدة عن بعضها.

ولهذا نجد كثيرين ممن يرغبون السكون، يذهبون إلى الأديرة حتى يتمتعوا بالسكون عدة أيام أو حتى ساعات قليلة، هرباً من ضجيج العالم.

حقيقة هناك فجوة كبيرة يشعر بها أي إنسان، بين السكون الذي في العالم والسكون الذي في البراري، حيث يسكن الرهبان في الأديرة. فعلى الرغم من أن الراهب الذي يعيش في المجمع الرهباني في الدير، يعيش مع إخوته الرهبان، وتجمعهم أسوار الدير أو العمل الذي أسند إليه من قبل المسئولين في الدير .. إلا أنه يتمتع بحياة السكون بنسبة تفوق بكثير عن السكون الذي في العالم. يكفي الراهب أن يخرج إلى البرية ليتمشى فيها وقت الغروب بعد الانتهاء من عمله، فتهدأ نفسه وتسكن مما لحقها من اضطراب أو إجهاد في العمل أو من أي شيء آخر أصابها، أو أنه يرى إخوته الرهبان الذين يعيشون في هدوء وسلام، فإن تقابل وتكلم معهم فسيكون في هدوء وسكون، وبطريقة هادئة. أذنه لن تسمع الضجيج، لأن إخوته الرهبان من حوله يتحركون بهدوء، ويتكلمون بأصوات هادئة في أحاديث مقدسة طاهرة حتى أنفه لا يستنشق سوى رائحة البخور المتصاعدة من الشورية، والهواء الذي يستنشقه، هواءً طاهراً مقدساً نقياً محملاً

بصلوات إخوته الرهبان القديسين الذين ملأوا الهواء تسبيحاً وصلاة وأحاديث روحية.

والسكون الذي شمل الأذن والعين واللسان والأنف ... يعطي سكوناً لفكره نتيجة لقلة المعرفة الخارجية التي تصل إليه من العالم. كما أن قلة العثرات الموجودة في الدير، وقلة المناظر والكلام المعثر، يمنح قلبه سكوناً، كما قال مار إسحاق مجرد النظر إلى البرية يُميت من القلب الحركات الشهوانية، لأنه حينما لا توجد رغبات للراهب، فحينئذ يوجد سكونٌ لقلبه. أما عن سكون الجسد، فطول المدة التي يقضيها الراهب في قلايته، يقتني بالتدرج سكون الجسد، بالإضافة لعدم ركوب سيارات والتنقل بها كثيراً، يساعده ذلك على سكون الجسد.

ما بين السكون في حياة راهب المجمع،
والسكون في حياة راهب الوحدة

كما أن هناك فجوة كبيرة بين السكون الذي في العالم، والسكون الذي في حياة راهب المجمع. كذلك يوجد فرق كبير أيضاً بين السكون الذي في حياة راهب المجمع، والسكون الذي في حياة راهب الوحدة، سواء كان الراهب متوحداً في مغارة

بالجبل أو في قلاية منفردة أو راهب حبيس في قلايته، لا يخرج منها بالأسابيع.

ولكن يلزم الراهب الذي يريد أن يعيش حياة السكون الكامل في الوحدة أن يتدرب ويتدرج أيضاً على حياة السكون وهو يعيش في مجمع الدير مع إخوته الرهبان، وعندما يتقن السكون وهو في مجمع الدير يسمح له أب اعترافه بعمل مغارة في الجبل ليعيش حياة السكون الكامل في الوحدة.

فإن كان الراهب الذي يعيش في المجمع الرهباني يتمتع بسكون نسبي، فهو في الوحدة يتمتع بسكون كامل، سكون في النظر والسمع والكلام والشم والجسد، وأيضاً سكون في الفكر والقلب والمشاعر ... وقد تكلم الآباء باستفاضة عن هذا السكون وخاصة مار إسحاق السرياني الذي أتقن حياة الوحدة والسكون، وكتب فيها كثيراً. ونشرت مجلة الكرازة عدة مقالات عن هذا الموضوع. وكتب **مار إسحاق** عن السكون قائلاً " أن الجوهر يُصان في الخزان، ونعيم الراهب يُصان في السكون والهدوء. إن العذراء لتتأذى بالمجامع والمحافل، كذلك فكر الراهب تضره المحادثة مع كثيرين والنظر إليهم. إن الطائر

يسارع إلى وكره بعيداً عن كل مكان وذلك ليفرخ، كذلك الراهب ذو الإفراز يبادر إلى قلايته ليصنع فيها ثمرة الحياة (١).

وحياة السكون تحتاج كأي فضيلة إلى الاستمرار والتدرج فيها حتى يصل الراهب في النهاية إلى السكون الكامل الذي تكلم عنه الآباء. فحينما يستمر الراهب في السكون تضعف الأوجاع، فتقوى الروح وتلتصق بقوة بالله. **فيقول أنبا يوحنا القصير:**

" كلما استمر السكون ضعفت الأوجاع. وكلما ضعفت الأوجاع قوى العقل قليلاً قليلاً، إلى أن يصح ويستريح، وحينئذ لا يذكر الإنسان أوجاعه وأحزانه السالفة، وذلك كما قال ربنا عن المرأة التي تلد. وإذا انعتق الإنسان من الأوجاع الشريرة التي كان يعانيها دائماً، فقد اعتق من الأحزان والآلام والأمراض العارضة كلها، تلك التي يُؤَدب بها الخطاة. وبدوام السكوت يُعتق من الأوجاع الذميمة، أما الذين يعوقونا من معرفة الله ويبعدوننا عن عمل الفضيلة فإنهم لا يلامون لأنهم لا يعرفون، أما

(١) بستان الرهبان ص٣٩٣.

نحن فإذ قد عرفنا ربحنا وخسارتنا ينبغي لنا أن نبتعد عنهم ونسكت لكي تحيا نفوسنا " (١).

إن حياة السكون التي يحياها الراهب في البرية، تفيض عليه ببركات كثيرة كالهدوء والفرح والسلام، وارتباطه الدائم بالله ووجوده المستمر أمام الحضرة الإلهية. إننا سوف نعرض هذه البركات مدعمة ببعض أقوال الآباء القديسين.

ثانياً: بركات حياة السكون

ليس الغرض من السكون سوى الوجود الدائم مع الله، أو بمعنى آخر، الوصول إلى التصاق الفكر والقلب وكل الوجدان الإنساني بالله. وهذه أعظم البركات التي يتمتع بها الراهب من حياة السكون ولكن هناك بركات أخرى كثيرة نوجزها في أربع نقاط:

(أ) سكون الجسد (سكون القلاية)

يميل الراهب في بداية حياته الرهبانية إلى الحركة الكثيرة، وذلك نظراً لما تعود عليه وهو في العالم قبل التحاقه بالدير وسيامته راهباً. فمثلاً وهو في العالم كان يذهب إلى عمله كل

(١) بستان الرهبان ص٤١٣، ٤١٤.

يوم، وغالباً ما يحتاج إلى مواصلات أو سيارة في ذهابه إليه، أو قد كان عمله يحتاج إلى حركة دائبة منه طوال فترة عمله. أو قد كان يستخدم يديه في الكتابة على الكمبيوتر .... كما يرجع نشاطه وحركته الكثيرة إلى دخوله الدير وهو في سن الشباب ومع هذا فإن تحركاته الكثيرة في بداية حياته الرهبانية، أقل بكثير جداً عما كان عليه وهو في العالم. وذلك لصغر مساحة الدير الذي يعيش فيه ولمحدودية من يتعامل معهم في الدير، وأيضاً لنوعية العمل الذي يقوم به في الدير والذي لا يحتاج منه إلى مجهود وحركة كثيرة. وهذا ما يساعده على السكون والجلوس في القلاية بعض الوقت، والذي من خلاله يبدأ في تكوين علاقة حب مع الله.

ومع مرور الأيام والسنين التي يقضيها الراهب في الدير، تقل حركته نظراً لكبر سنه، ويتبدل عمله الثقيل الذي كان يقوم به في بداية دخوله الدير، بأعمال أخرى خفيفة وسهلة، يستطيع من خلالها الجلوس في قلايته مدة أطول. وبمرور السنين تطول مدة جلوسه في القلاية بحيث لا يخرج منها إلا للضرورة القصوى. ثم بعد ذلك يدخل في درجات أعلى، فيحبس في قلايته يومين أو أكثر حسب إرشاد أب اعترافه، ثم يطول الحبس إلى أسبوع

أسبوع، وهكذا يتدرج في حبس القلاية إلى أن يجد نفسه لا يخرج منها إلا على فترات بعيدة جداً. كل هذا يساعده على البلوغ إلى سكون الجسد، ومنه يحصل للقلب القدرة على التكلم مع الله والدخول معه في علاقة حب تتأجج يوماً فيوماً كما قال شيخ " إذا كنت جالساً في القلاية نشط نفسك. لتكن خدمة القلب عندك أفضل من خدمة الجسد، لأن الله يريد القلب أن يكون ملازماً اسمه القدوس كل حين ([1]).

لذلك كان الآباء الرهبان يحثون أولادهم ويشجعونهم على سكون الجسد والجلوس في القلاية. فلما طلب أخ من الأب باريكوس أن يقول له كلمة، فأجابه " اجلس في قلايتك وإن جعت كُل، وإن عطشت اشرب، ومنها لا تخرج، ولا تتكلم بكلمة سوء، وأنت تخلص " ([2]).

وقال الأنبا أرسانيوس لأحد أولاده " امض كل واشرب وأرقد ولا تخرج من قلايتك " ([3]).

([1]) بستان الرهبان ص٤٠٨.

([2]) بستان الرهبان ص٤٠٩.

([3]) بستان الرهبان ص٤١٢.

وقال القديس مكاريوس لأحد أولاده الرهبان " يا أخي إن الجلوس في القلاية أفضل من افتقاد المرضى " (١).

وسأل أخ أنبا مكاريوس قائلاً: قل لي كلمة منفعة؟ قال له " اجلس في قلايتك، ولا تكن بينك وبين أحد خلطة، وأبك على خطاياك، وأنت تخلص (٢).

جاء أخ إلى **الأنبا موسى الأسود** في الإسقيط وطلب منه كلمة. فقال له الشيخ " امض واجلس في قلايتك وسوف تعلمك هي كل شيء " (٣).

وسأل أنبا إشعياء الأب مكاريوس قائلاً: " قل لي يا أبي كلمة "، فأجابه الشيخ اهرب من الناس ". فقال أنبا إشعياء : " وما هو الهروب من الناس " فأجابه الشيخ " هو جلوسك في قلايتك، وبكاؤك على خطاياك " (٤).

(١) بستان الرهبان ص٤١٣.
(٢) بستان الرهبان ص٤١٣.
(٣) بستان الرهبان ص٤١٣.
(٤) بستان الرهبان ص٤١٣.

وقال الأنبا أنطونيوس: " كما تموت السمكة إذا خرجت من الماء، هكذا يموت الراهب إذا مكث طويلاً خارج قلايته"(١).

وحرص الآباء على الثبات في القلاية وعدم الخروج منها لأي سبب أياً كان حتى لو هاجمت الراهب وضغطت عليه أفكار الضجر والملل، لأنهم يعلمون البركات التي ينالها الراهب من الجلوس في القلاية.

فيحكي لنا الرهبان عن راهب جلس في البرية صامتاً في قلايته، فضغط عليه الضجر وأقلقه الفكر وضيق عليه شديداً حاثاً إياه على الخروج منها، فقال في ذاته يا نفسي لا تضجري من الجلوس في القلاية، وإن كنت لا تعلمين شيئاً، فيكفيك هذا، **إنك لا تحزنين أحداً، ولا أحد يحزنك**، فاعرفي كم من الشرور خلصك الله، لأن في سكوتك وصلاتك لله تكونين بلا هم يشغلك ولا تتكلمين كلاماً باطلاً، ولا تسمعين ما لا ينفعك ولا تبصرين ما يضرك، وإنما قتالك واحد، وهو قتال القلب والله قادر أن يبطله، وإذا اقتنيت الاتضاع عرفت ضعفك. (٢).

(١) بستان الرهبان ص٤١١.
(٢) بستان الرهبان ص٤٠٩.

(ب) سكون الحواس

الحواس هي مدخل للفكر (العقل) والقلب فالإنسان حينما يسمع أو يرى شيئاً ما، يتحرك العقل ويفكر فيما رآه أو سمعه، ثم بعد ذلك يتحرك القلب بما فيه من مشاعر نحو حب أو بغضة أو شهوة ... حسب ما رآه أو سمعه. وينطبق هذا أيضاً عن الكلام الذي يتكلمه.

وحرصاً على ذلك حث آباء الرهبنة أولادهم الرهبان على الثبات في القلاية حيث يسكن الجسد ومنه تسكن الحواس فيكون أيضاً سكون للفكر والقلب.

كما **قال الأنبا أنطونيوس** " إن الذي يجلس في البرية (القلاية) يخلص من ثلاثة حروب، النظر والسمع والكلام، ويبقى له حرب القلب فقط ([1]).

وقال أنبا بيمن من يضبط فمه فإن أفكاره تموت، كالجرة التي يوجد فيها حيات وعقارب وسد فمها (فوهتها) فأنها تموت ([2]).

([1]) كتاب سأل أب شيخاً ص٦٢.

([2]) بستان الرهبان ص٤٠١.

وسأل أخ شيخاً قائلاً: " يا أبي أنا أشتهي أن أحفظ قلبي. فقال له الشيخ كيف يمكنك أن تحفظ قلبك، وفمك الذي هو باب القلب مفتوح سايب " ([1]).

وقال آخر " إن كان لسانك غزيراً بحركاته، فقد انطفأت من قلبك الحركات الطاهرة. أما إن كان لسانك ساكناً وقلبك يغلي بالحركات الطاهرة، فطوباك لأن حركته بالروح ترفعك إلى هدوء الحياة، **سكت لسانك ليسكت قلبك، وسكت قلبك ليتكلم فيه الروح** " ([2]).

إن الراهب الذي يسكن في البرية يتمتع بسكون الحواس، بينما الإنسان الذي يسكن في العالم، حتى ولو كان راهباً نزل إلى العالم فلن يتمتع بسكون الحواس. لأن حواسه سوف تتأثر مما تتعرض له في العالم. **فالعين** سوف تتسخ بالمناظر المعثرة والصور المعلقة على لوحات الإعلانات أو على الحوائط والمحلات، وإن لم تتأذَ العين من هذا قد تتأثر من تعرضها للإنارة الشديدة المنبعثة من المحلات بغرض شد انتباه المارة .... وغير ذلك من تعرضها

([1]) بستان الرهبان ص٤٠٢.

([2]) بستان الرهبان ص٤٠٢.

للزوغان نحو تحركات المارة في الشوارع ومرور السيارات وأمور أخرى مشابهة تتعب حاسة النظر وتفقده السكون.

أما عن حاسة **السمع** فسوف تتأذى من ضجيج الناس وثرثرتهم، أو تتسخ من بعض الكلمات البذيئة التي يخرجها الصبية وبعض العوام من أفواههم، حتى وإن وقع على سمعه حديثاً سيكون حديثاً عالمياً يدور حول الأحداث التي تقع على الساحة العالمية أو المحلية ....

أما عن **اللسان** فلن يسكن أبداً، ولن يفتر عن الكلام مع الآخرين، وعن مشاركتهم في أحاديثهم وإلا اعتبروه شخصاً غير طبيعي.

حتى حاسة **الشم** فلن تنجو من الاتساخ بسبب استنشاق الهواء الملوث بعوادم السيارات والمصانع وحريق السجائر.

إن علامات التوتر والعصبية والنرفزة والشجار ... التي تحدث لكثير ممن يكونون في العالم، لهي أكبر دليل على فقدهم الهدوء والسكون بسبب المؤثرات الخارجية الموجودة في العالم عليهم.

ولعلك تتفق معي على أن المؤثرات الموجودة في العالم، تظهر على الشخص الموجود في العالم. وأن المؤثرات الموجودة في البرية

تظهر على الرهبان الذين يعيشون فيها. تظهر على ملامحهم وكلامهم ونظرهم ... فإن وقفت مع بعض الرهبان سوف تكتشف وحدك دون أن يعلمك أحد مَنْ من هؤلاء الرهبان يقطن البرية، ومَنْ منهم يتواجد كثيراً في العالم.

ولا يكفي للراهب الذي يعيش في البرية أن يتمتع فقط بسكون حواسه، فهذا أمر طبيعي سوف يحدث له تلقائياً من وجوده في الدير، إنما عليه أن يحركها نحو محبة الله. فاللسان وإن كان لا يتكلم مع أحد فلكي يتكلم مع الله في التسبيح والصلاة والألحان والهذيذ الدائم في اسم ربنا يسوع المسيح.

كما **قال الأنبا بيمن** " الصمت من أجل الله جيد كما أن الكلام من أجل الله جيد"(١).

وقال مار إسحاق " الهذيذ بالواحد هو الانحلال من الكل، والانحلال من الكل هو الارتباط بالواحد " (٢).

وقال أيضاً " فم الطاهر يتكلم كل ساعة على خالقه، ومن يسمعه يفرح ويقتدي به " (٣).

---

(١) بستان الرهبان ص٤٠٤.
(٢) بستان الرهبان ص٣٩٨.
(٣) بستان الرهبان ص٤٠٠.

وقال أيضاً " فم الساكت يترجم أسرار الله " ([1]).

وقال أيضاً " الذي يحب الحديث مع المسيح يحب أن يكون وحده، والذي يريد أن يكون مع كثيرين فهو محب لهذا العالم" ([2]).

والراهب الذي يتمتع بسكون النظر، عليه أن يفتح بصيرته الروحية إلى معرفة ورؤية الأمور السماوية. ويشغل نظره دائماً بقراءة الكتاب المقدس وسير القديسين والكتب النسكية والروحية. ويقول مثل داود " جعلت الرب أمامي في كل حين، لأنه عن يميني لكي لا أتزعزع " (مز ١٦: ٨). كما يحرك نظره نحو الصلاة في المزامير والتسبحة وإلى كل ما هو مقدس وطاهر.

وعلى الراهب الذي يتمتع بسكون السمع، أن يحركها إلى سماع كلام المنفعة من شيوخ الدير، وسماع نصائح وإرشادات أب اعترافه وسماع العظات والصلوات والتسابيح ...

وهناك كلمة منفعة كان الآباء يقولونها بصفة دائمة لكل طالب رهبنة بالدير " **كن أعمى وأخرس وأطرش حتى تعيش مرتاح في الدير** ".

([1]) بستان الرهبان ص٤٠١.

([2]) بستان الرهبان ص٤٠٣.

وجاهد الآباء جهادات كثيرة ومتنوعة في سكون الحواس، فمنهم من كان يضع في فمه زلطة حتى يتقن الصمت. فقد أخبروا عن **الأنبا أغاثون** أنه وضع في فمه حجراً ثلاث سنين حتى أتقن السكون ([1]).

وذكر أيضاً عن **الأنبا أرسانيوس** أنه لما ابتدأ يتعلم الصمت كما جاءه الصوت لم يقدر سريعاً، فوضع حصاة وزنها اثنتا عشر درهماً في فمه ثلاث سنين لا يخرجها إلا وقتما كان يأكل أو يجيئه غريباً فكان يعزيه لأجل الله، وبهذه الفضيلة قوَّم السكوت وعلم فمه الصمت ([2]).

وقال الأنبا إشعياء " أحب السكوت أكثر من الكلام. لأن السكوت يجمع والكلام يبدد " ([3]).

وقال أحد الشيوخ: " أرفع الصلاح كله أن يمسك الإنسان بطنه ولسانه " ([4]).

([1]) بستان الرهبان ص٥٧.

([2]) بستان الرهبان ص٤٧.

([3]) بستان الرهبان ص١٥٢.

([4]) بستان الرهبان ص١٦٦.

وقيل أيضاً أن أحد الآباء في دير السريان في الخمسينيات من القرن العشرين كان يضع زلطة في فمه لمدة خمسة عشر سنة حتى أتقن الصمت. وقيل أيضاً عن القمص لوقا السرياني أنه عاش صامتاً لا يتكلم مع أحد البتة. (وهو أحد رهبان دير السريان في الخمسينيات من القرن العشرين).

(ج) سكون الفكر (العقل)

سكون الفكر والعقل، هو حفظه من الطياشة والاهتمام بالأوجاع، ولا يفكر فيها بالجملة بل يبعد عنه دائماً كل فكر الخطية، ويميل عقله ويوقفه قدام المسيح كما قال مار أوغريس أن في كل حين يذكر الله ويتذكر خيراته ومواعيده ووصاياه ووعيده فيفرح ويبتهج بهؤلاء ويخاف ويرتعد من هؤلاء.

وحراسة العقل من الطياشة حتى يصل إلى السكون، تحتاج من الراهب أن يبتعد عن العالم، وهذا ما لا يستطيع أن يفعله مَنْ يسكن في العالم لأن عقله دائماً يطيش في أوجاع كثيرة، وإن لم يطيش عقله بالأوجاع يطيش في اهتمامات وضروريات الحياة المتعددة.

وسعى الآباء في جهادات كثيرة، ليس للوصول إلى سكون العقل فقط عن الطياشة والاهتمام بالأوجاع، إنما جاهدوا كثيراً

للوصول إلى صلب العقل مع الله دائماً. ويُقال أن القديس مكاريوس الإسكندراني وصل إلى صلب العقل لمدة ثلاثة أيام في صلاة دائمة لا تنقطع.

ويُحكي عن **القديس يوحنا القصير** أنه في " مرة جاءه جمَّال ليحمل أوعيته، فلما دخل ليحضر له الضفائر نسيها لأنه كان مشغولاً في التأمل في المناظر المعقولة الإلهية – وقرع الجمَّال الباب فخرج إليه ونسى مرة أخرى – فقرع مرة ثالثة، فخرج إليه ودخل وهو يقول (الضفائر للجمَّال، الضفائر للجمَّال).

ومرة جاء إليه بعض الإخوة ليأخذوا منه (قففاً) فقرع أحدهم، فخرج إليه وقال له : ماذا تطلب أيها الأخ؟ فأجابه (قففاً). فتركه ودخل وجلس يخيط فقرع آخر فخرج إليه وقال ماذا تريد أيها الأخ؟ فقال له هات لي قفة يا أبتاه، فدخل وجلس يخيط ونسىَ من فرط تأملاته. ثم أن الأخ قرع مرة أخرى فخرج إليه وقال له ماذا تريد يا أخي؟ فقال " القفف أيها الأب " فأمسكه بيده وأدخله إلى القلاية وقال إن كنت تريد قفة فخذ ما تريده فأني لست متفرغاً لك في هذه الساعة.

وقيل عنه أنه ضفر في بعض الأوقات ضفيرة تصلح لعمل زنبيلين، لكنه خاطها زنبيلاً واحداً، ولم يعلم بذلك إلا عندما

وصل إلى آخر الضفيرة، وذلك لأن فكره كان مشغولاً بالمناظر الإلهية ([1]).

وقيل عن **الأنبا إيسوذوروس** أنه توجه مرة إلى البابا ثاؤفيلس بطريرك الإسكندرية ولما رجع سأله الإخوة عن حال مدينة الإسكندرية. فقال لهم، إني لم أبصر فيها إنساناً إلا البطريرك وحده. فتعجبوا وقالوا له، أتريد أن تقول أن مدينة الإسكندرية خالية من الناس؟ قال كلا. لكني لم اسمح لعقلي أن يفكر في رؤية أي إنسان ([2]).

وقيل أنه لما كان زكريا تلميذ الأب سلوانس ذاهباً إلى خدمته، قال لمعلمه الشيخ: افتح المياه يا أبت واسق الجنينة. فخرج الشيخ مغطياً وجهه بالعمامة حتى لا يرى إلا آثار أقدامه فقط، وبدأ يسقي البستان. وفيما هو يسقي شاهده أخ من بعيد، فأدرك بغية الشيخ. فأتى إليه وسأله قائلاً: قل لي أيها الأب لماذا تغطي وجهك بالعمامة وأنت تسقي البستان؟ فأجابه الشيخ لئلا تشاهد عيناي الأشجار فينشغل ذهني بها ويتوقف عن عمله ([3]).

([1]) بستان الرهبان ص٧٨.
([2]) بستان الرهبان ص٦٢.
([3]) كيف نحيا مع الله جزء ٤ ص٢٦٠.

وقال أحد الآباء الشيوخ: الذهن بعدما يتنقى ويبلغ إلى الكمال يمكنه أن ينظر الأمور الإلهية بوضوح في هذه الحياة أيضاً. ثم قال أيضاً، شرط أن يجاهد الإنسان جهاداً حقيقياً. أعلم من ذاتي أنني مررت بهذه الحالة مرة، وكنت مدة أسبوع كامل مأخوذاً بالأمور الإلهية، ولم أتذكر شيئاً بشرياً على الإطلاق([1]).

وهكذا داوم الآباء على الجهاد حتى يحفظوا **العقل من** الطياشة في أي شيء بعيداً عن التفكير في الله فقط. ولم يكن ذلك عليهم بالأمر الهين، إنما ساندهم نعمة الله، عندما وجدهم صادقين في جهادهم.

وقد سأل أخ شيخاً قائلاً: إن الأفكار الرديئة لا تدع الذهن يلتصق بالله، ففي هذه الحالة كيف يقدر أن يطردها؟ فأجابه الشيخ قائلاً: إن الذهن وحده لا يقدر إطلاقاً أن يفعل ذلك، لأنه لا يملك قوة كبيرة كهذه. لكن عندما تهاجمه الأفكار ينبغي له أن يلتجيء حالاً إلى الله الذي يذوبها كالشمع. لأن إلهنا نارٌ آكلة (تث ٤: ٢٤، ٩: ٣) ([2]).

([1]) كيف نحيا مع الله جزء ٤ ص٢٦٤.
([2]) كيف نحيا مع الله جزء ٤ ص٢٦١.

وسأل أخ شيخاً قائلاً: هل يقدر الذهن أن يعاين الله دائماً؟ أجابه الشيخ قائلاً: إن لم يعاين دائماً، عليه ألا يتأخر عن الالتجاء إلى الله بالصلاة العقلية عندما تقوى عليه الأهواء جداً. الحق أقول لك، عندما يبلغ الذهن إلى الكمال يصبح نقل الجبل أسهل عليه من أن يبتعد هو عن الرؤية الإلهية. لأنه كما أن الذي يكون مأسوراً في سجن مظلم، فإذا أطلق سراحه وشاهد النور، **لا يشاء أن يتذكر الظلام من بعد، هكذا تكون الحالة بالنسبة** للذهن، فإنه عندما يبدأ بمشاهدة إشراق النور في داخله، لا يشاء الابتعاد عنه من بعد ولا قيد شعرة ([1]).

لذا قال **القديس يوحنا القصير:** تمسك بالتخلي عن كل شيء يشغل لا عن المقتنيات فقط بل وعن النظر والسمع والكلام كنحو قوتك لأن الحواس هي رباطات الإنسان الباطن وبها حياته ([2]).

وقال أحد الشيوخ: كل من يجلس في القلاية عليه أن يتذكر خطاياه، ويبكي وينوح من أجلها ويتحرز ألا يسبي عقله، وإن سبي فليجاهد أن يرده إليه. ([3])

([1]) كيف نحيا مع الله جزء ٤ ص٢٦٤، ٢٦٥.

([2]) بستان الرهبان ص٤٠٦.

([3]) بستان الرهبان ص٤٠٧.

(د) سكون القلب (المشاعر الداخلية)

القلب هو مركز الحياة في الإنسان، أي منه تكون مخارج حياة الإنسان أو موته. من أجل ذلك دعى الحكيم في سفر الأمثال أن يتحفظ منه الجميع فقال " فوق كل تحفظ احفظ قلبك لأن منه مخارج الحياة " (أم ٤: ٢٣). وقال عنه السيد المسيح " الإنسان الصالح من كنز قلبه الصالح يُخرج الصلاح، والإنسان الشرير من كنز قلبه الشرير يُخرج الشرور " (لو ٦: ٤٥)، وقال أيضاً للفريسيين " **ما يخرج من الفم فمن القلب يصدر**، وذلك ينجس الإنسان، **لأن من القلب تخرج أفكار** شريرة، قتل، زنى، فسق، سرقة، شهادة زور، تجديف " (مت ١٥: ١٨، ١٩). وقال الحكيم أيضاً " **قلب الحكيم يرشد فمه** " (أم ١٦: ٢٣)، " **قلب الصديق يفكر بالجواب** " (أم ١٥: ٢٨)، " **في قلب الإنسان أفكار** كثيرة لكن مشورة الرب هي تثبت " (أم ١٩: ٢١).

ولأن القلب هو الذي يوجه فكر الإنسان، وهو مصدر ما يخرج من الفم ومصدر كل عمل يصدر من الإنسان، لذلك طلب الرب من أولاده قائلاً " يا ابني أعطني قلبك ولتلاحظ عيناك طرقي " (أم ٢٣: ٢٦)، بل ما زالت الوصية تدعو الكل

قائلة " تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك " (مر ١٢: ٣٠).

وأمام عجز الإنسان الذي يعيش في العالم عن تنفيذ الوصية، نظراً لامتلاء قلبه بأمور كثيرة، كرغبات مختلفة أو شهوات عالمية... حتى وإن خلا قلبه من مثل هذه الأشياء، فلابد أن ينشغل بالتزامات واجبة وضرورية نحو زوجته وأولاده، تسبب لقلبه الاضطراب والانشغال بها وعدم إعطاء القلب كله لله.

ولهذا ترك العالم بعض ممن أرادوا تقديم كل قلوبهم لله، وذهبوا إلى الأديرة وصاروا رهباناً. ودخلوا في جهاد دائم لا ينقطع منذ دخولهم الدير حتى تخلصوا من أية شهوة أو رغبة كانت في قلوبهم واستبدلوها بشهوة ورغبة مقدسة وطاهرة. واستلزمهم هذا، البلوغ إلى سكون الجسد والفكر والحواس، إذ عرفوا أنها مداخل هامة، بها يسكن قلب الراهب من الحركات والشهوات العالمية.

قال شيخ عن ذلك لأحد الإخوة: " أنه لو أنك ملأت جرة بحشرات ضارة، وسددت فوهتها، ألا تموت جميعها؟ ولكنك لو تركت فوهتها مفتوحة، فإن الحشرات سوف تخرج وتضر من

تصادفه، هكذا الذي يسكن فجميع الأفكار الرديئة التي بداخل قلبه تموت " (١).

سأل أخ شيخاً: " يا أبي إني أشتهي أن أحفظ قلبي "، فقال له الشيخ: " كيف يمكنك أن تحفظ قلبك، وفمك الذي هو باب القلب مفتوح سايب " (٢).

سأل الإخوة مرة **الأب سلوانس:** " ما هي السيرة التي سلكتها أيها الأب حتى بلغت هذه الفطنة؟ أجابهم إني لم أدع في قلبي فكراً على الإطلاق يُغضب الله " (٣).

وسأل أخ الأب شيشوي قائلاً: " أريد أن أصون قلبي، ولا أقدر على ذلك. فقال له الشيخ: كيف يمكننا أن نصون قلبنا وباب لساننا مفتوح " (٤).

وقال مار إسحاق: " إن السحاب يحجب نور الشمس، والأقوال الكثيرة تبلبل النفس.إن الشجرة إن لم تُسقط أولاً الورق العتيق فلن تأتي بأغصان جديدة. كذلك الراهب إن لم

---

(١) بستان الرهبان ص٢٩٢.
(٢) بستان الرهبان ص٤٠٢.
(٣) بستان الرهبان ص٢٦١.
(٤) بستان الرهبان ص٢٦١.

يرم من قلبه وكر الأمور والأعمال السالفة، ويبعد عن ملاقاة الكل، فلن يقدم ليسوع المسيح ألماراً جديدة " (١).

ولم يكتف الرهبان للبلوغ إلى سكون القلب، إنما تطلعوا إلى تحرك قلوبهم بصفة دائمة نحو المحبة الكاملة لله. فدخلوا في درجات روحية عالية كالهذيذ والدهش ونقاوة القلب والصلاة الدائمة ... وغيرها من تحركات مقدسة طاهرة لقلوبهم. ولذلك قال الشيخ الروحاني قوله المعروف " سكت فمك ليتكلم قلبك وسكت قلبك ليتكلم الله ".

وقال آخر: " إن كان لسانك غزيراً بحركاته، فقد انطفأت من قلبك الحركات الطاهرة. أما إن كان لسانك ساكناً وقلبك يغلي بالحركات الطاهرة، فطوباك لأن حركته بالروح تزفعك إلى هدوء الحياة، سكت لسانك ليسكت قلبك، سكت قلبك ليتكلم فيه الروح " (٢).

(١) بستان الرهبان ص٣٩٣.
(٢) بستان الرهبان ص٤٠٢.

سأل أخ شيخاً قائلاً: " ماذا يجب أن يعمل القلب حتى ينحصر اهتمامه في ذاته؟ فأجاب الشيخ قائلاً: عمل الراهب هو أن يلتصق دائماً بالله بدون تشتت " (١).

لم أجد أبدع من قصة السائح الروسي لكي أقدمها إليك أيها القارئ العزيز. إذ تُظهر عمل القلب وتحركه نحو محبة المسيح. (٢)

إنني بنعمة الله مسيحي ولكن بأعمالي أرى نفسي أكبر الخطاة. وإذ أُسَمي بالسائح الذي لا مترل له أجول من مكان لآخر لا أحمل إلا سلة على ظهري بها من الخبز اليابس ما قل أو كثر، والتوراة في جراب على صدري.

ذهبت إلى الكنيسة في الأحد الرابع والعشرين بعد العنصرة أصلي فسمعت من رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل تسالونيكي هذه الآية " صلوا بلا انقطاع " فنفذت هذه الكلمات عن كل ما عداها إلى الأعماق وفكرت: كيف يمكن أن أصلي بلا انقطاع بينما أنشغل بمهام كثيرة لأقوم بأود حياتي. رجعت إلى الكتاب المقدس فقرأت هذه الكلمات بعيني،

(١) كيف نحيا مع الله جزء ٤ ص٢٦١.
(٢) حياة الصلاة الأرثوذكسية طبعة دير السريان ص٤٥٣ – ٤٦٠.

وفهمت منها أنه يجب أن نصلي على الدوام في كل الأوقات وفي كل مكان! ... فكرت كثيراً ولكن لم أصل إلى نتيجة. سألت ماذا ينبغي أن أفعل؟ وأين أجد من يفسر لي هذا الأمر؟ لسوف أذهب إلى الكنائس ولأقصدن أشهر الوعاظ والمرشدين فربما أسمع منهم ما يلقي ضوءاً على فكري ...

مضيت وسمعت عظات كثيرة مدهشة عن الصلاة، وفهمت ما هي الصلاة وإلى أي حد نحتاج إليها وما هي ثمارها ولكني لم أجد من يتكلم عن كيف تنجح في ممارسة الصلاة. وسمعت عظة عن الصلاة القلبية وعدم انقطاعها ولكن لم يشر إلى كيفية ممارستها؛ لذلك لم أستفد كثيراً من سماع العظات فعوّلت على خطة أخرى بأن أتجه إلى بعض المختبرين فأناقشهم في هذا الأمر الذي ملك عقلي وتفكيري !

سحت كثيراً سائلاً في كل مكان عن هذا الأمر. وقيل لي عن إنسان في إحدى القرى يسعى إلى خلاص النفوس، ويخصص اجتماعاً في منزله ويقضي كل وقته في الصلاة وقراءة الكتب المقدسة، فجريت إليه أكثر مني ماشياً ووجدته وأخبرته بما سمعته عنه، وطلبت منه أن يخبرني عما يقصده الرسول بقوله " صلوا بلا انقطاع " وكيف يمكن ذلك؟ فسكت، ثم قال " الصلاة

الداخلية الغير منقطعة هي رفع دائم للنفس البشرية أمام الله، ولكي تنجح في هذا الأمر يجب أن تصلي كثيراً لتختبر العذوبة التي يعلمنا الله بها كيف نصلي بلا انقطاع ... صلّ كثيراً وصلّ بحرارة فالصلاة نفسها هي التي ستعلن لك كيف تصلي بلا انقطاع ... لكن الأمر يحتاج إلى بعض الوقت ! " ثم قدم لي زاداً ونقوداً لأجل سياحتي وصرفني. ولكن اعتراني شعور باليأس إذ أنه لم يفسر لي كما أريد ... عدت إلى القراءة والتأمل مفكراً في كل ما قاله لي ذلك الأب ولكن لم أصل إلى الحقيقة. ولست أعلم لماذا بدأت لا أنام الليل ...

مشيت ما يقرب من ١٢٥ ميلاً حتى وصلت ديراً سمعت أخباره فعلمت أن هناك أباً محباً طيب القلب فقصدت إليه فقابلني في صداقة عميقة. رجوته أن يرشدني روحياً إلى الطريقة التي بها أخلص نفسي فدهش وأجاب " سر حسب أوامر الله وأتل صلواتك فتخلص ". فأجبت: ولكني سمعت أنه ينبغي أن أصلي بلا انقطاع وهذا هو ما لست أعرفه أو أقدر عليه فأرجوك أن تفسر لي هذا الأمر. فأجاب بأن عنده كتاباً للقديس ديمتري عن التعليم الروحي للإنسان الداخلي. فقرأت فيه أن كلمات بولس الرسول بخصوص الصلاة بلا انقطاع يجب أن

تفهم كإشارة إلى الصلاة الموصلة إلى الفهم، وهذا الفهم يوصلنا إلى الله. فيعيش الإنسان بذلك في حياة الصلاة بلا انقطاع!

ولكني سألت عن الطريق التي بها يتجه الذهن إلى الله دواماً وبدون أن ينشغل بعيداً. فأجابني الأب " إن هذا الأمر صعب حتى على الذين وهبوا من الله تلك العطية " ...

فلم أستفد شيئاً وازددت اضطراباً وقضيت الليل عنده ثم عاودت السير في الطريق العام مدة خمسة أيام مواظباً على قراءة الكتاب المقدس لأريح نفسي.

أخيراً قابلت أحد رجال الدين عند اقتراب المساء وسألته فأخبرني أنه من دير يبعد عن المكان نحو ستة أميال وسألني أن أذهب معه وأخبرني أنهم يضيفون الحجاج ويهيئون لهم قسطاً من الراحة. فأجبت بأن راحتي القلبية لا تستدعي راحة الجسد. ولست أجري وراء الأكل لأن عندي الكثير من الخبز الجاف في السلة. فهدَّأ من اضطرابي وأخبرني بوجود أب كبير مختبر في الدير يستطيع أن يهديني الطريق الصالح على ضوء كلمة الله وكتابات القديسين. قلت: " حسناً يا أبي أني سمعت في قراءات الكنيسة من الرسائل الأمر بأن نصلي بلا انقطاع. ولكني لم أفهم كيف يمكن ذلك وسط مشغوليات العالم.

فأجابني أن هذا الأمر صريح فينبغي أن نصلي بلا انقطاع في كل مكان وفي كل زمان وليس فقط وسط المشغوليات العالمية. بل وحتى أثناء النوم أيضاً حسب قول الكتاب " أنا نائمة وقلبي مستيقظ " فدهشت كثيراً واضطربت وازدادت غيرتي لأفهم. واستطرد في الحديث: أنني أشكر الله يا ابني العزيز على تلك الغيرة التي غرسها الله في قلبك نحو الصلاة المستمرة وثق أنها دعوة من الله لك فهديء روعك لتتأكد من إرادة قلبك أنها تتفق مع كلمة الله الذي وهبك أن تفهم النور السماوي الذي يشع في الصلاة الغير منقطعة. إن هذا النور لا يأتي بحكمة هذا العالم ولا يأتي من الرغبة الخارجية في المعرفة. ولكن يأتي للمساكين بالروح الذين يريدون أن يختبروا كل شيء عملياً في بساطة قلب.

أما عدم فهمك لكيفية الصلاة المستمرة فليس فيه أي غرابة! لأنه بالرغم من أنه قد كُتب كثيراً عن الصلاة وكثرت الإرشادات التي قيلت في هذا الصدد. إلا أنه في أكثر الأحوال تبنى هذه الكتابات على الحكمة الطبيعية. والغالبية تعظ دائماً عن صفات الصلاة دون التكلم عن طبيعتها وطريقة ممارستها.

والبعض يتكلم عن قوتها وهباتها والبعض الآخر يتكلم عن الوسائل التي تمهد لها دون شرح ما يتعلق بها ذاتها.

ولكن ما هي الصلاة المستمرة وكيف يتعلم المرء أن يصلي؟ مثل هذا السؤال لا تجد له جواباً عند وعاظ الوقت الحاضر لأنه سؤال يحتاج إلى دراية وفهم روحي ولا يحتاج إلى تعليم المدارس. كما أن الفشل في هذا الفهم وعدم الخبرة يجعلهم يستخدمون حكمة العالم الغير مجدية في شرح الأمور الإلهية. فالكثير من الناس يفتكر فكراً خاطئاً بأن الأعمال الصالحة هي التي تجعلنا نصلي، ولكن الأمر على العكس فالصلاة هي أم الفضائل والأعمال الصالحة. ومن يقول بغير ذلك فأنه يهضم حق الصلاة وقيمتها كما يخالف قول الرسول بولس إلى تيموثاوس ٢: ١ " فأطلب أول كل شيء أن تُقام صلوات وطلبات وابتهالات وتشكرات ... " فالصلاة هي أول كل شيء. وعلى المسيحي أن يقوم بالخدمات والأعمال الصالحة ولكن قبل الكل يجب أن يصلي. لأنه بدون الصلاة لا يتم عمل صالح. ولن يجد الطريق إلى الرب بدون الصلاة.

كذلك لن يفهم الحق ولن يستطيع أن يصلب أهواء جسده وشهواته بغير صلاة. ولن يستضيء قلبه بنور المسيح أو يتحد بإرادة الله ما لم يشرع في اختيار حياة الصلاة الدائمة ... **وأقول الدائمة لأنها هي كمال الصلاة.** تعلم أولاً أن تطلب قوة الصلاة

حينئذ ستمارس بسهولة جميع الفضائل .... ووصلنا إلى الدير أثناء هذا الحديث، فسألته أن يتفضل ويخبرني عن كيفية الصلاة بلا انقطاع فقبل سؤالي بلطف وأدخلني إلى صومعته وأعطاني لأقرأ في مجلد لأقوال الآباء. واستطرد قائلاً: " **إن الصلاة الغير منقطعة هي مناداة اسم الرب يسوع بالشفاه وبالقلب مع تكوين صورة عقلية لحضوره الدائم الثابت، وطلب رحمته خلال كل مشغولية وفي كل وقت وفي كل مكان حتى أثناء النوم** ".

وتغرس هذه العاطفة بترديد هذه الكلمة " يا ربي يسوع المسيح ابن الله ارحمني أنا الخاطئ ". فمَنْ يُعوِّد نفسه على ذلك يختبر أعمق الوسائل التي تزرع الرغبة في أن تدوم الصلاة وسوف تستمر هذه الطلبة دافعة لنفسها في أعماق قلبه.

والآن اسمع ما يقوله **سمعان اللاهوتي** عن الصلاة بلا انقطاع. " اجلس وفي هدوء وصمت؛ احن رأسك وأغلق عينيك وتصور نفسك ناظراً إلى داخل قلبك وأنقل أفكارك من عقلك إلى قلبك وقل مع كل نسمة تخرج منك – يا سيدي يسوع المسيح ابن الله ارحمني أنا الخاطيء – قلها بتحريك شفتيك ببساطة أو قلها فقط

في عقلك محاولاً أن تدع كل الأفكار الأخرى جانباً وكن هادئاً صبوراً وكرر هذه الطلبة في أحيان كثيرة ".

وإذ فسر لي الأب هذه الكلمات شرعنا نقرأ الليل كله ثم مضيت في الصباح إلى البلدة المجاورة بعد أن باركني وأخبرني بأن أعود إليه ليرى تقدمي. ولأعترف له بكل شيء في صراحة. **لأن التحول الداخلي لا يكمل بدون إرشاد روحي.** ولما دخلت الكنيسة طلبت معونة الله. ثم شرعت في البحث عن عمل ومسكن في البلدة. لأنه لا يُسمح لزوار الدير بالبقاء أكثر من ثلاثة أيام. ولأجل عناية الله بي استأجرني أحد الفلاحين لأعتني بحديقة طول الصيف. وأعطاني كوخاً منفرداً لأعيش فيه. فليتمجد اسم الله ... لقد وجدت مكاناً هادئاً وعملاً منفرداً فيه بدأت أتعلم الصلاة الداخلية لكني تعبت جداً في بحر الأسبوع. وشعرت بتكاسل واعتراني نوم وغشتني سحابة من الأفكار الأخرى.

فمضيت حزيناً إلى أبي وأخبرته بسوء حالي، فحياني في شوق وقال: " يا ابني أنها هجمة عالم الظلمة عليك. ولكن عدو الخير لا يستطيع أن يعمل إلا ما يسمح به الله في حدود احتمالنا. فليس أسوأ من أن نشعر أننا نصلي فإن هذا الشعور

يحاول بكافة الطرق أن يحولك عن الصلاة ... **أنه يبدو لي أنك في احتياج لأن يُختبَر اتضاعك. لأنه على قدر ازدياد عاطفتك لتختبر الصلاة من أعماق القلب على قدر احتمال سقوطك في الطمع الروحي.**

ثم شرع يقرأ لي من أقوال الآباء ما يلي: " إذا لم تنجح بعد عدة محاولات لتصل إلى اختبار الحقيقة التي تعلمتها فاعمل ما سأقوله لك وبمعونة الله ستصل إلى مرادك. إن مَلَكة النطق تقع في الفكر فاسمح لهذه المَلَكة أن تُردد على الدوام هذه الكلمات بعينها أي ياربي يسوع المسيح ابن الله ارحمني أنا الخاطيء. واجبر نفسك على أن تقولها دائماً فإذا نجحت إلى زمن حينئذ سينفتح قلبك للصلاة الدائمة. واستطرد الأب قائلاً أن هذا هو تعليم الآباء فأطع إرشادي من الآن فصاعداً وكرر صلاة يسوع ثلاثة آلاف مرة في اليوم أثناء قيامك وجلوسك ورقادك ومشيك، وعملك وراحتك. قلها بهدوء وبدون إسراع ولا تحاول أن تنقص أو تزيد في العدد والله سيساعدك وبتلك الطريقة تصل إلى صلاة القلب الغير منقطعة.

فقبلت هذا الأمر بسرور ومضيت إلى منزلي أنفذه بمنتهى الأمانة والدقة فوجدت الأمر صعباً في اليومين الأولين ولكن بعد

ذلك سهل عليَّ بدرجة أني كلما توقفت أشعر بما يدفعني على الاستمرار ...فذهبت إلى أبي فأمر بالمزيد وأضاف قائلاً كن هادئاً وجرب بأمانة حتى يعينك الله في تدريبك.

وهناك في كوخي الموحش رددت هذه الصلاة أسبوعاً آخراً دون أن أتضايق وتعلمت كيف أركز ذهني وكيف لا يتشتت عقلي إلى الأفكار الأخرى. وشعرت فعلاً بأني إذا توقفت عن الصلاة أكون كمن فقد شيئاً .... ولما قابلت مرشدي أخبرته عن فرحي وارتياحي لما اعتاده قلبي وفكري ولساني فمجد الله قائلاً " أنها نتيجة طبيعية للمجهود المتواصل والروح اليقظة؛ فالعجلة يدفعها قصورها الذاتي فتستمر في السير إلا أنها تحتاج إلى زيت ليسهل حركتها كما يحسن دفعها من حين لآخر. فتأمل مراحم الله الذي أعطانا كيف ندرب طبيعتنا البشرية!

والآن أترك لك مطلق الحرية لتصلي كيفما تريد فقط حاول أن تكرس أوقات يقظتك للصلاة وأن تسلم نفسك باتضاع لإرادة الرب طالباً منه المعونة وأنا متأكد أنه لن ينساك بل سيقودك إلى الطريق المستقيم! ".

وهكذا قضيت الصيف كله في سلام مع الله وصلاة مستمرة ليسوع المسيح كما كنت أحلم في ليلي بأني أصلي. وإذا قابلت

إنساناً في يومي أشعر كما لو كان عزيزاً غالياً لديَّ أو أقرب الأقربين إليَّ ... ولكني لم أشغل نفسي بالناس كثيراً. وهدأت كل أفكاري ولم أفكر في شيء إلا في الصلاة. وإذا ذهبت إلى كنيسة الدير تبدو لي الخدمة الطويلة كأنها قصيرة غير مملة .. وتراءى لي كوخي الحقير كأنه قصر عظيم ولم أعرف كيف أعبر عن شكري لله الذي أرسل لي أنا الخاطيء التائه الهداية والإرشاد. إذ قد غمرتني سعادة الصلاة حتى أني كنت أقطع ما يقرب من الأربعين ميلاً يومياً بدون تعب. وإذا هاجمني البرد أنادي باسم يسوع المسيح فأشعر بالدفء. وحين مرضت بالروماتيزم كنت أصلي باسم يسوع فأنسى كل آلامي. وإذا أهانني أحد كان عليَّ فقط أن أفكر في صلاة يسوع فيتلاشى الغضب. وأصبحت إنساناً في نصف وعيه، لم أعد أهتم بشيء مما في معيشة هذا العالم المضطربة بل كل ما أريد هو أن أصلي وأصلي بلا انقطاع وأن أفرح بالرب دائماً.

لقد سحت في بقاع كثيرة مختلفة بينما صلاة يسوع ترافقني وفكرت في تحويل غايتي إلى السياحة في سهول سيبيريا الفسيحة حيث يسهل عليَّ الاختلاء وحيث أقصد معبد القديس إينوسنت وبعد وقت ليس بطويل شعرت كما لو أن كلمات الصلاة تخرج

من شفتي لتدخل إلى قلبي في توافق عجيب. أعني أن كل كلمة تُقال تكون كما لو كان ينطق بها القلب مع دقاتـــه. وحينئـــذ أبطلت تحريك شفتي لأن قلبي ينطق وتمنيت لـــو أرى ســـيدي يسوع المسيح فأطرح نفسي عند قدميه وأطوقهمـــا وأقبلـــهما شاكراً بالدموع لأنه وهبني بمحبته أن أعيش باسمه في سلام أنـــا المخلوق الخاطيء الغير مستحق ... ،،

(٧)

وضوح الهدف في الحياة الرهبانية

أولاً: الهدف الأسمى من خلقة الإنسان

ثانياً: أهمية وضوح الهدف

ثالثاً: مقومات وضوح الهدف في الحياة الرهبانية

(أ) تذكار الموت

(ب) حياة التجرد

(جـ) حياة الغربة

رابعاً: معوقات وضوح الهدف في الحياة الرهبانية

(أ) الذات

(ب) العالم

(جـ) الجسد

خامساً: تأثير وضوح الهدف في حياة الراهب

أولاً: الهدف الأسمى من خلقة الإنسان

الإنسان مخلوق سماوي، خلقه الله بديلاً عن طغمة الملائكة التي سقطت، لكي يسبح الله ويتمتع بوجوده الدائم في الحضرة الإلهية. ولما سقط الإنسان الأول بغواية إبليس، طُرد من الفردوس ومن تمتعه بوجوده مع الله إلى أرض الشقاء، وهناك ضل عن الهدف الأسمى الذي خُلق من أجله وأصبحت له أهداف أخرى أرضية وفانية.

ومع أن الإنسان الأول سقط من مرتبته الروحانية السامية، إلا أن الهدف الرئيسي من خلقته، وهو تسبيح الله والتمتع بالوجود الدائم في الحضرة الإلهية، لم يتغير برغم السقوط.

ومع وجود الإنسان على الأرض ظهرت أهداف أرضية كثيرة، جعلته يتدانى نحوها، ورويداً رويداً اختفى من أمامه الهدف الأسمى. ومع ذلك فإن ومضات الهدف الأسمى تشرق في قلبه من حين لآخر، فيشتاق نحو البلوغ إليها، ولكن سرعان ما تطفئها وتحجبها الأهداف والشهوات الأرضية المتعددة.

ثانياً: أهمية وضوح الهدف

الإنسان الذي لم يحدد هدفه يصبح كريشة في مهب الريح. تسير حياته وتتحرك وفق انفعالاته النفسية، وتأثيرات الناس والمجتمع عليها، تارة تسير حياته هنا وتارة هناك، وتتخبط من هنا إلى هناك. ويمر عمره وينتهي دون أن يدري بشيء سوى المأساة المريرة التي يعيشها.

فوضوح الهدف في حياة الإنسان له أهمية قصوى، فعليه يرسم الإنسان خططه ويحدد الطرق التي يسير فيها للوصول إليه. فالطالب مثلاً، هدفه الرئيسي الموضوع أمامه، هو الحصول على شهادة التخرج بتفوق، ولكي يحقق ذلك عليه أن يضع أمامه الهدف نصب عينيه كل حين، وأن يرسم خطة وطريقة للمذاكرة تساعده على تحقيق هدفه. كأن يستذكر دروسه بجد ولا يضيع وقته في اللعب وفي كثرة الخروج وفي مشاهدة التلفزيون واستخدام الكمبيوتر بكثرة .... وما فعله الطالب للوصول إلى هدفه، ينبغي على كل إنسان أن يعمله لكي يحقق هدفه.

وإن كانت هناك أهداف كثيرة في حياة كل إنسان إلا أن هناك هدف رئيسي أعظم من كل الأهداف، وهو خلاص نفسه من الهلاك والموت الأبدي، أو بمعنى آخر البلوغ إلى الحياة

الأبدية. هذا الذي من أجله باع التاجر كل ما يملك واشترى الجوهرة الكثيرة الثمن التي هي ربنا يسوع المسيح. وهو الذي من أجله باع الراهب العالم وشهواته وأبجاده، للبلوغ إلى هدفه الأعظم وهو الحياة الأبدية.

ووضوح الهدف في حياة الإنسان مهم جداً، لأن عدم رؤية الهدف بوضوح كل حين، تسبب انحراف الإنسان وبعده عنه. ولتوضيح ذلك: إن مشى إنسان في البرية نحو هدف بعيد عنه، وأثناء سيره نزل في وادي منخفض فانحجب الهدف عن بصره وسار نحوه دون أن يراه، وبعد مسيره فترة صعد إلى تل عال فوجد أنه انحرف عن الهدف كثيراً، ولو استمر في سيره دون أن يراه لأدى به الأمر إلى السير في اتجاه معاكس.

ووضوح الهدف له أهمية كبرى في حياة الإنسان، لأنه يكون حافزاً كبيراً للإسراع في الوصول إليه وتحقيقه، فبولس الرسول يقول " أسعى نحو الغرض لأجل جعالة (مكافأة، جائزة) دعوة الله العليا في المسيح يسوع " (في ٣: ١٤).

كما أن وضوح الهدف له أهمية في حياة الإنسان، لأن وضوحه ولمعانه أمام الإنسان يجعله لا يعطي أدنى اهتمام لأي أهداف جانبية أخرى تريد جذبه وإبعاده عن الهدف الأسمى في حياته.

وضوح الهدف في الحياة الرهبانية

إن طبيعة الحياة الرهبانية في البرية تساعد على وضوح الهدف الذي خرج الراهب من أجله. وهذا ما دفع البعض على الخروج من العالم والذهاب إلى البرية للدخول في الحياة الرهبانية. إذ وجدوا فيها الإمكانية التي تساعدهم على تحقيق الهدف والبلوغ إليه. بل رأوا أن الرهبنة هي طريق باب الحياة الأبدية الذي كل من دخل فيه يخطو نحو الأبدية.

إن تحرر الراهب في الحياة الرهبانية من هموم والتزامات الحياة، يجعل الهدف يتضح أمامه، بل يجعله يسير بخطى واسعة وسريعة نحو تحقيق الهدف دون أن تقابله أي صعاب أو معوقات في الطريق نحو الهدف الأسمى الذي هو الحياة الأبدية.

حتى وإن ظهرت بعض المعوقات والصعاب التي قد تتسبب في ضياع الهدف في حياة الراهب، فإنها لن تستمر، لأن طبيعة الحياة الرهبانية في البرية تساعده وتعمل بسرعة على وضوح الهدف مرة أخرى. فهو لحيظة يختفي ولكن مراحم الرب سرعان ما تجمعه وتظهره مرة أخرى. وهذا ما لا تستطيع حياة العالم أن تعمله في الإنسان.

ونذكر هنا بعض المقومات التي تعمل وتساعد على وضوح الهدف الرهباني الذي هو الحياة الأبدية.

ثالثاً: مقومات وضوح الهدف في الحياة الرهبانية

(أ) تذكار الموت

الموت عن العالم هو فلسفة الحياة الرهبانية، ولعل هذه الفكرة هي التي طرأت على فكر الأنبا أنطونيوس أب الرهبان عقب موت أبيه. فيروي لنا بستان الرهبان هذه القصة قائلاً " أنه لما توفى والده ودخل إليه وتأمل وبعد تفكير عميق قال: تبارك اسم الله. أليست هذه الجثة كاملة، ولم يتغير منها شيء البتة سوى توقف هذا النفس الضعيف، فأين هي همتك وعزيمتك وأمرك وسطوتك العظيمة وجمعك للمال. إني أرى الجميع قد بطل وتركته ... فيا لهذه الخسرة العظيمة والخسارة الجسيمة ".

ثم نظر إلى والده الميت وقال: **إن كنتَ قد خرجتَ أنت بغير اختيارك، فلا أعجبن من ذلك، بل أعجب أنا من نفسي إن عملت كعملك.** ثم أنه بهذه الفكرة الواحدة الصغيرة ترك والده بغير دفن، كما ترك كل ما خلفه له من مال وأملاك

وحشم، وخرج هائماً على وجهه قائلاً: ها أنا أخرج من الدنيا طائعاً كي لا يُخرجوني مثل أبي كارهاً. (١).

إن فكرة الموت الإرادي عن العالم هي الفكرة التي بُنيت عليها الحياة الرهبانية كما رأينا في حياة الأنبا أنطونيوس بعد رؤيته جثة أبيه وهذا ما حدث من قبل مع الأنبا بولا السائح فبعد وفاة والده اختلف مع أخيه الأكبر في طريقة تقسيم الميراث فذهبا كلاهما إلى الحاكم ليحكم بينهما بالعدل، وفي الطريق رأيا جنازة أحد الأغنياء بالمدينة في طريقها إلى المقابر، فسأل بولا أحد المشيعين عن هذا الرجل الميت. فأخبره الرجل أنه أرخن عظيم، ذو أموال كثيرة ومات اليوم وها الناس يحملونه إلى القبر على الأعناق دون أن يأخذ من أمواله شيئاً سوى الكفن الذي كفنوه به.

فلما سمع بولا الشاب هذا الكلام أفاق لنفسه وانكشف له بطلان العالم فرجع ولم يذهب إلى الحاكم وأثناء رجوعه مع أخيه غافله واختفى عنه، وطلب إلى الرب أن يهديه إلى مكان يعبده فيه إلى النفس الأخير فهداه الرب بواسطة الملاك إلى مغارة في داخل الصحراء الشرقية بجانبها عين ماء، فعاش هناك ما

---

(١) بستان الرهبان ص.٥

يقرب من ٩٠ سنة، كان يعوله الله أثناءها بواسطة غراب يحمل إليه مساء كل يوم نصف خبزة. (١)

إن هذه الفكرة كانت سبب خروج كثيرين من العالم إلى البرية، وهذا ما حدث في أيامنا بعد حرب ١٩٧٣م. إذ بعد رجوع عدد كبير ممن اشتركوا في الحرب أحياء بعد أن كانوا في عداد الموتى، خرجوا من العالم ذاهبين إلى الأديرة ليعيشوا أمواتاً عن العالم بإرادتهم.

ترتسم أمام الراهب فكرة الموت ويبدأ يعيشها حينما يرسم راهباً ويصلى عليه كل صلوات الأموات.

إن رؤية الراهب للموت تكون بعيدة وضعيفة وقت دخوله الدير في بداية حياته الرهبانية، ولكن سرعان ما تتضح رؤيته له، ويشعر أنه على بعد خطوات معدودة منه، كلما مرت عليه السنين في الدير. وهو يشبه من ينظر هدفاً على بعد عدة كيلومترات، وكلما مشى نحوه كلما ترآى له الهدف أوضح وشعر أنه يقترب منه وأوشك على بلوغه.

(١) عن كتاب السمو الرهباني لنيافة الأنبا متاؤس ص١٨٦.

فالراهب عندما يبلغ من العمر في الحياة الرهبانية عشرين أو ثلاثين سنة يقول لنفسه كم من السنين سوف أعيشها خمس سنين أو عشر سنين إنها في نظره أيام قليلة سوف تمر بسرعة.

إن اشتياق الراهب للحياة الأبدية دفعه إلى الدخول في الحياة الرهبانية. لأنه يؤمن أنه لن يدخل الحياة الأبدية إلا بعد الموت.ونظراً لاشتياقه المتأجج أراد أن يموت عن العالم بإرادته ويذهب إلى الدير ويصير راهباً، لعله يجد فيه ضالته التي ينتظرها، ويتمتع بها إلى حين خروج نفسه من جسده وانتقاله إلى الحياة الأبدية.

إن تذكار الراهب للموت واشتهاءه كل حين، علامة على تشوقه للحياة الأبدية. بل كلما زادت شهوته للحياة الأبدية، كلما كان تذكار الموت يتصور أمامه في كل لحظة تمر عليه. ولذلك قال مار إسحاق " التاجر عينه نحو البر والراهب يرمق ساعة الموت " (١). إنه يقول مع بولس الرسول " لي اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح فذاك أفضل جداً " (في ١: ٢٣). **وقال أيضاً مار إسحاق** " التاجر إذا أكمل وأتم ما يخصه فأنه يجتهد في أن يمضي إلى منزله. والراهب بمقدار ما يعوزه من زمان

(١) بستان الرهبان ص١٣٤.

العمل، على ذلك الحد يحزن أن يفارق نفسه، وإذا أحس في نفسه أنه حصل على الوقت وأخذ العربون، فإنه يشتاق إلى العالم الجديد " (١).

وقالت الأم سارة " أنني أضع رجلي على السلم لأصعد فأتصور الموت قدامي قبل أن أنقل الرجل الثانية " (٢).

وقال مار إسحاق " حقاً لقد قيل أن مخافة الموت ترعب الرجل الناقص، أما الذي له في نفسه شهادة صالحة فأنه يشتهي الموت كالحياة " (٣).

قالت المغبوطة سينكليتيكي " أتظنين يا نفسي أننا سنعيش في هذه الحياة إلى الأبد؟ اسمعي ماذا يقول النبي: أني نزيل في الأرض وغريب كما كان جميع آبائي (مز ٣٨: ١٢). فكر في من عاشوا قبلك في هذا الدير الذي أنت مقيم فيه، فتدرك أن الله سينقلنا من هذا المكان كما نقل أسلافنا. فالحياة إنما هي بعد الموت. ولهذا تاق النبي إليها وصرخ إلى الله: كما تشتاق الأيل

(١) بستان الرهبان ص١٣٤.
(٢) بستان الرهبان ص٣٢١.
(٣) بستان الرهبان ص٣٠٨.

إلى ينابيع المياه كذلك تشتاق نفسي إليك يا الله ... فمتى أجيء وأظهر أمام وجه الله؟ " (مز ٤١: ١، ٢) (١).

لذلك **قال القديس يوحنا السُلمي** من ينتظر الموت في كل يوم هو لا شك فاضل، ولكن من يتوق إليه كل ساعة هو قديس" (٢).

لقد اعتبر القديسون هذه الحياة مثل سجن، ولذا قال سمعان الشيخ: الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام ... (لو ٢: ٢٩)، وكذلك اشتاق بولس إلى الموت ليكون مع المسيح (فيلبي ١: ٢٣). فإذا مقت الإنسان هذا العالم وحبه وتاق إلى السماويات، جعل نفسه عبداً للرب من كل قلبه ومن كل نفسه ودأب في ما يحن إليه وتمكن بالتالي من السيطرة على اليأس والضجر المستحوذين عليه. أما إذا لبثت النفس تحلم بالأرضيات تسربت إلى أفكارها شهوات العالم وملذاته الباطلة بأنواعها واسترخت وبالتالي سقطت في اليأس " (٣).

(١) كيف نحيا مع الله جزء ٣ ص١١٢.
(٢) السلم إلى الله إصدار دير مار جرجس الحرف ص٩٣.
(٣) كيف نحيا مع الله جزء ٣ ص١١٢.

وقد عاش **الأنبا أرسانيوس** كل أيامه وتذكار الموت لم يفارقه حتى وفاته فقال لتلاميذه وقت نياحته " إن فزع هذه الساعة ملازم لي منذ جئت إلى الرهبنة " وهكذا رقد القديس ودموعه تسيل من عينيه، فبكوه بكاءً مراً وصاروا يقبلون قدميه ويودعونه كإنسان غريب يريد السفر إلى بلده الحقيقي " (١).

ولما حضرت البابا ثاؤفيلس البطريرك الوفاة قال " طوباك يا أنبا أرسانيوس لأنك لهذه الساعة كنت تبكي كل أيام حياتك"(٢).

ودعا كثير من الآباء أولادهم الرهبان إلى تذكار الموت لما فيه من منفعة لحياتهم. **فقال القديس أنطونيوس:** " تفكر في كل يوم أنه آخر ما بقى لك في العالم، فإن ذلك ينقذك من الخطية"(٣).

وقال أيضاً الأنبا أنطونيوس: إذا قمنا في الصباح لنذكر ربما لا نبقى للمساء، وعندما نرقد لنفكر أننا ربما لا نمكث حتى الصباح. لأننا لا نعرف ما هي أيام حياتنا. إنها معروفة لدى الله.

---

(١) بستان الرهبان ص٥٤، ٥٥.
(٢) بستان الرهبان ص٥٤، ٥٥.
(٣) بستان الرهبان ص٣٠٨.

ونحن إن مارسنا هذا العمل يومياً لن نخطيء ولن نفعل شراً أمام الله، لن نشته أشياء هذا العالم، لن نغضب أحداً، ونكون كمن ينتظرون الموت " (١).

وقال مار إسحاق: " إذا قمت باكر كل يوم، أذكر أنك سوف تعطي جواباً لله عما صنعت فلن تخطيء مرة أخرى، فكر كل يوم أنه ليس لك في العالم سوى يومك الذي أنت فيه فلن تخطيء أبداً " (٢).

وقال شيخ: " كل من يجعل الموت مقابله كل حين، فإنه يغلب الضجر وصغر النفس " (٣).

قيل لشيخ: " لماذا لا تضجر يا أبتاه؟ " فقال " لأني في كل يوم أتوقع الموت " (٤)

وقال أنبا أبرآم: " يا أخي في كافة أعمالك تذكر أواخرك فلا تخطيء أبداً " (٥).

---

(١) بستان الرهبان ص٢٧٣.
(٢) بستان الرهبان ص٣٠٨.
(٣) بستان الرهبان ص٣٢١.
(٤) بستان الرهبان ص٣٢١.
(٥) بستان الرهبان ص٣٢١.

من أقوال **القديس أوغريس:** " إن من كان همه في تذكار الموت، فذلك يهديه بخوف الله " (١).

وقال آخر " إذ قد علمت أنك ستأتي للدينونة فاسع فيما يخلص نفسك منها أذكر الموت وتأهب لموافاته " (٢).

وكان **الشيخ أنبا مكاريوس** يقول " جيد أن يضع الإنسان نصب عينيه في كل وقت هذه الأمور الرئيسية الثلاثة: تذكر موته أمام عينيه في كل ساعة، وأن يموت عن كل إنسان، وأن يكون دائماً مخلصاً للرب في قلبه. لأنه إن لم يكن للإنسان ذكر لموته أمام عينيه في كل الأوقات فلن يمكنه أن يموت عن كل إنسان، وإن لم يمت عن كل إنسان فلن يمكنه أن يكون مخلصاً أمام الله " (٣).

إن بُعد الراهب عن العالم والخلطة بالعلمانيين، تزيد في داخله تذكار الموت، بل وتجعله يستحوذ على كل فكره وسلوكه كل حين دون انقطاع، بينما الإنسان الذي يعيش في العالم تلهيه الحياة بمشاكلها وهمومها عن تذكار الموت حتى وإن

(١) بستان الرهبان ص٣٢٢.
(٢) بستان الرهبان ص٢٤٣.
(٣) فردوس الآباء جزء ١ ص٢٦١.

أتاه تذكر الموت غالباً ما يكون بسبب سماعه أو رؤيته خبر موت شخص عزيز عليه. وهذا التذكر للموت لا يدوم تأثيره سوى ساعات قليلة أو لأيام قليلة جداً.

إن تذكار الموت هو أقوى المقومات التي تساعد الراهب على بلوغ هدفه. فإن تذكار الراهب للموت يجعله يتطلع إلى ما بعد الموت أي للحياة الأبدية. كما أن شعور الراهب باقترابه من الموت يعطيه قوة الشعور باقترابه من الحياة الأبدية.

(ب) حياة التجرد

حينما يترك الراهب العالم ويذهب إلى الدير، يتجرد كلية من كل ما هو عالمي أو يتعرى من كل الأمور العالمية ويرتدي ثياب البر والفضيلة. وهذا ما يحدث عند قبول الأخ في الدير، فإنه يخلع عنه ملابسه التي كان يرتديها في العالم ويتجرد منها ويرتدي عوضاً عنها ملابس أخرى بيضاء، وعند سيامته راهباً يقص شعر رأسه أيضاً إشارة إلى قص كل أفكار العالم من فكره والتجرد من أفكار العالم واستبدالها بأفكار مقدسة طاهرة.

إن حياة التجرد التي يسلكها الراهب منذ دخوله الدير، تساعده على التحرك نحو الهدف الذي من أجله ترك العالم ودخل الدير، لأن عدم التجرد والتعري من كل ما هو عالمي

يكون عائقاً له من التحرك نحو الهدف الذي خرج من أجله إلى الدير. بل كلما نما متدرجاً في حياة التجرد، كلما نمت وازدادت سرعته واقترابه صوب الحياة الأبدية. وعندما يصل للتجرد الكامل يجد نفسه أمام أبواب الحياة الأبدية.

وقال القديس مكاريوس:

" كمثل إنسان إذا دخل الحمام، إن لم يخلع عنه ثيابه لا ينعم بالاستحمام، كذلك الإنسان الذي أقدم على الرهبنة ولم يتعرّ أولاً من كل اهتمام العالم وجميع شهواته وملذاته، فلن يستطيع أن يصير راهباً ولن يبلغ حد الفضيلة، ولن يمكنه كذلك أن يقف قبالة جميع سهام العدو التي هي شهوات النفس " (١).

وقال شيخ: " إن الله لا يشاء أن يكون الراهب الحريص المجاهد بالحقيقة مرتبطاً البتة بشيء من متاع هذه الدنيا، حتى ولا إبرة صغيرة، لئلا تفصل فكره عن ذكر ربنا يسوع المسيح، وتشغله عن الإلحاح (المثابرة) في التوبة عن خطاياه، كل إنسان قد ذاق حلاوة المسكنة، يستثقل الثوب الذي يلبسه، والكوز الذي يشرب فيه الماء، لأن عقله قد اشتغل بأشياء أخرى

(١) بستان الرهبان ص١٧٤.

روحانية، فالذي لم يبغض بعد متاع الدنيا، كيف يقدر أن يبغض نفسه، كما قال السيد المسيح؟ " (١).

وقال مار أفرام: " إن تهاونت بالأشياء البالية، تنال الأشياء التي لا تبلى، ليكن عقلنا إلى فوق، لأننا بعد مدة يسيرة ننصرف من ههنا، فالأشياء التي جمعناها لمن تكون؟ " (٢).

وقال القديس إبيفانيوس عند خروج نفسه " لا تحبوا متاع الدنيا فتستريحون وتفرحون في الآخرة، تحفظوا من ملذات العالم، فلا يقوى عليكم وجع الشيطان " (٣).

فلا شك أن الراهب الذي تجرد من كل الارتباطات الدنيوية كالزوجة والأولاد والأهل والأصدقاء والمجاملات ... وكذلك تجرد من الممتلكات العالمية كالمال والعقارات والأطيان ... يكون تحركه سريعاً جداً للهدف الذي يتطلع إليه كل حين، ولن تصبح هذه الأشياء عائقاً له في تحركه إلى الحياة الأبدية، بل كلما حاول العالم قيده بهذه الرباطات لتكون عائقاً له عن السير نحو

(١) بستان الرهبان ص١٧٧.
(٢) بستان الرهبان ص١٧٨.
(٣) بستان الرهبان ص١٧٨.

هدفه السامي، تجرد منها بسهولة وحسبها نفاية بالنسبة لأمجاد الحياة الأبدية التي يراها بعين الإيمان كل حين.

وحينما يصل الراهب إلى هذا الحد من التجرد، يسعى في التجرد من ذاته ومن كرامته أيضاً، هنا يُحسَب عنده الإكرام كالهوان والمديح كالسب، وعندما يبلغ هذا الحد يعاين الأمجاد السماوية وهو ما زال في الجسد. كما قال أنبا مكاريوس " إذا حسبت التحقير كالإكرام واللوم كالمديح والفقر كالثراء فإنك لا تموت " (١).

فعندما ترى النعمة، تجرد الراهب وتعريه من كل محبة للمقتنيات الأرضية، تكسوه بفضائل روحية. وعندما يزداد الراهب في تجرده تزداد أيضاً فضائله وتناله قوة واستنارة واشتياق نحو البلوغ إلى الحياة الأبدية. أو بمعنى آخر تجرد الراهب من محبة المقتنيات الأرضية تزيد محبته لله، وبالتالي يزداد اشتياقه وسعيه نحو الحياة الأبدية.

فيقول مار إسحاق: " حل قلبك من الرباطات البرانية أولاً، حينئذ تقدر أن تربطه بحب الله " (٢).

---

(١) بستان الرهبان ص١٧٦.

(٢) بستان الرهبان ص٤٦١.

ويقول أيضاً " من لم يفطم نفسه من حب الدنيا، لا يستطيع أن يذوق حلاوة محبة الله " (١).

وقال أنبا أغاثون: " إن كنت مشتاقاً إلى ملك السماء فأترك غنى العالم " (٢).

وقال مار إسحاق: " المرتبط بالمقتنيات والملذات فهو عبد للأوجاع الذميمة " (٣).

وقال أنبا أغاثون " إن محبة المقتنيات متعبة جداً تؤدي إلى نهاية مريرة لأنها تسبب اضطراباً شديداً جداً للنفس، فسبيلنا أن نطردها منذ البدء لأنها إن أزمنت فينا صار اقتلاعها صعباً " (٤).

إن تمسك الراهب بحب القنية وعدم التجرد منها تعميه عن رؤية الحياة الأبدية. لذلك قال الأنبا موسى الأسود " محبة المقتنيات تزعج القلب، والزهد فيها يمنحه استنارة " (٥).

---

(١) بستان الرهبان ص٤٦١.

(٢) بستان الرهبان ص١٧١.

(٣) بستان الرهبان ص١٧١.

(٤) بستان الرهبان ص١٧١.

(٥) بستان الرهبان ص١٧١.

وقال القديس يوحنا القصير: " لا يكن بين عينيك شيء مشتهى لكيما تبصر الله، اعلم أنك راهب ولا ينبغي لك أن ترتبط بشيء ما " (١).

وقال أيضاً: " تمسكن بالتخلي عن كل شيء يشغل العقل، لا عن المقتنيات فقط بل وعن النظر والسمع والكلام كنحو قوتك، لأن الحواس هي رباطات الإنسان الباطن وبها حياته"(٢).

ولذلك امتدح آباء الرهبنة الكبار حياة التجرد، وشجعوا أولادهم عليها. **فقال أنبا مكاريوس:** " إن أعمال الرهبنة جميلة، ولكن أعظمها جميعاً هو الفقر الاختياري " (٣). " ولما سُئلت **القديسة المغبوطة سفرنيكي** مرة إن كان عدم الاقتناء صلاحاً كاملاً فأجابت بأن ذلك هو حد الصلاح لمن أمكنهم ذلك، لأن الذين يصبرون على عدم الاقتناء يكون لهم حزن بالجسم، ونياح بالروح، وهدوء في أنفسهم، كمثل الثياب الجلد التي تداس

(١) بستان الرهبان ص٤٠٦.
(٢) بستان الرهبان ص٤٠٦.
(٣) بستان الرهبان ص١٧٤.

بشدة وتقلب وتغسل فتنظف، هكذا أيضاً النفس الشديدة بالفقر فأنها تتشدد وتنظف " (١).

وقال أنبا أنطونيوس " لا تبق لك أكثر من حاجتك، ولا تدفع أكثر من طاقتك " (٢).

(ج) حياة الغربة

عرفنا من قبل أن الإنسان مخلوق سماوي، خلقه الله ووضعه في جنة عدن، حتى يسبح الله ويتمتع بالوجود معه. وكان قصد الله أن يُبقي الإنسان في الفردوس موطنه الأصلي. ولكن بعد أن أخطأ بغواية الحية (تك ٣) طُرد من الجنة إلى أرض الشقاء كعقوبة على مخالفته وصية الله، فكان على كل إنسان أن يقضي فترة العقوبة منفياً على الأرض، حتى تنتهي مدة النفي التي سمح بها الله وحددها لكل إنسان، ثم يرجع مرة أخرى إلى موطنه الأصلي أي إلى السماء.

بهذا الفكر عاش آباؤنا الرهبان متغربين في الجبال والبراري وشقوق الأرض " وأقروا بأنهم غرباء ونزلاء على الأرض لأنهم كانوا يبتغون وطناً أفضل أي سماوياً " (عب ١١: ١٦)

(١) بستان الرهبان ص١٧٢.
(٢) بستان الرهبان ص١٧١.

ولازمهم هذا الفكر كل أيام غربتهم في الدير، فعاشوا وهم مشتاقون للرجوع إلى وطنهم السماوي، وكانت قلوبهم تنبض بالحنين كل حين للرجوع إليه. فكانوا يقولون قول **القديس برصنوفيوس** " غرباء نحن فلنكن غرباء بالكمال " (١). **وقول شيخ آخر:** " حينما تجلس قل غريب أنا، غريب أنا " (٢).

ومشاعر الغربة هذه ألهبت قلوبهم بالنظر كل حين إلى الحياة الأبدية، كهدف أسمى في حياتهم داخل الدير. وعاشوا وشعارهم يرددونه مع بولس الرسول " ليس لنا هنا مدينة باقية لكننا نطلب العتيدة " (عب ١٣: ١٤). " إن نقض بيت خيمتنا الأرضي فلنا في السموات بناء من الله غير مصنوع بيد، أبدي " (٢كو ٥: ١، ٢). " نثق ونسر بالأولى أن نتغرب عن الجسد ونستوطن عند الرب " (٢كو ٥: ٨). لذلك قال شيخ: " كن كل يوم بمنزلة الغريب الذي يترجى الرجوع بالغداة " (٣).

ولهذا عاش آباؤنا الرهبان معوزين متضايقين لا يملكون شيئاً على الأرض ولا يريدون أن يملكوا شيئاً عليها. بل هم يشبهون

(١) بستان الرهبان ص١٦٢.
(٢) بستان الرهبان ص٣١٤.
(٣) بستان الرهبان ص٤١٣.

مَنْ ذهب ليعمل في أرض غريبة، مدخراً مالاً لحين رجوعه إلى وطنه الأصلي حتى يشتري به أرضاً أو يبني هناك بيتاً .... إن الراهب في الدير يعلم جيداً أنه في أرض غريبة عليه أن يعمل ويجاهد في زمن الغربة، لكي يدخر فضائل كثيرة، يستطيع أن يشتري بها الحقل الذي به الجوهرة الكثيرة الثمن التي هي الحياة الأبدية حيث يوجد فيها ربنا يسوع المسيح.

لذلك **قال القديس أرسانيوس** " إن الراهب غريب في أرض غريبة، فإذا أراد أن يجد راحته فعليه أن لا يشغل نفسه بأي شيء فيها " (١).

فالراهب متيقن أنه مهما طالت أيامه على الأرض، فحتماً سوف يرجع إلى وطنه الأصلي. فلماذا إذاً يشتري حقولاً وبيوتاً؟ ولماذا يتاجر ويدخر مالاً؟ ولمن يشتري ويدخر فلا يعدو وجوده على الأرض سوى أنه في مأمورية، وسوف تنتهي عاجلاً أم آجلاً " فالوقت منذ الآن مقصر " (١كو ٧: ٢٩)، " لأن هيئة هذا العالم تزول " (١كو ٧: ٣١).

إن حياة الراهب في الدير تساعده على رؤية الهدف السامي الذي خرج من أجله بوضوح. لأن طبيعة الحياة في الدير تشبه

(١) بستان الرهبان ص١٧٤.

إلى حد كبير طبيعة الحياة التي سوف يعيشها في السماء، فلغة الرهبان هي التسبيح الدائم وهي أيضاً لغة الملائكة في السماء، أما جنسيته فهي راهب أو قل بشر سماوي وهي جنسية تماثل جنسية من في السماء، كذلك فكره وسلوكه وملابسه وشكله تدل على أنه إنسان غريب جاء من وطن آخر، أو من كوكب آخر. ولهذا يعيش الراهب وفي فكره أنه يعيش في الدير سفيراً في سفارة السماء على الأرض وله إيمان أنه حتماً سيأتي الوقت الذي يرجع فيه إلى السماء.

لا شك أيضاً أن الراهب لأنه يعيش في البرية بعيداً عن الخلطة بالعالم والعلمانيين، يكون شعوره بالغربة أكثر ممن يعيشون في العالم. ولهذا السبب ينجلي أمامه الهدف السامي الذي هو الحياة الأبدية. **فيقول أنبا يعقوب** " الغربة أفضل من إضافة الغرباء " (١). **ويقول يوحنا الدرجي:** " يا من تغرب عن العالم لا تعد تدنو إليه، لأن الأهواء من طبعها تطلب العودة"(٢).

(١) بستان الرهبان ص١٧٤.

(٢) السلم إلى الله تعريب دير مار جرجس الحرف ص٤٦.

رابعاً: معوقات وضوح الهدف في الحياة الرهبانية

كما أن هناك مقومات داخل الحياة الرهبانية، تساعد على وضوح الهدف في حياة الراهب. هناك أيضاً معوقات إن لم ينتبه الراهب إليها تصبح عائقاً له يعيقه عن رؤية الهدف الأسمى.

واستمرار الراهب متمسكاً بهذه المعوقات مدة طويلة، تؤدي إلى ضياع الهدف تماماً من أمامه، مما يعرضه إلى مخاطر جسيمة، تسوقه إلى النظر إلى خلف والسير في طريق العالم. وهذا ما فعلته امرأة لوط عند هربها من سدوم وعمورة، حيث صارت عمود ملح عند نظرها إلى خلف، وهلكت ولم تعاين الحياة (تك ١٩: ٢٦). ولهذا يقول الكتاب " ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت الله " (لو ٩: ٦٢).

ويمكن إجمال هذه المعوقات في ثلاث نقاط: الذات، العالم، الجسد:

(أ) الذات

حينما تصبح الذات هدفاً في حياة الراهب، تصبح عائقاً له، تحجب عنه رؤية الهدف الأسمى الذي خرج من أجله. ويسعى الراهب لتحقيق ذاته عن طريق:

◆ السعي نحو الوصول إلى وظائف قد تبدو أنها مميزة ولامعة داخل الدير كالريتة، الكنايسي، الزيارات، الباب، القربان ... وقد يحتاج هذا منه التقرب من رئاسة الدير أو المسئولين فيه.

ويحذرنا الآباء من الاتجاه لهذا السلوك الغير رهباني فيقول **مار إسحاق:**

الذي يحب الكرامة لا يستطيع أن ينحو من علل الهوان.([1]).

كن حقيراً ومزدرى في عيني نفسك فيكون رجاؤك عظيماً بالله. ولا تبغض من أجل أن تُكرم، ولا تحب الرئاسة ([2]).

الذي قد أحس بالراحة التي من احتقار الذات، أفضل من الذي وجد تكريماً من تاج المملكة. الذي قد أصيب بحب المديح والكرامة من الناس، ليس لجرحه شفاء، حتى ولو كان بأعمال سيرته يُقوِّم كثيرين، ففي العالم المزمع، يكون تدبير سيرته مبكتاً له بعذاب الجحيم ([3]).

([1]) بستان الرهبان ص٣٤٠.
([2]) بستان الرهبان ص٣٤٠.
([3]) بستان الرهبان ص٣٤١.

ويقول أحد الآباء: " لا تسكن في موضع لـه اسـم، ولا تجالس إنساناً عظيم الاسم " ([1]).

◆ وقد يلجأ الراهب لتحقيق ذاته عن طريق تنمية معرفته العلمية والثقافية الحديثة وخاصة المعرفة بالإلكترونيات والانترنت لإشباع ذاته بحديث إخوته عن إلمامه بكثير من المعلومات أو بالتوجه إليه بعديد من الأسئلة بغرض المعرفة أو زيادة الإيضاح منه....

ومثل هذا قد لا يكتفي بإشباع ذاته.داخل الدير، فيلجأ إلى إظهار ذاته أمام العلمانيين ليحصل منهم أيضاً على إشباع ذاته. ويحذرنا الآباء من ذلك فيقول القديس باخوميوس: " اتضع في كل شيء وإذا كنت تعرف جميع الحكمة فاجعل كلامك آخر الكل لأنك بذلك تكمل كل شيء " ([2]).

سأل أخ **الأب ميليوس** قائلاً: " أريد أن أمضي لأسكن في موضع، فماذا تريدني أن أتدبر هناك؟ " فقال له الشيخ: " إن سكنت في موضع فاحذر أن لا تُخرج لك اسماً في شيء من الأشياء، بل في كل موضع جلست فيه اتبع الكل مساوياً نفسك

([1]) بستان الرهبان ص٣٣٨.
([2]) بستان الرهبان ص٣٣٨.

هم، وكل ما تراه من أفعال الورعين الأتقياء الذين ينتفع منهم فافعله مثلهم وبذلك تتنيح. لأن هذا هو الاتضاع أن تساوي نفسك بإخوتك، حتى إذا أبصرك الناس تدخل وتخرج مع الإخوة لا يقصدونك ولن يفتنوك " (١).

قال القديس باسيليوس: " إن أردت أن تكون معروفاً عند الله، فاحرص ألا تكون معروفاً عند الناس " (٢).

قيل أيضاً " ليس هناك شفاء لوجع المفتخر، لأنه بقدر ما يتعالى بقدر ما ترتفع معرفة الله عن نفسه، وإلى عمق الظلمة يهبط " (٣).

❖ ويلجأ الراهب لتحقيق ذاته بالسعي الدءوب للحصول على الدرجات الكهنوتية والنزول إلى العالم للخدمة في إحدى الكنائس ...

ويحكي لنا بستان الرهبان عن أمثال هذه الضربات فيقول: " إنسان اسمه إبراهيم، كان راهباً قبطياً، هذا عاش في البرية عيشة يعسر تحريرها. فلما تسفه أصاب عقله مرض الكبرياء

(١) بستان الرهبان ص٣٥٤.
(٢) بستان الرهبان ص٣٤١.
(٣) بستان الرهبان ص٣٥٨.

فجاء إلى البيعة مخاصماً القسوس قائلاً: لقد سامني المسيح قسيساً في هذه الليلة فاقبلوني أكهن. فأخرجه الآباء من الكنيسة وساقوه إلى سيرة أغلظ من غيرها، فشفوه من ألم الكبرياء وعرفوه ضعفه وحققوا له أن شيطان العجرفة قد تلاهى به " (١).

مرة قوتل **أنبا مكاريوس** بالعظمة وهو في قلايته، وحثه الفكر على الخروج منها، والذهاب إلى رومية لينفع كثيرين. بحسب ما أملته عليه أفكار العظمة، فلما ألحت عليه الأفكار بذلك ألقى بنفسه داخل قلايته عند بابها، وأخرج رجليه من الباب، ثم قال لأفكار العظمة: أخرجوني إن قدرتم، فإني لن أخرج طائعاً، فإن لم يمكنكم ذلك فلن أطيعكم. ولم يزل ملقى وهو يقول هذا الكلام إلى الليل حيث اشتد عليه القتال والأفكار، وأخيراً أخذ قفة وملأها رملاً وحملها وبدأ يطوف بها البرية حتى لقيه القديس فسطوس فقال له ماذا تحمل يا أبتاه؟ اعطني إياه ولا تتعب أنت. فقال له أريد أن أشقي من يشقيني، فإنه إذا ما نالته الراحة سبب لي الأسفار والشقاء، واستمر هكذا إلى أن كفت عنه الأفكار فرجع إلى قلايته وهو يشكر الله "(٢).

(١) بستان الرهبان ص٣٦٠.
(٢) بستان الرهبان ص٣٥٩.

❖ إن أخطر ما يلجأ إليه الراهب لتحقيق ذاته هو ممارسة الفضائل ليس حباً في الله إنما لإشباع ذاته بسماع مديح إخوته الرهبان له وأيضاً ذيوع صيته إلى العلمانيين. فيمارس الصوم فوق طاقته زيادة عن إخوته الرهبان في الدير ليس حباً في الله وفي التقرب إليه، وإنما لإشباع ذاته المتعطشة للمديح. وهكذا يمارس باقي الفضائل في الصلاة والعطاء والنسك،.... بنفس الفكر والهدف.

قال شيخ: " من شأن شيطان السبح الباطل أن يعارض الرهبان بعجرفتين: إحداهما يقال لها عجرفة علمانية، لأنها ليست من مناكب السيرة، وليس أحكامها عائداً إلى نصب الإنسان وتعبه، مثال ذلك التيه تجاه الرئاسة، التباهي بشرف الجنس، الاغتباط بكثرة الغنى، بتزيين اللباس، بقوة الجسم، بفصاحة المنطق، وكل ما شابه ذلك. أما الأخرى فيقال لها عجرفة رهبانية، مثال ذلك شدة الصوم والنسك ومداومة السهر، ملازمة الصلاة، البعد عن الناس، التجرد من المقتنيات ومن كل شيء وما شابه ذلك ".

وهذه الفضائل وإن كانت مرتفعة في ذاتها، إلا أن النية السقيمة تحط من شرفها والنتيجة المتولدة من ذلك، إضاعة الأجر لأنه مكتوب " لقد استوفوا أجرهم " (١).

حَدَّثوا عن رهبان المصريين، بأنه إذا عرف الناس سر عملهم، فما كانوا يحسبونه فضيلة بل خطية (٢).

قال أخ " كما أن الكنز إذا ظهر نقص، كذلك الفضائل إذا اشتهرت وعرفت تبيد وتهلك " (٣).

قيل عن شيخ أنه قد مدحته أفكاره لأجل أعمال قد صنعها من قبل، قائلة له بأنه قد أهل للرجاء وعدم الفساد مثلاً، فأجاب الشيخ أفكاره قائلاً: إني الآن لا زلت سائراً في الطريق، وباطلاً تمدحونني، لأني لم أصل بعد إلى نهاية الطريق " (٤).

ويحذرنا **القديس يوحنا القصير** من مخاطر الذات قائلاً: " هوذا شيء رديء جداً يفسد علينا النقاوة بالكلية وهو حب الرئاسة والكرامة والمدح من الناس، فإن كل هذه الأوجاع

---

(١) بستان الرهبان ص٣٤١.
(٢) بستان الرهبان ص٣٥٤.
(٣) بستان الرهبان ص٣٥٤.
(٤) بستان الرهبان ص٣٥٠.

عظيمة ورجاء كاذب وقليلون هم الذين يتخلصون منها بالسكوت لأنها أشر من اللذات وشره البطن.

فأما حب الرئاسة والكرامة الحاضرة والسبح الباطل والارتباط به فأنه من العسير الانحلال منها لأن هذه أوجاع تلبس الإنسان بلا نهاية، فلا نطلب نحن رئاسة في هذا العالم الزائل المظلم الأرضي، فإن رئاستنا نحن وكرامتنا في العالم المضيء السمائي وحب المسيح ربنا وحده وهو يخلصنا من هذه الأوجاع " (١).

(ب) العالم

إذا وجه الراهب نظره نحو العالم يضعف من أمامه الهدف الأسمى.

❖ فكثرة نزول الراهب إلى العالم يشتت ذهنه إلى أهداف عالمية كثيرة، دون أن يرغب في ذلك، كما أنها تخمد من قلبه تذكار الموت.

❖ والخلطة الدائمة بالعلمانيين تفقد الراهب النظر والاهتمام بخلاص نفسه، بسبب انشغاله بمشاكل وأخبار العلمانيين

(١) بستان الرهبان ص ٤٧٨، ٤٧٩.

واتساخ ذهنه ونظره وكلامه وسمعه منها. لذلك قال أحد الآباء " لا تخالط علمانياً بالجملة " (١).

❖ نظر الراهب إلى العالم يدفعه إلى محبته فيبدأ في امتلاك الأراضي والمباني والسيارات والشقق ....وهذا كله يُفقد الراهب لحياة التجرد والشعور بالغربة وبالتالي عدم وضوح الهدف الأسمى.

ونكتفي هنا بما عرضناه من أقوال القديسين في الأبواب السابقة عن الأضرار التي تعود على الراهب من كثرة النزول إلى العالم والخلطة بالعلمانيين.

(ج) الجسد

التفات الراهب نحو إشباع رغباته الجسدية سواء إشباعها من الخطية أو من شهوة الطعام أو من محبة الراحة أو التزين بالملابس... تجعله لا يرى الهدف الأسمى واضحاً. وإن جذبته ووقع غائصاً في حمأتها، تصل به في النهاية إلى ضياع الهدف تماماً من أمامه ثم بعد ذلك تهلكه.

ونذكر هنا بعض أقوال الآباء عن المخاطر التي يتعرض لها الراهب من إشباع رغباته الجسدية.

(١) بستان الرهبان ص٢٣٤.

قال أنبا موسى الأسود: " زينة الجسد هزيمة للنفس، ومن يهتم بها فليست فيه مخافة الله " (١).

قال أنبا بيمن: " ممقوت عند الله كل نياح جسدي " (٢).

قال أنبا باخوميوس: " احفظ نفسك من الشهوة فهي أم جميع الخطايا والشباك، والمقتنص بها يضل عقله فلا يعود يعلم شيئاً من أسرار الله " (٣).

قال مار إسحاق: " كما أن المواد الدهنية تزيد النار اضطراماً، هكذا طراوة المأكل تنمي ألم الشهوة " (٤).

قال أنبا أنطونيوس: " احذر من أن تحب بلوغ شهواتك وأغراضك، وأبغض كل أعمال الدنيا وأرفضها فإنها تبعد الإنسان عن الله " (٥).

قال أنبا موسى الأسود: " ابغض شهوة البطن لئلا يحيط بك عماليق، ضبط شهوة البطن يقلل من تأثيرات الشهوات،

(١) بستان الرهبان ص٢٠٠.
(٢) بستان الرهبان ص٢٠٠.
(٣) بستان الرهبان ص٢٠١.
(٤) بستان الرهبان ص٢٠١.
(٥) بستان الرهبان ص٢٠١.

شهوة الأطعمة توقظ الغرائز والانفعالات، والامتناع عنها يقمعها، شهوة البطن أساس كل الأوجاع " (١).

قال أنبا أنطونيوس: " ابغض الجسد وأرفض لذاته فأنها ممتلئة شروراً، ولا تنم إلا يسيراً بقدر " (٢).

قال أنبا موسى الأسود: " أهم أسلحة الفضائل هي إتعاب الجسد بمعرفة، والكسل والتواني يولد المحاربات " (٣).

قال أنبا موسى الأسود: " اتعب جسدك لئلا تخزى في قيامة الصديقين " (٤).

قال شيخ: " يتقدم كل الفضائل احتقار الإنسان للراحات، الذي يغذي جسده بالراحة في بلد السلام، فإنه ينضغط بالضيقة، والذي يتنعم في شبابه يكون عبداً في شيخوخته وفي الآخر يتنهد"(٥).

كان أخ مقاتلاً بالزنا، فسأل شيخاً أن يبتهل في أمره لكي لا يقهره الشيطان، فسأل الشيخ الله في أمره سبعة أيام وبعدها

(١)بستان الرهبان ص٢٠١.
(٢) بستان الرهبان ص٢٠٢.
(٣) بستان الرهبان ص٢١٨.
(٤) بستان الرهبان ص٢١٨.
(٥) بستان الرهبان ص٢١٨.

سأل الأخ عن حاله فقال له: لم يخف القتال بعد. فتعجب الشيخ لذلك، وإذا بالشيطان قد ظهر له قائلاً: أما أنا فمنذ اليوم الأول من ابتهالك إلى الله بشأنه انصرفت عنه، إنما هو يقاتل ذاته وحده لأنه يأكل ويشرب وينام كثيراً " (١).

خامساً: تأثير وضوح الهدف في حياة الراهب

من المهم جداً أن يكون للراهب هدف واضح في حياته داخل الدير. لأن وضوح الهدف أمامه يشكل سلوكه وحياته كلها. ويعطي لها معنى وكياناً. ولذا قال **الأنبا أنطونيوس:** " جدد عهد رهبانيتك كل يوم " أي كل يوم أزل عن هدفك الرهباني، الذي خرجت من أجله، كل ما يمنع وضوحه، حتى يبدو لك لامعاً كل حين.

ويمكننا إدراك مدى تأثير وضوح الهدف في حياة الراهب من خلال سلوكه وجديته والتزامه في حياته الرهبانية، عن غيره ممن يعيشون بلا هدف واضح. ونظهر هنا بعض هذه التأثيرات الناتجة عن وضوح الهدف على حياة الراهب:

(١) بستان الرهبان ص٣٦٦.

١ — الراهب الذي يتضح الهدف أمامه، تكون لحياته داخل القلاية معنى، لأنه داخلها يمارس جهاداً مستمراً لا يتوقف، رغبة واشتياقاً للبلوغ إلى الهدف. فيصلي صلواته بحرارة وجدية مع التزام، وما أن ينتهي منها حتى يبدأ في قراءة الكتاب المقدس، ثم يقرأ الكتب الروحية، بعدها يضرب ميطانيات كل هذا مع أصوام وأسهار طوال وقته ... أما الراهب الذي يعيش بلا هدف واضح أمامه، تصبح حياته بلا معنى. لا يعرف سبباً لوجوده في الدير، فيضيع وقته في أي شيء، يضيعه في كلام فارغ أو في زيارات وجلسات غير نافعة تجده دائماً خارج قلايته يطوف من هنا إلى هناك بلا أي هدف. لا يعرف كيف يستثمر وقته في العمل الصالح، يشعر دائماً بالملل والضجر، بل يشعر بعدم أهمية الحياة الرهبانية ووجود الرهبان في الدير.

٢ — وضوح الهدف أمام الراهب، يشجعه على أن يعيش حياة الاستعداد بصفة دائمة، لأنه يشعر أنه قريب جداً من الوصول إليه، لذا فهو ينادي الله كل وقت قائلاً " مستعد قلبي يا الله مستعد قلبي " (مز ٥٧: ٧). " آمين تعال أيها الرب يسوع " (رؤ ٢٢: ٢١).

٣ – وضوح الهدف أمام الراهب يمنحه ثقة عميقة داخل قلبه بنواله، وهذا ما يعطيه الفرح والسلام والطمأنينة. وينعكس هذا على حياته الداخلية وفي معاملاته داخل الدير مع إخوته الرهبان.

أما الراهب الذي يعيش دون أن يرى الهدف واضحاً أمامه، فإلى جانب اضطراب حياته الداخلية لعدم ثقته من بلوغ الهدف، فإن الاضطراب والانزعاج يكون واضحاً أيضاً في تعاملاته وسلوكه مع إخوته الرهبان.

٤ – التاجر الذي يرى الأرباح التي سينالها، يهون عليه تعب البيع والتجوال ببضاعته. والراهب الذي يرى الأمجاد التي سينالها عندما يصل إلى الهدف يهون عليه مشاق الطريق الرهباني وحمل الصليب. ولهذا كلما اتضح الهدف أمام الراهب، كلما زاد في جهاده وفي جديته والتزامه بل وحسبها لا شيء بالنسبة لما سيناله عندما يبلغ الهدف.

فإن كان الأمر يحتاج إلى قطع الخطية من حياته، أو لجهاد مستميت في الفضيلة، أو لأي شيء مهما كان، فهذا يعد نفاية ولا قيمة له إذا قورن بالجوهرة الكثيرة الثمن التي سيحصل عليها.

والراهب الذي يرى الهدف واضحاً، يجاهد في صلاته وأصوامه و..... بفرح. ولا يشعر بثقل عند إتمام قانونه الرهباني. بينما الراهب الذي يعيش والهدف غير واضح أمامه، فهو يشعر بثقل وملل عند إتمام صلواته وأصوامه.

٥ – حينما يكون الهدف واضحاً في حياة الراهب، يجذبه إليه بقوة، فلا يلتفت لأي أهداف جانبية أخرى، ولا يكون لها أي تأثير عليه. فإن حاول العالم أو الجسد أو الذات جذب الراهب إليه، لا يعطي أدنى اهتمام لأن هذا سوف يجعله ينحرف عن الطريق الصحيح الذي يؤدي إلى هدفه الأسمى.

وضوح الهدف إحدى البركات الرهبانية التي يتمتع بها الراهب الذي يعيش في الدير، عن غيره ممن يعيشون في بحر العالم المضطرب.

(٨)

نقاوة القلب في الحياة الرهبانية

أولاً: تعريفات

النقاوة وحدها

الطهارة والنقاوة

نقاوة الفكر ونقاوة القلب

نقاوة القلب

ثانياً: الحياة الرهبانية دعوة للرجوع إلى لنقاوة الأولى

ثالثاً: أنواع النقاوة

(أ) نقاوة خارجية

(ب) نقاوة داخلية

رابعاً: كيف يصل الراهب إلى نقاوة القلب؟

(أ) مرحلة الجهاد السلبي

(ب) مرحلة الجهاد الإيجابي

خامساً: أهم العوامل التي تساعد على نقاوة القلب

(أ) التوبة اليومية، والاعتراف المنتظم

(ب) نقاوة الجو الروحي داخل الدير

(جـ) الصلاة الدائمة

(د) الكتاب المقدس كلمة الله

سادساً: ثمار نقاوة قلب الراهب

١ – معاينة الله في كل شيء يراه من حوله

٢ – رؤية كل شيء نقياً

٣ – طيبة القلب والرحمة على كل الخليقة

٤ – اتساع القلب

٥ – الحس المرهف لأقل خطية

٦ – النمو السريع والمستمر نحو الله

٧ – الالتصاق الدائم بالله

سابعاً: نقاوة القلب امتداد لحياة الملكوت

أولاً: تعريفات

◆ **ما هي النقاوة؟ وما هو حدها؟ يجيب عليها مار إسحاق السرياني قائلاً:**

النقاوة هي تجاهل كل أنواع المعرفة التي ليست في الأصل من طبيعة النفس النقية بل أوجدها طبيعة العالم وحكمته الغاشة.

أما حدها فإننا نتحرر من هذه المعرفة الغريبة عن الطبع الروحاني إلى درجة نصل فيها إلى البساطة الأولى وكمال الطبيعة التي للطفل ([1]).

أما الأنبا إشعياء فيقول: " **النقاوة** هي عقل متيقظ وحس ملتصق بالله. فلننق قلوبنا وأجسادنا من الشهوة الردية لكيما نخلص من النجاسة " ([2]).

أما الفرق بين الطهارة والنقاوة، **فيجيب عليها قداسة البابا شنوده الثالث قائلاً:**

الطهارة – في كثير من مفهوماتها – سلبية في قداستها، تعني البعد عن النجاسة والخطية.

([1]) حياة الصلاة الأرثوذكسية طبعة دير السريان ص٢٨٣.

([2]) بستان الرهبان ص١٥٠.

ثانياً: الحياة الرهبانية دعوة للرجوع إلى النقاوة الأولى

حينما خلق الله الإنسان الأول، خلقه على صورته ومثاله، ووضعه في جنة عدن. فكان آدم وحواء نقيين بسيطين، لا يعرفان شراً، وكانا عريانين وهما لا يخجلان (تك ٢: ٢٥)، بل وهما لا يشعران بذلك، لأن قلبهما النقي لا يرى هذا العري شراً.

ولكن بعد أن أكلا من شجرة المعرفة، عرفا الشر وفقدا نقاوتهما بالخطية. ودخلا في ثنائية الخير والشر. ولما كثر الشر على الأرض، فقد الإنسان نقاوته وأصبح من الصعب عليه أن يتخلص من معرفة الشر طالما يوجد على الأرض، ولكن عليه أن يختار فقط الخير ويسلك فيه.

لذلك **قال القديس مكاريوس الكبير** " فيلزم أن تطلب مصباحاً تنيره لتصل إلى حقيقة نفسك الطاهرة وأفكارك النقية بطبعها الأول ([1]).

ويقول مار إسحاق: " إن مسرة الله هي أن نكون أنقياء مثل ما خُلقنا. فنحن نُحزنه حينما نغير الشيء الذي خلقنا عليه، فالنفس على صورة الله النقية خُلقت، إلا أننا أبدلنا هذه النقاوة

([1]) حياة الصلاة الأرثوذكسية طبعة دير السريان ص٢٨٤.

بما يخالفها، لأنها يوم خُلقت كانت فيها استطاعة أن تنظر الله بدالة. ونحن الذين ضللنا بعيداً عنه وتعبدنا لآلام العالم والجسد ([1]).

ويقول أيضاً " إذا انقلع من النفس زرع الشرور التي زرعها الشيطان ونبت زرع الطبع (الأصل) الذي حجبته الشرور والآلام، حينئذ يشرق للصديقين نور عدم التألم وللأتقياء بقلوبهم الفرح والسلام " ([2])

الأنفس المظلمة النجسة لا تقدر أن تنظر ولا بنى جنسها وهي عادمة النظر لذواتها وبعضها بعضاً، فإن هي تنقت وتطهرت ورجعت لخلقتها الأولى، تنير ضوئياً بهذه الثلاث رتب أعني بالذي أقل منها وبالذي أعلى منها وتنظر بعضها بعضاً([3]).

ولما صعب على الإنسان أن يعيش في نقاء بسبب كثرة الشرور والعثرات الموجودة في العالم، خرج منه البعض قاصدين البرية ليترهبوا في الأديرة سعياً للرجوع إلى حياة النقاوة الأولى التي كان عليها أبوانا في الجنة. وعاش الرهبان في الأديرة مجاهدين في حياة الإماتة والبعد عن معرفة الخطية.

([1]) حياة الصلاة الأرثوذكسية طبعة دير السريان ص٢٨٨.
([2]) الحياة مع المسيح لنيافة الأنبا متاؤس ص٣٠٤.
([3]) الحياة مع المسيح لنيافة الأنبا متاؤس ص٥٦.

ومع أن حياة الرهبان الذين يعيشون في الأديرة أكثر نقاءً ممن يعيشون في العالم، إلا أنه ينبغي أن نعي الحقيقة بعيداً عن الرومانسية الروحانية، والتي تؤكد أن الإنسان طالما يعيش على الأرض فلابد له أن يتعرض للشر، سواء كان هذا الإنسان يعيش في العالم أو راهب يعيش في الدير.

لذلك **قال قداسة البابا شنوده الثالث:** " أقصى ما نصل إليه حالياً، هو أنه مع معرفتنا للخير والشر، نختار الخير ونسير فيه. أما إننا لا نعرف الشر إطلاقاً فهذه درجة عالية لن نصل إليها على الأرض. إنما ستوهب لنا في الأبدية، حينما نلفظ الثمرة التي أكلناها. وحينئذ لا نعرف سوى الخير فقط، ونتخلص من ثنائية الخير والشر " (١).

ثالثاً: أنواع النقاوة

هناك نوعان من النقاوة ينبغي على كل إنسان أن يسعى للتحلي بهما، وهما نقاوة خارجية ونقاوة داخلية. ونقاوة الخارج هي نقاوة الجسد أما نقاوة الداخل فهي نقاوة الروح. أو قل نقاوة الخارج نقاوة ظاهرية، أما نقاوة الداخل فهي نقاوة جوهرية.

---

(١) حياة التوبة والنقاوة ص٢٦٢ لقداسة البابا شنوده الثالث.

والإنسان الروحي هو الذي يسعى لنقاوة الداخل والتي تنضح بالنقاوة على خارجه. أما الإنسان العالمي الذي يسلك حسب الجسد، فيسعى لنقاوة الخارج، والتي لا قدرة لها على الوصول للداخل والتأثير عليه إلا قليلاً.

ونقاوة الداخل تحتاج من الإنسان جهاداً عظيماً، يستحق عليه تطويب السيد المسيح له، ومعاينته بحد الله فطوب أنقياء القلب من الداخل قائلاً " طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله" (مت ٥: ٨).

بينما نقاوة الخارج لا تحتاج من الإنسان لمثل هذا الجهاد العظيم. بل كثيراً ما يدخلها الرياء والمظهرية والإدانة وغيرها من الخطايا وهذا ما حدث بالفعل مع الفريسي الذي أدان العشار ومدح ذاته على صومه مرتين في الأسبوع، وإعطاءه العشور (لو ١٨: ٩ – ١٤) وتخلل هذا أيضاً سلوك الكتبة والفريسيين المرائين (مت ٢٣).

فالإنسان الذي تنقى من الداخل، يصير خارجه نقياً أيضاً. بينما الإنسان الذي تنقى من الخارج ليس من الضروري أن يكون داخله نقياً.

ونتعرف الآن بإسهاب على نوعي النقاوة، مع تدعيمهما بأقوال الآباء:

(أ) النقاوة الخارجية:

لا يمكن إغفال أهمية النقاوة الخارجية في حياة الراهب. فلا شك أن كلامه الوديع وهدوءه ونظراته الطاهرة وغيرها من مظاهر النقاوة الخارجية، لها التأثير القوي على الآخرين. وإن كان يجب أن ينبع النقاء الخارجي من فيض النقاء الداخلي الذي يعيشه، ليكون له التأثير القوي الفعال على كل من يتعامل معه أو يراه.

فنجد أن كلام السيد المسيح وسلوكه وحياته كلها، كان تأثيرها قوياً على الجموع. لأن أصلها من داخله النقي. وعلمنا أن نعمل مثله فقال " تعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم " (مت ١١: ٢٩). فوداعة السيد المسيح التي أذهلت الجموع نبعت من تواضع قلبه الداخلي. فكان لها تأثير على كل شخص يراه أو يسمع كلماته. ولأن وداعته نبعت من داخله فلذلك استمرت طوال حياته على الأرض.

أما إن كانت النقاوة الخارجية منبعها من الخارج فقط، فقد يكون لها تأثير ضعيف على الآخرين ولن يستمر طويلاً. وغالباً ما يشوبها المظهرية والرياء والإدانة وحب الظهور وحب المديح...

وهذا ما كان عليه الكتبة والفريسيون المراؤون، فقد أهملوا نقاوة القلب الداخلية، مهتمين فقط بالنقاوة الخارجية، فاستحقوا توبيخ السيد المسيح على ذلك فقال لهم " ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تنقون خارج الكأس والصحفة وهما من داخل مملوآن اختطافاً ودعارة. أيها الفريسي الأعمى نقِّ أولاً داخل الكأس والصحفة لكي يكون خارجهما أيضاً نقياً. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تشبهون قبوراً مبيضة تظهر من خارج جميلة وهي من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة. هكذا أنتم أيضاً من خارج تظهرون للناس أبراراً ولكنكم من داخل مشحونون رياءً و إثماً. (مت ٢٣: ٢٥ – ٢٨).

وتعلم الشعب اليهودي العبادة المظهرية من الكتبة والفريسيين، فوبخهم السيد المسيح على ذلك وقال لهم " يقترب

إلىّ هذا الشعب بفمه و يكرمني بشفتيه، وأما قلبه فمبتعد عني بعيداً. (مت ١٥: ٨)، (مر ٧: ٦).

ولذلك حذرنا السيد المسيح من التشبه بأعمالهم فقال " لكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون. (مت ٢٣: ٣). وكل أعمالهم يعملونها لكي تنظرهم الناس " (مت ٢٣: ٥).

فيقول **الأسقف أغناطيوس:** " يجب أن تتحلى نفسك بثوب مشرق البياض ليس فيه أثر للانقسام والتعقيد. خال من أفكار الشر أو النفاق والتظاهر لإرضاء الناس أو تشامخ الفكر أو إخفاء الشهوة في القلب، هذه لطخ سوداء تلوث ثوب النفس وتعطيه رائحة العبادة الفريسية " ([1]).

ويتساءل **البابا شنوده الثالث** قائلاً: " هل أؤجل النقاوة الخارجية، إلى أن أصل إلى نقاوة الداخل؟ كلا، طبعاً. إنما المقصود أنك لا تكتفي بالنقاوة الخارجية، فالله يريد القلب قبل كل شيء. احترس من الخطأ الخارجي بكل قوتك، لأن له نتائج غالباً ما تشمل غيرك أيضاً ... وفي نفس الوقت عالج الداخل بكل قوة، وبكل صبر، وبكل معونة من النعمة " ([2]).

([1]) حياة الصلاة الأرثوذكسية طبعة دير السريان العامر ص٢٨٢.

([2]) حياة التوبة والنقاوة لقداسة البابا شنوده الثالث ص٢٥٣.

يقول القديس يوحنا ذهبي الفم: " الرب لا يطلب تنسيق الكلام وتركيب الألفاظ، بل يطلب حرارة النفس وغيرتها وكل من يتقدم بهذه الغيرة والحرارة ويتكلم أمامه بما يشعر وهو راض عما يقدمه، يخرج من لدن الرب وقد نال كل شيء.

ويقول أيضاً: " ليتنا نعرف ما هي الأشياء التي تدنس الإنسان. وحينما نعرفها نهرب ونفر منها. ترى الذين يأتون الكنيسة يعتنون جيداً كيف يأتون بثياب بهية نظيفة مغتسلي الأيدي والوجوه. ولكن كيف يقدمون نفوساً نقية طاهرة أمام الله هذا لا يعنون به في كثير ولا في قليل.

لست أقول هذا لأمنعهم عن غسل اليد أو الفم، ولكن أريدهم أن يغتسلوا كما يجب من الداخل والخارج ليس بالماء فقط بل بالفضائل أيضاً!!! لأن قذارة الفم الحقيقية هي الكلام الخبيث والخداع والشتيمة وكلام الغضب وكلام السفاهة والضحك والمزاح. فإذا تيقنا لأنفسنا وتنقينا من هذه الأدناس التي منبعها القلب – حينئذ نستطيع أن نقترب إلى الصلاة في ثقة!

أما إذا كنت قد اتسخت بهذه الأمور فلماذا إذاً هذا الجهد والعناء باطلاً! تغسل فمك بالماء وتجهد نفسك مراراً كثيرة وبعد ذلك تملأه بكل قذارة الألفاظ ووسخ الحديث المميت !

أخبرني إذا حملت ذبلاً على يديك أو طيناً أتجرؤ أن تقف وتصلي؟ .. كلا بلا شك. مع أن ذلك لا يدنسك بقدر الأعمال والأقوال التي تأتيها والتي فيها كل الضرر والهلاك!

وما هذا ألا نصلي إذاً؟ نصلي ولكن ليس ونحن ملوثون بهذا الطين والوسخ الداخلي! وماذا أعمل وقد لحقني هذا الأمر؟ اغتسل وطهر ذاتك ....

كيف وما هي الوسيلة؟ ابك، تأوه، قم اعتذر لمن أهنت وصالحه، قدم الصدقة، اغسل لسانك ونظفه جيداً من كل ما يغضب الله – لئلا بصلاتك تهين الله وتغيظه بالأكثر ...

لأن من ملأ يديه ذبلاً وطيناً وأراد أن يمسك بقدميك ليتوسل إليك، فإنك تطرده طبعاً دون أن تسمع إليه. فكيف تجرؤ إذاً وأنت بمثل هذه الحالة أن تقترب من الله؟ فلسانك هو اليد التي تمدها في الصلاة! فلا تدنسه لئلا يقول لك " يا صاحب كيف دخلت إلى هنا؟ خذوه اطرحوه في الظلمة الخارجية " (مت ٢٢: ١٢)، وإذ ذاك " إذا أكثرتم الصلاة فلا أسمع لأن الموت والحياة في يد اللسان " (أم ١٨: ٢١) " وبكلامك تتبرر وبكلامك تدان " (مت ١٢: ٣٧).

لذا أنا آمرك (من قبل الرب) أن تحفظ لسانك أكثر من حدقة عينك! فاللسان هو الحصان الملكي، فإذا سرجته حسناً ودربته أن يخطو بانتظام وترتيب فالملك سيجد فيه راحته ويأخذ مكانه عليه ... أما إذا تركته يجمح بلا ترتيب هنا وهناك ويندفع ويقفز بجهالة وبلا مبالاة فيصير وحشاً مهيئاً لمطية الشيطان والأرواح النجسة.

ولا تهين لسانك وإلا فكيف يتوسل من أجلك وقد فقد ثقته وشجاعته الأدبية؟ زينه يا أخي بالاتضاع واجعله أهلاً للوقوف أمام الله املأه بالنعمة وكلام الرحمة والسلام. زينه بالتبريك من أجل كل شيء. وكل أيام حياتك جمله بحلاوة ترديد وصايا الله " إن كان أحد فيكم يظن أنه دين وهو ليس يلجم لسانه بل يخدع قلبه فديانة هذا باطلة " (يع ١: ٢٦).

ونحن إذ قد زيَّنا أنفسنا هكذا نأتي إلى إلهنا ونخر عند قدميه ليس بالجسد فقط، ولكن أيضاً بالعقل. ليتنا نعتبر من هو الذي نقترب إليه وإلى من نتوب. فنحن نقترب كثيراً من الله الذي يتطلع إليه الساروفيم فيغطون وجوههم غير مستطيعين التفرس في بهائه، والذي من منظره يرتعب الشاروبيم. نحن نقترب كثيراً من الله " الساكن في نور لا يدنى منه " (١تي ٦: ١٦).

باقترابنا إليه نعتق من الجحيم وننال غفران الخطايا وننجو من العذابات الغير المحتملة ونرتفع إلى السماء ونمنح أشياء سماوية. أقول ليتنا نخر أمامه بالجسد والعقل كليهما حتى يرفعنا عندما يرى انخفاضنا. وإذا تحدثنا إليه ليتنا نتحدث بكل خشوع ولطف ووداعة ([1]).

قال أنبا أنطونيوس: " تجرد من الشر وارتدِ البساطة، اخلع عنك العين الشريرة والبس البساطة والقلب الرحيم. لا تبغض أي إنسان، لا تمش إطلاقاً مع ذي السيرة الرديئة، بل مع من له سيرة أكمل منك ومع الذي يكمل تدبيره. لا تخش مذمة الناس، ابغض كل شيء فيه ضرر لنفسك، لا تترك إرادة الله لتعمل مشيئة الناس لكي يكون الله معك " ([2]).

قال القديس مكاريوس في عظته الأخيرة" يا أولادي احفظوا أسماعكم من كلام النميمة لتكون قلوبكم نقية، واهربوا من كل ما ينجس القلب " ([3]).

([1]) حياة الصلاة الأرثوذكسية طبعة دير السريان ص٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨.
([2]) فردوس الآباء جزء ١ ص٨٥.
([3]) بستان الرهبان ص٣٢.

ويكمل القديس مكاريوس قائلاً: " واعلموا يا أولادي، هذه الحقيقة: أن في قلب الإنسان سراً إلهياً، فمتى كان قلب الإنسان غير نقي ونيته غير صافية نحو أخيه أو صاحبه، فلابد وبكل ضرورة أن قلب أخيه يشعر بذلك مهما حاول هو أن يتحمل بلسانه نحوه. وكذلك أيضاً من جهة المحبة: إن كان قلب أخيك يحبك فلابد أن قلبك يشعر بذلك وتحبه. لذلك احرصوا بكل جهد أن لا يتغير قلب أحد منكم على صاحبه. فإن حدث أن سمع أحد كلاماً صدر من أخيه عنه و لم يتحقق أنه صحيح أو كذب، فلا يخبئه في قلبه ويحقد عليه ويبدأ أن يتحمل بلسانه نحوه وقلبه غير نقي، فهذه الحالة تولد البغضة المرة والحقد، وهي تغضب الله.

فالإنسان إذا سمع من أخيه شيئاً يوجع قلبه، عليه في الحال أن يأخذه فيما بينه ويعاتبه عليه فإن كان صحيحاً ينبهه ألا يعود إلى ذلك، وإن كان كذباً فسيزول ما في قلبه في الحال، ولكن إذا أهمل الإنسان ذلك وتركه جانباً، فإن الحقد يتولد فيه شيئاً فشيئاً، وهذا هو هلاك النفس هنا وفي الآخرة ([1]).

([1]) فردوس الآباء جزء ١ ص٣٣١.

ويقول الأب إشعياء: " الذي يقول شيئاً بينما يوجد في قلبه شيء آخر رديء تكونت كل عبادته باطلة. لا تصاحب مثل هذا الإنسان حتى لا تتلطخ بسمة الدنس (١).

ومن العجيب أن بعض الرهبان المصريين، سلكوا مسلكاً غريباً اشتهروا به، فكانوا يدارون على نقاوتهم الداخلية وفضائلهم بأعمال وسلوكيات تدخل الشك على من يراهم. وبستان الرهبان يحوي قصصاً كثيرة لقديسين سلكوا بهذا النوع كالقديسة الهبيلة والقديس موسى الأسود وغيرهم. فيحكى عن **أنبا موسى الأسود** هذا " سمع حاكم المنطقة يوماً بفضائل القديس موسى وأراد أن يراه فاتخذ طريقه إلى شيهيت فعلم الأب القديس (وكان متقدماً في السن) بهذه الزيارة، ولكي يهرب من المجد الباطل اختبأ وسط البوص في المستنقع، وفي طريقه تقابل مع الحاكم وحاشيته الكريمة، فقال له الحاكم: " أيها الرجل العجوز هل يمكن أن تعلمني أين توجد قلاية الأب موسى؟ " فرد عليه: " وماذا تريد إذن أن تساله فهو رجل متقدم في الأيام وغير مستقيم " .. فسبب هذا الحديث قلقاً للحاكم واستمر في طريقه وقرع باب الدير حيث كان الإخوة ينتظرونه،

(١) فردوس الآباء جزء ١ ص٦٩٨.

فقال لهم: " يا آبائي سمعت كلاماً كثيراً عن الأب موسى وجئت للصحراء لكي أراه، وعلى مسافة من هذا المكان تقابلت عند المستنقع مع عجوز وسألته أين قلاية الأب موسى فرد علي أن في الذهاب إليه مشقة كبيرة، وهو رجل عجوز غير مستقيم.. " وكان لهذه الكلمات وقع كبير في نفوس الجميع فأخذوا يصرخون ويحتجون بشدة من ترى يكون هذا العجوز الضعيف العقل هكذا حتى يتكلم بهذه الطريقة عن الأب القديس المكرم في كل شيهيت، فقال الزائر العظيم أنه عجوز ضئيل الجسم، يلبس ملابس طويلة وبالية جداً ووجهه أسمر من الشمس، وله ذقن بيضاء طويلة ونصف رأسه خال من الشعر، وعند ذلك فهموا السر، فقد كان الحاكم قد تقابل مع الأب موسى نفسه وتصنع ذلك ووصف نفسه بالكلمات المذكورة فرجع الحاكم متأثراً جداً " (١).

(ب) النقاوة الداخلية:

اهتم السيد المسيح في تعاليمه بنقاوة الإنسان من الداخل كما رأينا كيف وبخ الكتبة والفريسيين على اهتمامهم بالخارجية فقط، وعدم الاهتمام بالنقاوة الداخلية. فقال "

(١) بستان الرهبان ص٦٦.

الصالح من كنز قلبه الصالح يخرج الصلاح، والإنسان الشرير من كنز قلبه الشرير يخرج الشر، فإنه من فضلة القلب يتكلم فمه " (لو ٦: ٤٥). حتى أنه وقت توبيخه للكتبة والفريسيين قال لهم " ليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان، بل ما يخرج من الفم ينجس الإنسان " (مت ١٥: ١١). ولما طلب منه بطرس تفسير قوله هذا قال يسوع " هل أنتم أيضاً حتى الآن غير فاهمين. ألا تفهمون بعد أن كل ما يدخل الفم يمضي إلى الجوف و يندفع إلى المخرج. وأما ما يخرج من الفم فمن القلب يصدر وذلك ينجس الإنسان، لأن من القلب تخرج أفكار شريرة قتل زنى فسق سرقة شهادة زور تجديف هذه هي التي تنجس الإنسان" (مت ١٥: ١٦ – ٢٠). ولذلك كانت تعاليمه في العظة على الجبل تحث على الاهتمام بمعالجة الداخل حتى يكون الخارج نظيفاً. فقال لهم " قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن، وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه " (مت ٥: ٢٧، ٢٨). وقال " فمتى صنعت صدقة فلا تصوت قدامك بالبوق كما يفعل المراؤون في المجامع وفي الأزقة لكي يمجدوا من الناس .... " (مت ٦: ١ – ٤). وهكذا قال أيضاً عن الصلاة " ومتى صليت فلا تكن كالمرائين ... لكي

يظهروا للناس ... أما أنت فمتى صليت فادخل مخدعك واغلق بابك ... " (مت ٦: ٥ – ٨)، " ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين ... أما أنت فمتى صمت فادهن رأسك واغسل وجهك لكي لا تظهر للناس صائماً، بل لأبيك الذي في الخفاء ... " (مت ٦: ١٦ – ١٨).

إن تتبعنا كل تعاليم السيد المسيح وأقواله لوجدناها دائماً تهتم بالنقاوة الداخلية، لأنها تعطي الصورة الحقيقية للإنسان وعليها تتحدد قيمته. مثل عملة ذهبية وأخرى مثلها من معدن رخيص ومطلية بالذهب. فعلى الرغم من تشابهما، إلا أن نقاوة معدن العملة الأولى من الداخل أظهر قيمتها الغالية، أما رداءة معدن العملة الثانية من الداخل أظهر قيمتها الرخيصة.

فقد يحفظ الإنسان حواسه نقية، فلا يخطيء بالنظر ولا باللمس ولا بالسمع، ومع ذلك قد لا يكون قلبه نقياً! كما يقول **القديس جيروم** [هناك أشخاص بتوليون بأجسادهم، ولكن أرواحهم زانية] أي أن الزنا في قلوبهم مع أن أجسادهم لم تخطيء عملياً. وكذلك قد لا يخطيء الإنسان بلسانه، ولكن قلبه قد لا يكون نقياً، ويوجد فيه الغضب والحقد والإدانة

والانتقام، ويصور كل هذا إلى فكره فيتدنس فكره أيضاً (١).

ويجب أن تكون النقاوة الداخلية نقاوة كاملة من جميع الخطايا حتى يصبح الإنسان نقياً حقاً. ولعل الفريسي الذي صلى في الهيكل وحسب نفسه أفضل من العشار لم يتنقّ داخله بالكامل رغم أنه كان يصوم مرتين في الأسبوع ويعشر كل ماله. ولكن كان في داخله شعورٌ خاطيء أنه ليس من الظالمين الخاطفين الزناة ولا مثل هذا العشار (لو ١٨: ١١، ١٢). إن نقاوته لم تكن كاملة لأنه لم يتنق من الكبرياء، ولا من إدانة الآخرين، ولا من الافتخار والبر الذاتي ... لذلك لم يخرج مبرراً.

إن النقاوة الداخلية تحتاج من الراهب جهاداً عظيماً طوال حياته، حتى يصل إلى النقاوة الداخلية. فهو يجلس كل يوم ويحاسب نفسه ويخلع منها أي زوان زرعه إبليس حتى يكون نقياً باستمرار. وهذا ما كان يعمله أحد الرهبان كل يوم إذ كان يجلس وبجانبه قفتان واحدة عن يمينه والأخرى عن يساره. وكل مرة كان يأتيه فكر مقدس، كان يضع زلطةٍ في القفة التي عن يمينه. أما إن جاءه فكر يغضب الله، وضع زلطة في القفة التي عن يساره. وعند غروب الشمس كان يعد ما وضع في كل قفة فإن

(١) تأملات في العظة على الجبل لقداسة البابا شنوده الثالث ص٧٧.

رجحت الكفة التي عن يمينه تناول الطعام، أما إن كانت الأخرى هي التي رجحت، فلا يأكل في هذا اليوم. ولهذا **قال مار إسحاق:** " كل نقاوة تأتى سهلة وفي زمان قليل وبأعمال قليلة هكذا أيضاً بسهولة تتسخ." (١) " كل نقاوة تقتنى بضوائق كثيرة وبمدة طويلة وبكل أجزاء النفس لا تخاف من ملاقاة الأمور الحقيرة " (٢)."نقاوة الضمير ليس معناها أن الإنسان لا يعرف الشر وإلا كان بهيمة، ولا الذين هم في مرحلة الطفولية ندعوهم أنقياء الضمير، وأناس لم يتجربوا أبداً، ولا ما لا يخص المخلوقين نطلب من البشر (أي لا نطلب منهم المستحيلات). لكن ذكاوة الضمير هي النقاوة بالإلهيات، وهذه تكون بعد عمل فضائل كثيرة " (٣)، **ويقول أيضاً مار إسحاق:** " إذا ما تنقى القلب دامت نقاوته ولا تتسخ سريعاً، لأنه يقتنيها بصعوبة وضيقات كثيرة " (٤).

(١) الحياة مع المسيح لنيافة الأنبا متاؤس أسقف دير السريان ص٤١.
(٢) الحياة مع المسيح لنيافة الأنبا متاؤس أسقف دير السريان ص٤١.
(٣) الحياة مع المسيح لنيافة الأنبا متاؤس أسقف دير السريان ص٤١.
(٤) حياة الصلاة الأرثوذكسية طبعة دير السريان ص٢٨٦.

الراهب الحقيقي هو الذي يهتم بنقاوة الداخل، أما الخارج فليست له أية قيمة عنده. فهو لا يهتم بزينة ملبسه أو مأكله أو كلماته ... إنما انشغاله الدائم يكون بنقاوة قلبه ونفسه ومشاعره وحواسه من أي شر تعلق بها.

إن عمل الراهب، عمل داخلي في الخفاء لا يراه سوى الله فقط وأب اعترافه. ولا يصح أن يعلنه لأي شخص آخر. فإننا نجد البعض منهم يغطي على عمله الداخلي بسلوكيات غريبة منتقدة كما سمعنا ورأينا عن سلوكيات وكلام بعض القديسين المعاصرين.

واهتم أيضاً آباء الرهبنة الأُوَّل بالنقاوة الداخلية في حياتهم، وكانوا دائماً يحثون أولادهم على ذلك في كل أمور حياتهم، لأن نقاوة الداخل تنقي الحواس الخارجية أيضاً، ونقاء الداخل مع نعمة الله تسند الراهب من الخطية حتى ولو وضع في بيئة فاسدة مثل شعاع الشمس الساقط على أماكن قذرة أو كاللؤلؤة المدفونة في الأوحال. **فقال أنبا أغاثون** لأحد أولاده: " إنني لا أسمح أن يدخل إلى قلبي فكر رديء واحد وقت أن أجذب مغزلي (أي ولا إلى لحظة قصيرة) " (١)

(١) فردوس الآباء ص٦٧١.

وقال الأنبا إشعياء: " من أراد أن يأتي إلى نياح الرهبنة ولا يتأذى من العدو، فليتباعد من الناس في كل أمر ولا يمدح إنساناً ولا يدينه ولا يزدريه ولا ينظر إلى نقائصه، ولا يحزنه في شيء ولا يترك في قلبه شيئاً عليه من أفكار العدو. لأن الإنسان الذي يتمسك بمكافأة الشر في قلبه تكون خدمته باطلة. لأن الذي لا يهتم بأحد ويلوم نفسه تكون أفكاره هادئة مستريحة، **لأن النقي يعتبر الناس جميعاً أنقياء**، أما الذي في قلبه وجع فلا يرى أحد نقياً بل يفكر في قلبه حسب أوجاعه في كل أحد، وإن سمع مديحاً لإنسان يحسده. وأقول ذلك لكي تتحفظ ألا تزدري بأحد لا بالقلب ولا باللسان " (١).

وكان **الأنبا يوحنا القصير** نقياً من الداخل حتى " قيل عنه أنه إذا أبصر إنساناً أخطأ كان يبكي بكاءً شديداً، ويقول: إن هذا أخطا اليوم ولكنه ربما يتوب، أما أنا فإني أخطيء غداً وربما لا أُعطى مهلة كي أتوب. هكذا يجب أن نفكر ولا ندين أحداً " (٢).

سأل أبا أمون الذي من " رايثو " أبا شيشوي قائلاً: " عندما أقرأ في الكتاب المقدس يريد فكري أن يرتب الكلام

(١) فردوس الآباء جزء ١ ص٦٨٦.

(٢) بستان الرهبان طبعة بني سويف ص٧٦.

لكي أجيب على أي سؤال! فقال له الشيخ: " هذا ليس ضرورياً، فمن الأفضل أن تغني نفسك بنقاوة الروح، وأن تكون بلا هم، ثم بعد ذلك تتكلم " ([1]).

وقال مار إسحاق: " كل إنسان يكون محباً للغلبة بكلامه، ماكراً بفكره، وقحاً بحواسه، لا تعاشره بالكمال لئلا يطرد منك النقاوة التي اقتنيتها بأتعاب كثيرة، ويملأ قلبك ظلاماً واضطراباً " ([2]).

ويقول القديس تيخون (من زادونسك): " يجب أن نصلي ليس فقط باللسان ولكن بالقلب. بان تخرج الصلاة أولاً من القلب لأننا في الصلاة نقدم مما في قلوبنا من رغبات وأشواق ومشاعر. لهذا يجب أن نفكر بالعقل ونشعر بالقلب في كل كلمة ورغبة يقدمها اللسان أو تلفظ بها الشفتان وإلا أصبحت صلاتنا كلاماً فقط " ([3]).

([1]) فردوس الآباء جزء ١ ص٤٥٢.
([2]) الحياة مع المسيح لنيافة الأنبا متاؤس ص٦٥.
([3]) حياة الصلاة الأرثوذكسية طبعة دير السريان ص٢٧٨، ٢٧٩.

رابعاً: كيف يصل الراهب إلى نقاوة القلب؟

حينما يصل الراهب إلى نقاوة القلب، يكون قد بلغ إلى نهاية المطاف حيث يتمتع بمعاينة الله كل حين. ولكن يتطلب منه ذلك جهاداً طويلاً ومستمراً وشاقاً جداً منذ دخوله الدير، وحينما يتنقى القلب، لا يتسخ مرة ثانية بسهولة، لأنه اقتنى نقاوته بصعوبة شديدة. كما **يقول مار إسحاق** " إذا ما تنقى القلب دامت نقاوته ولا تتسخ سريعاً، لأنه يقتنيها بصعوبة وضيقات كثيرة " ([1]).

ويقول أيضاً: " منتهي (نهاية) التوبة هو مبدأ (بداية) الطهارة، وكمال الطهارة هو بداية النقاوة. الطريق إلى الطهارة هو عمل الفضيلة أما النقاوة فتكون من فعل الاستعلانات. الطهارة هي التعري من الآلام والنقاوة هي التعري من الظنون واختلاف الضمائر إلى تحقيق معرفة الأسرار جميعاً " ([2]).

ويقول أيضاً: " نقاوة القلب الحقيقية، هي الحب الكامل التام بغير فرز لجميع طبع البشرية بالسواء. وهذا لا يمكن أن يكون بدون حفظ الوصايا، وغلبة الآلام، ونور عدم التألم،

([1]) حياة الصلاة الأرثوذكسية طبعة دير السريان ص٢٨٦.
([2]) الحياة مع المسيح لنيافة الأنبا متاؤس ص٢٨١.

ة النعمة ولا يمكن اقتناء هذا (نقـــاوة القـــب) ونحـــن كون مع كثيرين" (١).

يقول أيضاً: " الأعمال والاتضاع يجعلان الإنسان ملاكـــاً لأرض. أما الإيمان والرحمة فيوصلانه إلى النقاوة سريعاً " (٢).

هناك مرحلتان ينبغي على الراهب أن يدخل فيهما لكي ما إلى نقاوة القلب.

مرحلة الجهاد السلبي

رحلة الجهاد السلبي هي المرحلة الأولى التي يمر بها الراهب ن يصل إلى نقاوة القلب. ونقصد بهذه المرحلة، التوبة عـــن يا والشهوات، سواء كانت بالفعل أو القول أو الفكـــر أو الحواس.

الراهب الذي في مرحلة التوبة، يدخل في جهـــاد مريـــر ع غزيرة لخلع الزوان من قلبه حتى يتنقى. ثم يبدأ في غلـــق الأبواب التي يدخل منها العدو ويزرع الزوان داخل قلبه.

فلا يبدأ الراهب دفعة واحدة في غلق الأبواب لـئلا ييـــأس ا ينظر كثرة الزوان في قلبه. إنما يبدأ بغلق الفم عن كـــلام

(١) لحياة مع المسيح لنيافة الأنبا متاؤس ص٣٤٨.
(٢) لحياة مع المسيح لنيافة الأنبا متاؤس ص١٥٨.

الإدانة والنميمة والكلام البطّال. ثم يغلق نظره عن رؤية كل ما هو ضار ومعثر، وكذلك يسد أذنيه عن سماع كل ما هو باطل وغير نافع كالإدانة والتهكم على الغير ... ويسد بطنه عن كثرة المأكولات، ويغلق فكره عن أي فكر غريب يحـــاول تـــدنيس القلب ... إنها جهادات كثيرة تكلمنا عنها في بـــاب المحبـــة في المجامع الرهبانية في الجزء الخاص بعلامـــات محبـــة الراهـــب لله (الجهاد السلبي ص ٤٠).

والراهب الذي يعيش التوبة اليومية المستمرة، مع الاعتراف المنتظم على فترات متقاربة، يتنقى قلبه سريعاً من الخطايا الـــتي اتسخ بها في العالم قبل دخوله الدير. ثم يبدأ في حرثه بالجهادات الأخرى، وريه بدموع التوبة الغزيرة. حتى يتـــهيأ للـــدخول في المرحلة الثانية وهي مرحلة الجهاد الإيجابي.

إن المرارة التي يشعر بها الراهب من جراء فعل الخطية ومـــن الخجل أثناء الاعتراف بها، تحرق كل خطية بداخل قلبـــه. أمـــا دموع التوبة الساخنة، فتجلي القلـــب مـــن أدخنـــة الخطيـــة والشهوات العالقة به. فيتنقى القلب ويلمع بنور الروح القـــدس الساكن فيه.

ومعونة النعمة ولا يمكن اقتناء هذا (نقاوة القلب) ونحن مشتبكون مع كثيرين" (١).

ويقول أيضاً: " الأعمال والاتضاع يجعلان الإنسان ملاكاً على الأرض. أما الإيمان والرحمة فيوصلانه إلى النقاوة سريعاً " (٢).

وهناك مرحلتان ينبغي على الراهب أن يدخل فيهما لكي ما يصل إلى نقاوة القلب.

(أ) مرحلة الجهاد السلبي

مرحلة الجهاد السلبي هي المرحلة الأولى التي يمر بها الراهب قبل أن يصل إلى نقاوة القلب. ونقصد بهذه المرحلة، التوبة عن الخطايا والشهوات، سواء كانت بالفعل أو القول أو الفكر أو بجميع الحواس.

فالراهب الذي في مرحلة التوبة، يدخل في جهاد مرير ودموع غزيرة لخلع الزوان من قلبه حتى يتنقى. ثم يبدأ في غلق كافة الأبواب التي يدخل منها العدو ويزرع الزوان داخل قلبه.

فلا يبدأ الراهب دفعة واحدة في غلق الأبواب لئلا ييأس حينما ينظر كثرة الزوان في قلبه. إنما يبدأ بغلق الفم عن كلام

(١) الحياة مع المسيح لنيافة الأنبا متاؤس ص٣٤٨.
(٢) الحياة مع المسيح لنيافة الأنبا متاؤس ص١٥٨.

الإدانة والنميمة والكلام البطّال. ثم يغلق نظره عن رؤية كل ما هو ضار ومعثر، وكذلك يسد أذنيه عن سماع كل ما هو باطل وغير نافع كالإدانة والتهكم على الغير ... ويسد بطنه عن كثرة المأكولات، ويغلق فكره عن أي فكر غريب يحاول تدنيس القلب ... إنها جهادات كثيرة تكلمنا عنها في باب المحبة في المجامع الرهبانية في الجزء الخاص بعلامات محبة الراهب لله (الجهاد السلبي ص ٤٠).

والراهب الذي يعيش التوبة اليومية المستمرة، مع الاعتراف المنتظم على فترات متقاربة، يتنقى قلبه سريعاً من الخطايا التي اتسخ بها في العالم قبل دخوله الدير. ثم يبدأ في حرثه بالجهادات الأخرى، وريه بدموع التوبة الغزيرة. حتى يتهيأ للدخول في المرحلة الثانية وهي مرحلة الجهاد الإيجابي.

إن المرارة التي يشعر بها الراهب من جراء فعل الخطية ومن الخجل أثناء الاعتراف بها، تحرق كل خطية بداخل قلبه. أما دموع التوبة الساخنة، فتجلي القلب من أدخنة الخطية والشهوات العالقة به. فيتنقى القلب ويلمع بنور الروح القدس الساكن فيه.

والراهب الذي يسعى إلى نقاوة القلب، عليه أولاً أن يمر بمرحلة الجهاد السلبي. فلا يصح أن يدخل مرحلة الجهاد الإيجابي دون أن يمر بمرحلة الجهاد السلبي، لأنه في هذه الحالة، كلما قام بأي جهاد إيجابي في عمل الفضيلة لا يستمر فيه طويلاً إلا وتخنقه الخطايا الموجودة داخل قلبه. وبذلك لن يصل أبداً إلى نقاوة القلب. وهو هنا يشبه الفلاح الذي يزرع في حقله دون أن ينقيه من الحشائش والزوان، فقبلما تنمو النباتات تخنقها الحشائش وتميتها.

لذلك قال مار إسحاق (١):

✠ كل شهوة خاطئة انضبط القلب بحبها وشغف بها، بألف حيلة وجهاد أعمال كثيرة وربوات صلوات ودموع ينعتق منها.

✠ الذي اقتنى الفضائل العظيمة مثل الصوم والنسك والسهر وما اقتنى حراسة القلب واللسان فهو يعمل في الباطل ويتعب للريح. لأنك إذا وضعت كل أعمال التوبة في كفة والتدقيق وحفظ القلب وتنقيته في الأخرى لرجحت الأخيرة.

(١) حياة الصلاة الأرثوذكسية طبعة دير السريان ص٢٨٧، ٢٨٨.

✠ إذا حفظت عينيك وأذنيك ولسانك لكي لا يدخل إلى قلبك شيء باطل، يتنقى قلبك سريعاً.

✠ النفس التي ابتدأت تحمل الثمار البهجة هي التي تحررت من الضيق والكآبة والضجر، واتسعت لتحمل السلام والفرح بالله، وفتحت القلب رحباً لمحبة سائر الناس وجلست على بابه تطرد كلام الفكر، هذا صالح وذاك شرير، هذا بار وذاك خاطيء. ثم قامت لتجلس على عرش القلب لترتب فكر الضمير مع التمييز وتصلح حواسها بالنقاوة لئلا يفلت واحد منها فيشتغل خلسة بالغضب أو الغيرة أو الحسد فتظلم باقي الحواس.

✠ إذا كنت مشتاقاً لسلامة القلب النقي وهدوء الضمير، اقلع من قلبك شجرة معرفة الخير والشر الذي أمر الله أول جنسنا أن لا يأكل منها لئلا يموت!!!

✠ إذا جلست تفرز بين أخلاق الإخوة وتدابير سيرهم، فإنك بالضرورة سوف تخسر كثيراً، لأنك تدين الناس، وبدون أن تشعر تلوم مدبر الخليقة وتبرر نفسك فتسقط في الكبرياء — أنظر كم من الخطايا ولدتهم هذه الشجرة القاتلة!

وقال أيضاً:

" كما أنه لا يمكن أن تتنقى عين الجالس إلى جانب الدخان إلا إذا ابتعد عن المكان، هكذا لا يمكن أن نقتنى نقاوة القلب والسكون من الأفكار بدون الوحدة المبتعدة عن دخان هذا العالم الذي يغشى عيني النفس " (١).

" الفكر الذي يفحص على الدوام ضعف وعجز قريبه ويقوّم آخرين لا يدرك النقاوة " (٢).

قال مار إسحاق: " لا يوجد في سائر المعارف كمثل أن يفهم الإنسان آلامه ويقاتلها ويستعبدها لسيادة إرادته، ومن هذا الجهاد يقتنى الإنسان نقاوة القلب سريعاً ويرى الله " (٣).

" كلما يتقدم المتوحد إلى الأمام تكثر عليه الحروب إلى أن يبلغ إلى نقاوة القلب " (٤).

وسعى الآباء في غلق جميع حواسهم، وكذلك حراسة الفكر والقلب حتى لا يدخل منها أي شيء يعكر نقاء قلوبهم.

(١) الحياة مع المسيح لنيافة الأنبا متاؤس ص٢٤٩.
(٢) الحياة مع المسيح لنيافة الأنبا متاؤس ص٢٥٣.
(٣) الحياة مع المسيح لنيافة الأنبا متاؤس ص٢٩.
(٤) الحياة مع المسيح لنيافة الأنبا متاؤس ص٣٠.

قيل أن **أنبا يحنس القصير** جاء يوماً إلى الكنيسة التي كانت في الإسقيط، فسمع ملاججة في الكلام بين الإخوة، فرجع إلى قلايته ودار حولها ثلاث مرات ثم دخلها. فرآه الإخوة وعبروا له عن ندمهم، وسألوه: " أخبرنا، لماذا دُرْتَ حول قلايتك ثلاث مرات؟ " فقال لهم: " لأن صوت الملاججة كان لا يزال في أذني، فقلتُ أُخرجه أولاً منها ثم أدخل القلاية حتى يكون عقلي داخل القلاية نقياً (١).

وقال شيخ " المتوحد إن أراد أن ينال طهارة القلب التي بها يعاين الله، فعليه أولاً أن يبتعد عن العالم، ويبعد حواسه عن الأوجاع، وأفكاره عن الطياشة إلى نظر الله، ويلزم الهدوء، فيستحق طهارة القلب ويتنعم بمناظر ربنا " (٢).

سأل أخ أنبا بيمن: " هل يمكن يا أبي، لقلب الإنسان أن يكون نقياً بالكلية؟ فقال له نعم هذا ممكن، إذا قوّم (أو صحّح) ميول جسده يصير قلبه نقياً. فقال له الأخ: هل يستحيل أن يصير قلبه نقياً طالما أنه يصنع مشيئة جسده؟ فأجابه الشيخ: نعم،

(١) فردوس الآباء جزء ١ ص٥١٥.
(٢) فردوس الآباء جزء ١ ص٥٦٠.

وكلما زاد الجهاد الإيجابي وزادت الفضائل داخل القلب، كلما وجد الروح القدس قنوات كثيرة يتدفق منها داخل القلب. فتزداد استنارته وتزداد نقاوته.

وذكر الآباء أقوالاً كثيرة عن أهمية أعمال الفضيلة في نقاوة القلب نذكر بعضها:

قال مار إسحاق:

✠ " بالنار تنظف الأرض، وبحرارة الأعمال يُنقى القلب ويقبل الزرع الطاهر الروحاني " (١).

✠ " القلب يتنقى بضوائق كثيرة وجهاد وعدم خلطة مع العالم مع ميتوتة كاملة عن كل شيء " (٢).

✠ " المتوحد الذي يريد أن يكون قلبه مسكناً لله ينبغي أن يفلحه بالأعمال النشطة ويهدئه من جميع الحركات المسحسة التي تكون من المفاوضات واللقاءات " (٣).

✠ " حتى إن تقدس القلب بحلول الروح القدس وتأهل لاستعلان أسرار المعرفة، عندما يستعمل الإنسان الانحلال

(١) الحياة مع المسيح لنيافة الأنبا متاؤس ص٢٣.
(٢) الحياة مع المسيح لنيافة الأنبا متاؤس ص٤١.
(٣) الحياة مع المسيح لنيافة الأنبا متاؤس ص١٠٤.

وعدم الاحتراس، ويتهاون في التدبير وبالأكثر أوقات الصلوات السبع، يظلم القلب بالتخلية ويخيب من النور والحياة والنعمة " (١).

✠ " لا تظن أن التورع (الزهد) من المواكيل فقط هو العمل، أو القيام في الخدمة والصوم وحدها توصل الإنسان إلى النقاوة. بل الصبر على البعد عن مفاوضة الناس، والجثو الدائم قدام الصليب. إذ يقترن هؤلاء مع أولئك حسب المقدرة مع التواضع القلبي الكثير وبقية مفاوضة تدبير السيرة المسطرة في كتب أناس نيرين عارفين وُضعت للتربية في الإلهيات"(٢).

✠ " كما أنه لا ينغسل الثوب من الوسخ إلا إذا انعصر واتمرس بالصابون هكذا أيضاً لا يتنقى القلب من الآلام إن لم ينسحق الجسد بالشقاء والتوحد " (٣).

✠ " كما أن كل قوة الأحكام والوصايا التي وضعها الله لجنس البشر تحدها نقاوة القلب، هكذا أيضاً أنواع الصلاة التي يصلي بها بنو البشر تحدها الصلاة النقية " (١).

(١) الحياة مع المسيح لنيافة الأنبا متاؤس ص١١٧.
(٢) الحياة مع المسيح لنيافة الأنبا متاؤس ص٢٤٧.
(٣) الحياة مع المسيح لنيافة الأنبا متاؤس ص٢٨١.

ويقول مار أسحاق:

✠ " إذا سأل إنسان في الصلاة من أجل النجاة من تجارب أو الراحة من أتعاب أو قتال أو طلب النصرة على البلايا والمحن، أو حتى نوال الفضائل وغبطة النعمة وحرارة وفرح الروح، ويطلب بغرض مستقيم وقلب حزين، فالله يتنازل ليكمل إرادة ذلك الإنسان ويمنحه رغباته.

أما بخصوص الأسرار التي للروح ومواهب وبركات الصلاة الروحية ودخول العقل خلف حجاب قدس الأقداس، وإدراك كنه الميراث الذي لا يضمحل، فإذا لم يدفع الإنسان ثمنها وما هو مستحق عليها فالله لن يعطيها حتى ولو قامت الخليقة كلها تتوسل نيابة عنه! أما استحقاقاتها فهي طهارة (نقاوة) النفس!"([2]).

أعمال جسدية دون طهارة عقل، كرحم عاقر وثدي ناشف. لأن بأعمال الجسد وحدها لا يتقدم الإنسان أي خطوة نحو الله. فهي إجهاد للجسد بلا نفع ولا تقوى حتى على

([1]) حياة الصلاة الأرثوذكسية طبعة دير السريان ص٢٨٢.

([2]) حياة الصلاة الأرثوذكسية طبعة دير السريان ص٢٧٩.

استئصال أهوية القلب المنحرفة ونزعاته المريضة، ولهذا فهي غير نافعة لشيء قط " ([1]).

قال أحد الشيوخ:

" على المتوحد الذي في الهدوء أن يتعلم الحرب الخفية التي في خداعات الشيطان بأفكار الأوجاع التي تشبه ما جاء في الإنجيل عن الأعمى الذي كان على الطريق. فالأعمى هو المتوحد الذي لم يصل بعد إلى طهارة القلب، وصراخه هو الصلاة بغير فتور التي فيها يصرخ في كل حين ويقول يا ابن داود ارحمني. والجموع الذين كانوا ينتهرونه ليسكت هم الشياطين الذين يحركون فيه الأفكار الشريرة بغير فتور ليعوّقوه عن صلاته وطلبته، واستدعاء المخلص له هو العون الإلهي الذي يناله المتوحد في زمان الحرب، والذين بشروه قائلين: افرح فهو يدعوك، هو عزاء الملائكة الخفي في زمان القتال، وفتح عينيه وتمجيد الله هما استنارة قلب المتوحد بعد انتهاء القتال والنصرة ورؤيته القلبية للمسيح وتمجيده للثالوث القدوس كل حين. إن المتوحد يصنع حرباً عظيمة مع جميع الأفكار الرديئة بأتعاب

([1]) حياة الصلاة الأرثوذكسية طبعة دير السريان ص٢٧٩.

الجسد، وبالأكثر مع الذين يعوقونه عن نقاوة القلب، وبذلك تدوم فيه الصلاة الروحانية والنور الإلهي " (١).

ويقول القديس أنبا مكاريوس الكبير في الرسالة الثانية:

" الذي يريد أن يكون مسيحياً حقيقياً عليه أن يهب نفسه لتعب وصراع ليسا جسدانيين، بل صراع في الذهن ضد الأفكار، ولذلك فعليه أن يعتاد على الهذيذ بقدر استطاعته والتأمل في الصالحات والأمور الظاهرة، وأن يوجِّه ذهنه إلى الاتجاه الصحيح مصغياً في كل لحظة إلى افتقاد الروح له حتى يمكنه في مثل هذا الصراع أن ينال نقاوة القلب لدرجة أنه يأخذ من كل ما يراه في العالم تعليماً لنفسه متفهماً كل شيء بأفكار طاهرة. وهكذا فإن ثروات العالم ومسراته تجعلانه يفكر في الثروة والمسرات السماوية الحقيقية والنعيم والمجد الذي لا يبلى، الذي ليست المسرات الأولى سوى ظل له " (٢).

وفي الرسالة السادسة يدعو الراهب راهباً من ناحيتين الأولى ابتعاده عن العالم، والمرأة، وعدم قبول اهتمامات هذا العالم بفكره. أما الناحية الثانية فيقول: " يُدعَى راهباً ما دام يدعو الله

(١) فردوس الآباء جزء ١ ص١٩٨.
(٢) فردوس الآباء جزء ١ ص٣٥٤.

في صلاة لا تنقطع لكي يُنقي قلبه من أفكار عديدة مزعجة ويصير قلبه راهباً في داخله، وحيداً أمام الإله الحقيقي، وبكونه لم يعد يقبل الأفكار الناتجة عن الشر، بل بالعكس يُنقي نفسه بلا انقطاع كما يليق ويظل نقياً أمام الله " (١).

قال أحد الشيوخ:

" في تدبير الوحدة بعد الأعمال والجهاد الكثير يتنقى قلب الإنسان ويستنير بالصلاة، وتعبر عنه الأوجاع في وقت الشيخوخة، فيصل إلى الطهارة والنقاوة الداخلية حتى أنه يرى أشخاصاً سماويين، وربما يعبرون سريعاً فلا يمكنه أن يتكلم معهم" (٢).

قال أنبا بيشوي:

" لا يمكن للإنسان أن يصلي للرب بمخافة إذا لم يمارس إماتة الذات والزهد، ولا يمكن للإنسان أن ينقي قلبه بدون زهد وتقشف ولكنه إذا ثابر على زهده فإن الرب يعطيه المخافة ونقاوة القلب ويمتليء من نعم الرب " (٣).

(١) فردوس الآباء جزء ١ ص٣٥٨.
(٢) فردوس الآباء جزء ١ ص٤٥٣.
(٣) فردوس الآباء جزء ١ ص٥٥٦.

ه ففتح الباب بسرعة فوجد أباه الشيخ يبكي ويقـول لـه
حني يا ابني، سامحني يا ابني. فأدخله الراهب الشاب قلايتـه
لسا يشربان كوباً من الشاي معاً. وانتهت المشكلة وكان لا
أ لم يحدث. دون أن يعاتبا بعضاً أو يناقشا المشكلة. إن دلت
القصة الواقعية، فهي تدل على نقاوة قلب الشيخ الـذي لم
ل أن يكون سبباً في تعب ابنه الراهب، وأيضاً تـدل علـى
وة قلب الراهب الشاب الذي لم يحمل في قلبه أي غضب أو
ق أو كراهية لأبيه الشيخ.

التوبة اليومية والاعتراف المنتظم ينقي عيون القلب وينظفها
غبار الخطية الذي لصق بها، وبسهولة يرجع إلى نقاوته الأولى.

أما الشخص الذي يعيش في العالم، فكثيراً ما يصعب عليـه
سم توبة يومية، لكثرة مشاغله وارتباطاته المتشعبة، وكـذلك
س من السهل عليه الذهاب لأب اعترافه في أي وقت أو حتى
ة كل أسبوع، إما لضيق وقت الكاهن بسبب كثـرة عـدد
مترفين أو لضيق وقت المعترف.

ب) نقاوة الجو الروحي داخل الدير

تكلمنا سابقاً عن تأثير الجو الروحي في الحياة الرهبانيـة في
اب الخامس ص.١٩٩

فالشخص الذي يعيش في العالم معرض لرؤية وسماع كل ما يفقده نقاوة قلبه. لأن كل ما يسمعه أو يراه أو يتكلم فيه ينطبع في الفكر (الذهن) والقلب والمشاعر، ويؤثر عليها تأثيراً إيجابياً أو سلبياً حسب ما انطبع فيه، وغالباً ما يكون تأثير هذه الأشياء على من يعيش في العالم تأثيراً سلبياً يفقد بسببه نقاوة قلبه.

أما الراهب الذي يعيش في الدير لا يتعرض لمثل ما يتعـرض له الشخص الذي يعيش في العالم لأن الجو الذي يعيش فيه جواً مقدساً وطاهراً يخلو من العثرات الكثيرة الموجودة في العالم. كل هذا يعمل على نقاوة قلب الراهب.

لهذا يصبح قلب الراهب الذي يسكن في الدير أكثر نقاءً من الشخص الذي يعيش في العالم.

(ج) الصلاة الدائمة

إن كانت التوبة اليومية والاعتراف المستمر ينقيـان ويـنيرا أعين قلوب الرهبان فالصلاة الدائمة هي العدسة التي يضعها في قلبه فيرى الله وجهاً لوجه كما في مرآة (١كو ١٣: ١٢).

الصلاة هي الصلة بالله وبها يتصل قلب الراهب بالله فيتنقى من أية خطية عالقة به. لأن الخطية الموجودة في القلب تحتـرق عند اتصاله بالله " لأن إلهنا نار آكلة " (عب ١٢: ٢٩). بـل

خامساً: أهم العوامل التي تساعد الراهب على نقاوة القلب

ليست نقاوة القلب قاصرة على فئة معينة دون الأخرى، بل هي واجبة على كل مسيحي يتطلع إلى معاينة الله. وما نستطيع أن نقوله هو أن الحياة الديرية تساعد على نقاوة قلب الراهب، أكثر مما تقدمه الحياة في العالم للإنسان الذي يعيش فيه ويسعى لنقاوة قلبه.

وهناك عوامل كثيرة تساعد الراهب على اقتناء نقاوة القلب، نكتفي بذكر أربعة نقاط منها. اثنتان منها يختصان بمرحلة الجهاد السلبي، واثنتان بمرحلة الجهاد الإيجابي.

(أ) التوبة اليومية، والاعتراف المنتظم

التوبة هي عمل يومي مستمر يحياها الراهب في الدير. فلا يظن أحد أن التوبة خاصة بالخطاة فقط، أو بمن يعيشون في العالم، بل هي لازمة لكل إنسان يعيش على الأرض. فيصلي الكاهن في أوشية الراقدين ويقول: ليس أحد طاهراً من دنس ولو كانت حياته يوماً واحداً على الأرض. ويقول يوحنا الحبيب في رسالته الأولى " إن قلنا أنه ليس لنا خطية، نضل أنفسنا وليس الحق فينا " (١يو ١: ٨).

ففي نهاية كل يوم يجلس الراهب مع نفسه ويحاسبها عما أخطأت فيه، وفي الحال يقدم توبة لله. وفي نهاية الأسبوع يذهب إلى أب اعترافه في الدير مقراً بما ارتكبه من خطايا خلال هذه الفترة، وإن احتاج الأمر للذهاب إلى أب اعترافه خلال الأسبوع، ذهب إليه حتى يفرغ ما في قلبه وفكره من أثقال وهموم حمل الخطية. لأن الاعتراف المنتظم والمستمر على فترات متقاربة، يمنع الشر أن يتأصل داخل القلب، كما أنه يجعل القلب في حالة نقاء دائم.

وقد يحدث خلاف بين الراهب وأحد الرهبان فلا تمر ساعات إلا ويقوم في الحال ويضرب لأخيه ميطانية معتذراً له على ما حدث كقول الكتاب " لا تغرب الشمس على غيظكم"(أف ٤: ٢٦). وحكى لي أحد الشيوخ بالدير عن قصة حدثت معه وهو شاب في بداية حياته الرهبانية. إذ كانت له دالة مع أحد الشيوخ بالدير، وكان معتاداً أن يداعبه بكلمات في كل مرة كان يقابله. وذات يوم تقابل معه وداعبه الشيخ بكلمة، لكنه لم يتقبلها هذه المرة، وصاح فيه بكلمات شديدة وانصرف كلاهما كل إلى قلايته. وقبل أن يدق جرس الغروب لصلاة المزامير سمع الراهب الشاب طرقات متواصلة على باب

قلايته ففتح الباب بسرعة فوجد أباه الشيخ يبكي ويقول له سامحني يا ابني، سامحني يا ابني. فأدخله الراهب الشاب قلايته وجلسا يشربان كوباً من الشاي معاً. وانتهت المشكلة وكان لا شيئاً لم يحدث. دون أن يعاتبا بعضاً أو يناقشا المشكلة. إن دلت هذه القصة الواقعية، فهي تدل على نقاوة قلب الشيخ الذي لم يحتمل أن يكون سبباً في تعب ابنه الراهب، وأيضاً تدل على نقاوة قلب الراهب الشاب الذي لم يحمل في قلبه أي غضب أو ضيق أو كراهية لأبيه الشيخ.

التوبة اليومية والاعتراف المنتظم ينقي عيون القلب وينظفها من غبار الخطية الذي لصق بها، وبسهولة يرجع إلى نقاوته الأولى.

أما الشخص الذي يعيش في العالم، فكثيراً ما يصعب عليه تقديم توبة يومية، لكثرة مشاغله وارتباطاته المتشعبة، وكذلك ليس من السهل عليه الذهاب لأب اعترافه في أي وقت أو حتى مرة كل أسبوع، إما لضيق وقت الكاهن بسبب كثرة عدد المعترفين أو لضيق وقت المعترف.

(ب) نقاوة الجو الروحي داخل الدير

تكلمنا سابقاً عن تأثير الجو الروحي في الحياة الرهبانية في الباب الخامس ص.١٩٩

فالشخص الذي يعيش في العالم معرض لرؤية وسماع كل ما يفقده نقاوة قلبه. لأن كل ما يسمعه أو يراه أو يتكلم فيه ينطبع في الفكر (الذهن) والقلب والمشاعر، ويؤثر عليها تأثيراً إيجابياً أو سلبياً حسب ما انطبع فيه، وغالباً ما يكون تأثير هذه الأشياء على من يعيش في العالم تأثيراً سلبياً يفقد بسببه نقاوة قلبه.

أما الراهب الذي يعيش في الدير لا يتعرض لمثل ما يتعرض له الشخص الذي يعيش في العالم لأن الجو الذي يعيش فيه جواً مقدساً وطاهراً يخلو من العثرات الكثيرة الموجودة في العالم. كل هذا يعمل على نقاوة قلب الراهب.

لهذا يصبح قلب الراهب الذي يسكن في الدير أكثر نقاءً من الشخص الذي يعيش في العالم.

(ج) الصلاة الدائمة

إن كانت التوبة اليومية والاعتراف المستمر ينقيان وينيرا أعين قلوب الرهبان فالصلاة الدائمة هي العدسة التي يضعها في قلبه فيرى الله وجهاً لوجه كما في مرآة (١كو ١٣: ١٢).

الصلاة هي الصلة بالله وبها يتصل قلب الراهب بالله فيتنقى من أية خطية عالقة به. لأن الخطية الموجودة في القلب تحترق عند اتصاله بالله " لأن إلهنا نار آكلة " (عب ١٢: ٢٩). بل

كلما حاول الشيطان اقتحام قلبه وإلقاء عثرات فيه صعقتها النار الإلهية داخل قلبه. وإن جاز مع الفارق تشبيه القلب بصاعق الحشرات، الذي يصعق أي حشرة تقترب منه طالما هو متصل بمصدر الكهرباء، أما إن انفصل عن مصدر التيار الكهربائي وقفت عليه الحشرات دون أن تتأثر بشيء. هكذا الراهب الذي يتصل دائماً بالصلاة مع الله يصبح قلبه نظيفاً ونقياً من أية خطية. بل كلما استمر في اتصاله بالله في الصلاة، طويلاً وعميقاً، كلما كان قلبه أكثر نقاءً.

والراهب الذي تضطرم في قلبه نار الحب الإلهي، تحرق كل اشتياقات غريبة من داخله حتى يثبت قلبه في النقاوة. ولا غرابة إذا رأينا سحابة من الأدخنة خارجة من قلبه في البداية، لا تلبث قليلاً إلا وتختفي حينما تتوهج فيه نار الحب الإلهي. إنها آلام وأوجاع قلبه التي يتمخض بها قبل أن ينال الراحة ومعاينة الله.

والراهب الذي يسعى ليصبح قلبه نقياً دائماً، يعيش في يقظة كل حين، حتى إذا ما هاجمته عثرات أو أفكار، يصدها بصلواته السهمية قبل أن تقتحم قلبه وتنجسه.

قال شيخ: " تيقظ القلب هو أم كل الفضائل، لأنه هو الصلاة الدائمة بلا فتور، وبه نطرد الأفكار والأوجاع، فلا

نخطيء لا بالأعمال ولا بالكلام ولا بالأفكار، وبسرعة يتنقى القلب ويصل إلى الكمال " (١).

وبالصلاة الدائمة التي يحياها الراهب، تنطبع في قلبه صورة الله النقية، مثل موسى النبي الذي صار وجهه يلمع من طول الفترة التي قضاها على الجبل وهو يتكلم مع الله.

قال مار إسحاق: " ليس بالعلم الكثير والكتب المختلفة نقتنى النقاوة أو نجدها بل بالاعتناء بالصلاة. ماذا تنفع معرفة كتب كثيرة وتفسير معانيها، وأي حاجة لها لجمع الضمير ونقاوة الصلاة " (٢).

ويقول الأسقف ثيوفان: " كيف استطاع آباؤنا النساك والحكماء أن يشعلوا في ذواتهم روح الصلاة ويثبتوا مقيمين فيها؟ كان الشيء الأول الذي فتشوا عليه وطلبوه هو أن يبقى القلب ملتهباً دائماً نحو الله بلا انقطاع! والله يحتاج إلى القلب لأن منه منبع الحياة، وحيث يكون القلب بنبضاته الحية يكون الصحو والانتباه والعقل وكل الحواس. فحينما يكون القلب مع الله

---

(١) فردوس الآباء جزء ١ ص٥٨٥.

(٢) الحياة مع المسيح لنيافة الأنبا متاؤس ص٢٥١.

تكون النفس فيه أيضاً، يقف الإنسان أمامه كعابد حقيقي بالروح والحق " (١).

قد يصعب على الشخص الذي يعيش في العالم أن يصلي دائماً، لأسباب كثيرة وعوامل متعددة ذكرناها سابقاً. بينما الراهب الذي يعيش في الدير تسنح له ظروف عمله والتزاماته الضئيلة أن يعيش الصلاة الدائمة. ولذا يكون قلبه أكثر نقاءً ممن يعيشون في العالم.

(د) كلمة الله

الراهب الذي يعيش في البرية يكون عنده اتساع في الوقت أكثر من الشخص الذي يعيش في العالم، ولذا يكون عنده فرصة أكبر للقراءة في الكتاب المقدس.

والكتاب المقدس كلمة الله الحية حينما تقع على قلب الراهب تنقيه. كما قال السيد المسيح لتلاميذه: " أنتم الآن أنقياء لسبب الكلام الذي كلمتكم به " (يو ١٥: ٣)، ويقول بولس الرسول " لأن كلمة الله حية وفعالة وأمضى من كل سيف ذي حدين، وخارقة إلى مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ ومميزة أفكار القلب ونياته " (عب ٤: ١٢).

(١) حياة الصلاة الأرثوذكسية طبعة دير السريان ص٢٨٢.

وكلمة الله حينما تقع على قلب الراهب تجليه وتزيده نقاءً وطهراً. فهي مثل النار التي تزيد من نقاء الذهب الذي يتعرض لها. وقلب الراهب يزداد نقاءً من كلمة الله النارية التي يتعرض لها لأن كلمة الله كلهيب نار.

وكلمة الله كمياه كثيرة حينما تقع على قلب الراهب تغسله وتنقيه من أي شر عالق به كما قال يوحنا في سفر الرؤيا " سمعت صوته كصوت مياه كثيرة " (رؤ ١: ١٥). لذلك قال **الأب يوحنا** الذي نفاه الإمبراطور مرقيان:

" ذهبنا يوماً من سوريا لنرى أنبا بيمن، وأردنا أن نسأله عن نقاوة القلب، ولكن الشيخ كان لا يعرف اليونانية و لم يوجد مترجم. ولما رأى أننا مضطربون من ذلك بدأ يكلمنا باللغة اليونانية قائلاً: الماء بطبيعته لين والحجر صلب، ولكننا إذا علقنا آنية مليئة بالماء فوق حجر بحيث تنسكب منها نقطة نقطة فإن الحجر يتآكل، وهكذا أيضاً كلمة الله فهي لينة وقلوبنا قاسية، ولكنها إذا سمعت كلمة الله باستمرار فإن القلب ينفتح ويتجه نحو مخافة الله " (١).

(١) فردوس الآباء جزء ١ ص٥٦٨.

الراهب الذي يسعى لحياة النقاوة يقول مع داود النبي كل حين " خبأت كلامك في قلبي لكيلا أخطيء إليك " (مز ١١٩: ١١). فكلمة الله المخبأة في القلب تعمل حارسة له، فلا تدع أية خطية تدخل فيه. فهي أمضى من كل سيف ذي حدين، بمجرد أن ترى الخطية تحاول الاقتراب من القلب، تقتلها خارجه حتى يدوم نقياً.

سادساً: ثمار نقاوة قلب الراهب

الراهب الذي اقتنى نقاوة القلب بعد جهاد شديد، تظهر على حياته وسلوكه وكلامه ثمار نقاوة قلبه. فهو يأكل منها ويتلذذ بها، وإخوته الرهبان من حوله، وخاصة الذين يتعاملون معه كثيراً، يغتذون أيضاً من ثمارها. أما ثمار نقاوة القلب فهي:

١ – معاينة الله في كل شيء يراه من حوله

الراهب الذي نقى قلبه، تنفتح عيون قلبه فترى الله في كل شيء أمامه. فكل الناس ترى الخليقة بعينين جسديتين، أما هو فيراها بعيون قلبه الداخلية، فهو حينما ينظر للسموات والنجوم والطبيعة يرى فيها الله فيشترك مع داود النبي في تسبيحها قائلاً " السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه " (مز

١٩: ١). وعندما ينظر إلى الجبال والبحار والأنهار والطيور والحيوانات .... يرى فيها عظمة خالقه. لأن نقاوة قلبه التي تعاين الله، تطبع صورة الله على كل المخلوقات أو الجمادات التي يراها. فقلبه الصالح الممتليء بالله، لا يخرج إلا صورة الله الصالح. أو كما يقول علماء النفس، إن الإنسان يقوم بعملية إسقاط بما في داخله على الآخرين. وقلب الراهب الذي تنقى وعاين الله يُسقط على الكل رحمة الله ومحبته التي تشبع بها في داخل قلبه.

٢ – رؤية كل شيء نقياً

والراهب النقي القلب يرى كل شيء من حوله نقياً وطاهراً وحسناً جداً، وهذا يجعله دائماً فرحاً وشاكراً على كل حال، ومتمتعاً بسلام روحاني، وحباً من إخوته في الدير.

نقاوة قلب الراهب تجعله يرى كل رهبان الدير أنقياء وأطهار وقديسين، ليس ولا واحد منهم فيه عيب أو نقص، حتى لو رآه كل مجمع الدير بخلاف ما يراه هو. لينطبق عليه قول الشيخ الروحاني " القلب النقي ينظر كل الناس أطهاراً وهو وحده النجس" (١). ونقاوة قلبه ترى أن كل أعمال الدير

---

(١) بستان الرهبان ص٣٥٢.

ومشروعاته وزراعاته أنها حسنة جداً، حتى وإن كانت تحوي بعض السلبيات.

ونقاوة قلبه ترى المسئولين في الدير أنهم معينون من قبل الله، وأنهم صالحون وأبرار. لذا لا ينقد تصرفات أو قرارات أي مسئول بالدير، بل يخضع لها بكل حب وسلام.

وهذه الرؤية النقية النابعة من نقاوة قلب الراهب، تجعله يعيش في فرح وسلام داخل الدير، وتجعله يقدم الشكر لله كل حين على نعمة وجوده كراهب في الدير، وتجعله يحب الدير والمسئولين وكل إخوته الرهبان، وبالتالي لا يدين أحداً منهم. كل هذا يزيد من ثباته في الدير ورسوخه في الحياة الرهبانية.

ويتساءل **مار إسحاق السرياني** قائلاً:

" ما هي العلامة التي تدل على أن الإنسان قد وصل إلى نقاوة القلب؟

حينما يرى كل الناس في نور جميل. دون أن يتراءى له أي إنسان أنه دنس أو نجس. مثل هذا الإنسان يكون قد وصل إلى النقاوة. وهذا تحققه كلمة الرسول " حتى تفتكروا فكراً واحداً بنفس واحدة مفتكرين شيئاً واحداً. لا شيئاً بتحزب أو بعجب بل بتواضع حاسبين بعضكم البعض أفضل من أنفسهم " وقول

بطرس الرسول " وأما أنا فقد أراني الله أن لا أقول عن إنسان ما أنه دنس أو نجس " (أع ١٠: ٢٨) ([1]).

ويقول القديس مكاريوس الكبير:

" لذلك يجب على المسيحيين أن يجتهدوا دائماً، أن لا يصدر منهم حكم على أحد، لا على الزانية التي على قارعة الطريق، ولا على الخطاة الظاهرين بأعمالهم، بل يرى كل الناس على وجه العموم بنية طاهرة وعين نقية. حتى يصير كناموس ثابت طبيعي في النفس. أن لا تحتقر أي أحد او تزدري بأحد أو تميز بين واحد وآخر.

فإذا رأيت إنساناً فقد إحدى عينيه، أنظر إليه كمن هو سليم. أو إذا كان مبتور الذراع أو الرجل فلا تتفرس فيه كمن به عيب. بل أنظر إليه كأنه صحيح معافى. كذلك المفلوج والأخرس والأصم وكل من به نقص. هذه هي نقاوة القلب حينما ترى خطاة أو مرضى فلتكن فيك شفقة عليهم وليكن لك معهم حنان ورأفة " ([2]).

([1]) حياة الصلاة الأرثوذكسية طبعة دير السريان ص٢٨٣.

([2]) حياة الصلاة الأرثوذكسية طبعة دير السريان ص٢٨٣، ٢٨٤.

ويقول القديس أندريانوس الأسقف:

" النفس النقية ترى الله في كل نفس أخرى. كما أعلم الله بطرس حين كان في يافا واقفاً على السطح يصلي. لأنه ليس من أجل البهائم والوحوش صار له الصوت والرؤيا، إن ما طهره الله لا تنجسه أنت بل لينظر إلى كل الناس كأنهم أطهار. لذلك قال بطرس بعد أن تلقن وتعلم من الروح القدس " وأما أنا فقد أراني الله أن لا أقول عن إنسان ما أنه دنس أو نجس " (أع ١٠: ٢٨).

كذلك أنت يا محب الإله قم صلِّ لتتعلم نقاوة النفس، لترى كل الناس أطهاراً. قم اصعد على سلم النفس وارتفع إلى الطابق الأول منها، الذي هو أعمال الجسد وصنع الفضائل، وحينئذ يمكنك الارتفاع إلى الطابق الثاني من نفسك الذي هو ضبط العقل والتسلط على الأفكار. فإذا ضبطت فكرك بالطهارة وصار هذيذك في الله فقط حينئذ ترتفع إلى الطابق الثالث الذي هو نقاوة النفس فترى وأنت قائم تصلي كمثل بطرس على السطح إن كل شيء طاهر للطاهرين !!!

فإذا نظرت أناساً أشراراً وفسقة أو نمامين وشتامين أو متوانين ومتكاسلين، فلا تظن أنهم من طبع البهائم خلقوا، بل

اعلم أنهم من الله أتوا إلى الوجود! وحينئذ يصيرون أطهاراً في عينك. وإذا نظرت أناساً جهلة وزناة وعبدة أوثان، فلا تقل في نفسك أنهم مثل الكلاب والخنازير بل اعلم أنه شبه الله خلقوا، وهم له إن قاموا أو سقطوا.

والمسيح لما علمك أن تزور المسجونين، أرادك أن تفهم أن الذين في الحبس هم المسيح بالحقيقة " كنت محبوساً فأتيتم إليَّ ". لأنه " بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فيَّ فعلتم " (مت ٢٥: ٣٦، ٤٠). ونحن نعلم أنه لا يكون في الحبس غالباً إلا عاملو الشر والسارقون والزناة والسحرة والقتلة. إذاً فالمسيح أراد أن يعرفك أن تنظر إلى فاعلي الشر كالأبرار، وأن لا تحكم على أحد بأنه دنس أو نجس أو شرير ... فهو يطلب نقاوة قلبك مع نقاوة عينك.

وإذا نظرت قوماً مسيحيين وقوماً يهوداً وقوماً وثنيين، فبعين المحبة أنظر للجميع كأنهم واحد. لأن المسيح قد مات من أجل الجميع.

وهكذا إذا نظرت جميع الخليقة بفكر طاهر ونفس نقية ورأيت أن الجميع طاهرون أمام عينيك، فاعلم أن المسيح حقاً ساكن فيك ".

قال شيخ:

إن القديس أنبا مقار صار ملاكاً أرضياً، فكما أن الله يظلل ويرفرف على المخلوقات هكذا صار القديس يبصر كمن لا يبصر، ويسمع وكأنه لا يسمع. وقد أُعطيت هذه الموهبة للقديس أمونيوس الأسقف تلميذ أنبا أنطونيوس.

فإذا بلغ الإنسان هذه الدرجة يتم فيه قول الرسول الطوباوي بولس " كل شيء طاهر للطاهرين " (تي ١: ١٥). وما قاله داود النبي: " لم يلصق بي قلب معوج " (مز ١٠١: ٤). وهكذا لا يعلم هذا الإنسان عن أحد أنه خاطيء أو حقير بل أنه يحوي الصلاح في داخله مثل الله الذي جعله في البشر منذ البدء وأمرهم أن يقتنوه بأعمال كثيرة إرادية، لأن كل ما هو لذيذ إنما بالتعب يُقتنى ".

" فحسناً قال الآباء عن أنبا مقار أنه تشبه بالله، والقديس نفسه قال في إحدى رسائله: " الذي يعرف الحق لا يدين إنساناً البتة مهما كان خاطئاً أو يهودياً أو هرطوقياً، بل أنه يحذر فقط التشبه بأعمالهم، فلأن عينيه نقيتان فهو يرى الإنسان بمعزل عن الشر " ([1]).

([1]) فردوس الآباء جزء ١ ص٢٥٧، ٢٥٨.

٣ – طيبة القلب، والرحمة على الخليقة كلها

والراهب الذي اقتنى نقاوة القلب تظهر ثمارها في طيبة قلبه ورحمته على الخليقة كلها، حتى على الحيوانات والنباتات ... فإذا سمع بمرض أحد إخوته الرهبان أو سمع عن تعرضه لضيقة، فإنه يتألم لألمه ويسهر الليالي للصلاة من أجله، وإن استطاع أن يذهب إليه في قلايته يذهب ويشجعه ويسنده بكلمات التعزية من الكتاب المقدس وأقوال القديسين.

وإن سمع عن إنسان فقير أو محتاج أو أي شخص متعثر في حياته، يعتصر قلبه ألماً وحزناً عليه، محاولاً عمل أي شيء لإسعاده. كما يقول الشيخ الروحاني: " الصديق على الرب يلقي همه، من أجل هذا بغير شفقة على نفسه، قَسَّمَ وفرق وأعطى المساكين. لأن يد الرب مفتوحة أمامه وهي مملوءة على الدوام فيأخذ ويعطي بسذاجة بغير هم " ([1]).

وعرفنا عن نقاوة قلب رهبان كثيرين بدير السريان. كانوا طيبي القلوب لا يحتملون أن يروا عاملاً يعمل عملاً شاقاً دون أن يمدوا يدهم ليساعدوه أو يسرعوا بتقديم كوب شاي أو كوب

([1]) حياة الصلاة الأرثوذكسية طبعة دير السريان ص٢٨٦.

ماء له. والبعض يشفق عليهم ويعطيهم أية أطعمة زائدة في قلايته أو أية ملبوسات تنفع لهم .....

وحكى بعض الرهبان القدامى عن طيبة قلب **المتنيح القمص أغسطينوس السرياني**. إذ كان يوزع كل ما كان يأتي إليه من ملبوسات أو مأكولات على إخوته الرهبان. وعندما يأتي وقت الغذاء، لا يجد في قلايته شيئاً يأكله، فكان يخرج إلى أي أب ويطلب منه أن يعطيه ليأكل. وقال آخرون عنه أنه حينما يسمع أن أحداً من إخوته الرهبان نازل إلى العالم للعلاج أو لأي أمر ما، كان يذهب إليه ويعطيه محفظته بما فيها من نقود، دون أن يعرف كم عدد النقود الموجودة بها.

وتظهر طيبة قلب الراهب ورحمته على الحيوانات والنباتات. فإذا رأى حيواناً جوعاناً يقدم له الطعام. وإن عرف أنه مريض يبحث له عن علاج. وإن شاهد العامل المسئول عن رعايتهم يضربهم، يتألم في داخله، وإن شعر أنه ضربهم يرجوه أن يكف عن الضرب. وهكذا الحال إذا رأى النبات يزبل، أو أصيب بأي مرض، يضطرب ويتألم من أجله محاولاً أن ينقذه ويريحه من الإصابة.

ويتساءل القديس مار إسحاق السرياني قائلاً:

" ما هي نقاوة النفس؟

هي قلب مملوء رحمة نحو الخليقة.

وما هو القلب الرحيم؟

هو القلب الذي يتحرك بالرحمة فتئن أحشاؤه بإشفاق وحنو بالغ نحو كل الخليقة بما فيها من إنسان وحيوان ووحوش وديبب وكل ما هو كائن حي. حتى أنه من مجرد التفكير في ضعفها يذرف الدمع ويبكي ويصير القلب رقيق الإحساس إلى درجة لا يقوى فيها على سماع أو رؤية أذية تلحق إحدى هذه الخلائق! وهو يتقدم نائباً عنها مقدماً صلوات بدموع على الدوام من أجلها، سواء كانت هذه المخلوقات عاقلة أو غير عاقلة، لكي الرب يحرسها ويشددها " (١).

وقيل عن القديس يوحنا القصير:

" أنه إذا أبصر إنساناً أخطأ كان يبكي بكاءً شديداً ويقول إن هذا أخطأ اليوم ولكنه ربما يتوب، أما أنا فإني أخطيء غداً وربما لا أعطى مهلة كي أتوب. هكذا يجب أن نفكر ولا ندين

---

(١) حياة الصلاة الأرثوذكسية طبعة دير السريان ص٢٨٠.

أحداً. ولهذا كان يسافر إلى مسافات بعيدة لهداية الخطاة ". كما يذكر بستان الرهبان هدايته للقديسة بائيسة. (١).

٤ – اتساع القلب

من مظاهر نقاوة قلب الراهب اتساع قلبه. فقلبه تنقى من الخطايا التي كانت تشغله فأصبح متسعاً لمحبة الجميع وخدمتهم واحتمال ضعفاتهم ومشاكلهم ...

فاتساع قلب الراهب كاتساع الصحراء التي يسكن فيها. لا يتضايق من سماع أي كلام تجريح أو إهانة أو شتيمة ... ويكون متسعاً لسماع حديث إخوته المتضايقين والقلقين. كما يقول بولس الرسول " فمنا مفتوح إليكم أيها الكورنثيون ... لذلك أقول كما لأولادي، **كونوا أنتم أيضاً متسعين** " (٢كو ٦: ١١- ١٣).

ويقول قداسة البابا شنوده الثالث:

" القلب النقي هو أيضاً قلب متسع للكل ... إنه لا يضيق بكلمة، ولا يضيق بمشكلة، ولا يضيق بأحد " (٢).

(١) بستان الرهبان ص٧٦.

(٢) تأملات في العظة على الجبل لقداسة البابا شنوده الثالث ص٧٩.

والقلب النقي يسع سماع أشنع الخطايا دون أن يجرح مشاعر الخاطيء إنه قلب متسع للكل، كل أحد يجد فيه مكاناً يرتاح فيه، وكل إنسان يحمل مشكلة كبيرة يجد فيه حلاً وارتياحاً.

ويقول الأب يوحنا (من كرونستادت):

" كلما تنقى القلب وتطهر، اتسع وكبر واستطاع أن يجد مكاناً أوفر لأحباء أكثر. بيد أنه كلما تلوث بالإثم ضاق واستضاق، فلا يستطيع أن يحمل إلا ذاته، إذ يكون مشغولاً بحب نفسه. نحن نحب ذواتنا في أشياء لا تتناسب قط مع أنفسنا الخالدة، من ذهب وفضة وطعام وشراب وسكر وزنا وما شابه"(١).

" قيل أنه عندما شاعت فضائل أنبا يوأنس القصير تشاور شيوخ الرهبان مع أنبا أموي أن يجربوه حتى يروا صبره. ففيما هو ماض يوماً إلى الكنيسة، استفزه أحد الشيوخ ولكمه، وقال له " أهذا هو وقت المجيء إلى الكنيسة يا قصير؟ اذهب من هنا! فلما أخرجوه تبعه أنبا أموي واثنان من كبار الشيوخ وأتوا إلى مسكن القديس ليروا ماذا يفعل، وليسألوه ليعرفوا فكره عن هذا الأمر، لأنهم قالوا إن هو ذكر ما جرى أو غضب فهو لا يزال

(١) حياة الصلاة الأرثوذكسية طبعة دير السريان ص٢٨٠.

مثلنا، وإن هو نسى ذلك و لم يذكره فقد ارتفع أكثر منا وأفضل.

فلما وصلوا إلى القلاية بعد رجوعه هو إليها تنسموا رائحة طيب مختار جداً، وسمعوا جماعة ملائكة يسبحون ويرتلون للرب في مسكن القديس قائلين له: احترس من الخبث وأنت تصر سراجاً للمستقيمين. يعطي الرب المجد والنعمة للخالين من الخبث، وهو لا يسمح بأن يعوزهم شيء من الخيرات .... وكان القديس يسبح أيضاً في وسطهم ... فبهت الشيوخ مما سمعوه، وطرقوا باب القديس، فخرج وفتح لهم، فرأوا وجهه يضيء مثل ملاك الرب! ثم كلمه الشيوخ وكأنهم يعزونه عما حدث قائلين: بالحق لقد توجعت قلوبنا جميعاً لأجل ما فعله بك ذلك الشيخ، ولا سيما أنك عندنا كريمٌ وجليلٌ، لكن تعال معنا لنصلح الأمر.

وبينما كان الآباء يقولون ذلك كان وجه القديس مطرقاً إلى الأرض و لم يقل شيئاً. فقال له أبوه أنبا أموي: لماذا لا تجيب هؤلاء الذين يكلمونك؟ فأجابهم القديس يوحنا بنعمة الروح القدس الذي فيه **ونقاوة قلبه** قائلاً: اغفروا لي يا آبائي، ليس لي علم بشيء مما تقولون، وإن كان قد حدث شيء فهو بلا شك

بتدبير من الله الذي يعمل على خلاص نفسي على أيدي قديسيه. فلما سمعوا هذا من القديس تعجبوا وقالوا: بحق إننا كما سمعنا هكذا رأينا. وعادوا إلى الكنيسة وهم يمجدون الله.

وبينما هم مجتمعون سأل بعضهم بعضاً بدافع من الله عن منزلة أنبا يوأنس القصير، فوقف شيخ عظيم قديس وقال لهم: أنبا يوأنس قد ارتفع كثيراً في **نقاوة قلبه** واتضاعه الحقيقي أفضل من الكل، لقد علق شيهيت كلها على إصبعه " (١).

٥ – الحس المرهف لأقل خطية

إن نقاوة قلب الراهب تخلق فيه الحس المرهف والشعور بحساسة أقل خطية. حتى ولو كان أهل العالم لا يحسبها خطية فهي في نظره كبيرة ومقلقة. فلأن قلبه نقي يشعر بالخطية الصغيرة، بينما الشخص الذي يعيش في العالم لا يشعر بها.

" فالخطية دائماً كبيرة في عيني الراهب، مهما كانت صغيرة وتافهة، وذلك بسبب حالة النقاء التي يصل إليها، وذلك مثل ثوب ناصع البياض سقطت عليه نقطة حبر صغيرة تكون ظاهرة وملحوظة جداً وتعكر صفاءه، بخلاف إذا سقطت تلك النقطة

---

(١) فردوس الآباء جزء ١ ص٥١٣، ٥١٤.

على ثوب غير أبيض وغير نظيف، فإنها قد لا تظهر بتاتاً أو تظهر بسيطة وليست بذات أهمية " ([1]).

" والإنسان العادي يهتم في توبته واعترافه بالسلبيات التي في حياته فقط، أما الراهب النقي القلب فيتوب ويعترف أيضاً بالتقصيرات التي يصاب بها في النواحي الإيجابية وعمل الفضائل، فهو يعتبرها خطية إذا قصر في تأدية إحدى صلوات السواعي أو لم يعمل جزءاً من قانون ميطانياته، أو سنحت له الفرصة لإظهار طاعة أو احتمال أو عمل رحمة ولم يستغل هذه الفرصة لعمل الفضيلة المناسبة ..... وهكذا " ([2]).

٦ – النمو السريع والمستمر نحو الله

حينما يصل الراهب إلى نقاوة القلب، ينطلق في نمو سريع ومستمر في علاقته مع الله، ويظهر هذا النمو بوضوح في حياته، ويلاحظه باقي إخوته في الدير. فنقاوة قلبه من الخطايا والشهوات أو المعطلات والعوائق أياً كانت، تساعده على التقدم والنمو الروحي. لأن هذه الأشياء إن وجدت في القلب تقيده وتجعله ثقيلاً.

([1]) سمو الرهبنة لنيافة الأنبا متاؤس ص١٧٥.

([2]) سمو الرهبنة لنيافة الأنبا متاؤس ص١٧٦.

إن نقاوة قلب الراهب وخلوه من هذه الأمور، تجعله ينطلق بسرعة إلى العلو بغير مانع ولا عائق إلى أن يلتصق بمحبة الله الدائمة.

٧ – الالتصاق الدائم بالله

الراهب النقي القلب يكون قلبه مسكناً لله. أصبح موضعاً لسكنى الله الدائم، يشير الله إلى هذا القلب قائلاً: " هذا هو موضع راحتي إلى الأبد، ههنا أسكن لأني أردته " (مز ١٣٢: ١٤). يقول الله عن هذا القلب النقي كما قال عن داود النبي " وَجَدْتُ دَاوُدَ بْنَ يَسَّى رَجُلاً حَسَبَ قَلْبِي الَّذِي سَيَصْنَعُ كُلَّ مَشِيئَتِي ". (أع ١٣: ٢٢). في هذه الحالة تنطبع صورة الله في قلب هذا الراهب، فينبض قلبه وفكره ومشاعره وكل حواسه بحب الله. ويظهر هذا في حديثه مع الآخرين حيث يصبح الله هو مركز حديثه وحواراته وأفكاره. حتى أثناء نومه، تصبح أحلامه مقدسة وطاهرة يحلم دائماً بالعذراء والقديسين، أو يحلم أنه في الكنيسة يحضر قداساً ويتناول من جسد الرب ودمه، أو أنه واقف في التسبحة يسبح الله أو يرتل مزموراً ...

ونقي القلب لا يكون فكره فقط هو الملتصق بالله، بل كل قلبه ومشاعره وحواسه. يصبح وكأنه في عالم آخر، أو كإنسان مسبي في حب الله.

سابعاً: نقاوة القلب امتداد لحياة الملكوت

حينما يصل الراهب إلى النقاوة الكاملة، يكون قلبه قد مات بالتمام عن أباطيل العالم كلها، لكي يحيا بالتمام للرب، ويصبح كل انشغاله بالأمور الإلهية التي لا ترى. ويستحق تطويب الرب له بمعاينة الله والملائكة والقديسين. ويعيش أيامه الباقية كأيام السماء على الأرض، ويعطيه الرب هذه النعمة الكبيرة وهي معاينة الله كامتداد لحياة الملكوت التي سوف يناها في الأبدية. وهنا يكون الراهب قد استحق قول الرب " طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله " (مت ٥: ٨).

ويقول مار إسحاق:

✠ " التدبير الروحاني (الدهش بالله).. لا يُقتنى إلاّ بنقاوة القلب " (١).

✠ " إذا كنت نقي القلب فحينئذ تكون السماء داخلك وترى في نفسك الملائكة ورب الملائكة أيضاً " (٢).

✠ " النقاوة هي ميناء القديسين الذين شقوا وتعبوا هنا بالآلام، وبمعونة الله نجوا حياتهم إلى البلد الخالي من عثرات الشرور

(١) الحياة مع المسيح لنيافة الأنبا متاؤس ص٢٦.
(٢) حياة الصلاة الأرثوذكسية طبعة دير السريان ص٢٨٠.

والحسد والحقد والمفاوضات ومرارة النفس. بلد السلام والأمن والفرح " (١).

✠ " النقاوة لا تسمى فضيلة لأنها ليست طريقاً تنفلح بها الفضائل للسيرة بل هي نياح القديسين، البلد الصافي الخالي من الشرور والآلام وهو مملوء سلاماً وفرحاً، وفيه يستريح المتعبون ويتنعمون بأسرار الله ويؤهلون لمعرفة سر العالم الجديد الروحاني الحر " (٢).

ويقول الأب يوحنا (من كرونستادت):

" يجب علينا كمسيحيين أن نكون ذوي قلوب نقية حتى نستطيع بما وهب لنا من إنارة عيوننا القلبية أن نتمتع بحب الله وكمالاته وجمال الملائكة ومجد العذراء وبهاء نفسها كأم الله الكلمة، وحسن أنفس القديسين وحبهم لنا " (٣).

ويتعجب القديس أفرام السرياني قائلاً:

" أنه مدهش ويستحق العجب كون الذي لا تستطيع الملائكة أن تنظر إليه ولا ينطق به البشر أو يدركه عقل ما،

(١) الحياة مع المسيح لنيافة الأنبا متاؤس ص٣٠٣.
(٢) الحياة مع المسيح لنيافة الأنبا متاؤس ص٣٠٤.
(٣) حياة الصلاة الأرثوذكسية طبعة دير السريان ص٢٨١.

يتنازل بدخوله قلب الإنسان ويسكن فيه! هو مخفي عن الأعين النارية التي للسارافيم ويُرى ساكناً في مخادع القلب! الأرض لا تقوى على حمل خطواته، والقلب النقي يحمله داخلاً منه! السماء أصغر من أن تستقر على كفه، ويجد في القلب متسعاً لسكناه! كل الخليقة لا تستطيع أن تحتويه بأقصى حدود اتساعها، وإذا طلبه قلب صغير فهو يسعه ويحتويه! لقد اختار الله مكاناً صغيراً في الإنسان لسكناه، فإذا دخل فيه صار الإنسان كله هيكلاً لله!

النفس هي هيكل الله، والقلب هو المذبح المقدس الذي عليه تقدم ذبائح التسبيح والحب الطاهر، والعقل هو الكاهن الذي يقوم بشرف الخدمة هناك " (١).

وقال أيضاً مار أفرام السرياني: " احرص على طهارة جسدك وسلامة قلبك، فإنك إن تحققت من نوالهما أبصرت الله ربك " (٢).

ويقول القديس أنبا مقار: " كمثل الحديد إذا طرحته في النار يصير أبيضاً ويُنقّى من الأوساخ، هكذا النفس إذا ما حل فيها الروح القدس المعزي وسكن فيها تصير نقية كالثلج وتلمع

(١) حياة الصلاة الأرثوذكسية طبعة دير السريان ص٢٨١.
(٢) بستان الرهبان ص١٩٦.

ببياض الفضيلة حتى تنسى الأرضيات وتشتاق إلى السمائيات، وتوجد في كل وقت سكرانة بالإلهيات وتشتاق إلى العلويات من أجل نقاوتها وطهارتها، حتى يظن الإنسان أن صاحب هذه النفس قد انتقل من هذا العالم إلى الحياة الأبدية بربنا يسوع المسيح، وينتظر الجزاء الكامل في الدهر الآتي الذي لا يفنى للأبرار " (١).

(١) فردوس الآباء جزء ١ ص٢٨٢، ٢٨٣.

في الختام

هلم نبني أورشليم
(العمل الأعظم)

❖ لن نقلل من قيمة العمل العظيم الذي قامت به الأديرة من البناء والتعمير كبناء القلالي، وبناء المشروعات الصغيرة .... واستصلاح الأراضي وزراعتها وإقامة أديرة رهبانية جديدة.... ولكن ينبغي أن نستكمل هذا العمل المادي بخلق حياة روحية فيه.

❖ هلموا نبدأ في بناء أورشليم، نبدأ في بناء أرواحنا وروحياتنا المنهدمة، إنه عمل شاق وصعب ولكن لنا ثقة في إلهنا الذي يعطينا النجاح، ويشعل الفتيلة المدخنة بروحه القدوس.

❖ إن كثيرين يستطيعون أن يقوموا بالعمل العظيم من بناء وتعمير .... لكن قليلون هم الذين يستطيعون أن يقوموا بالعمل الأعظم أي العمل الروحي أو البناء الروحي.

❖ لقد شملنا جميعاً الوهن والضعف في روحياتنا من جراء العمل العظيم الذي قمنا به، ولكن لنا ثقة في إلهنا الذي يجدد مثل النسر شبابنا، ويرجع إلينا ما فقدناه من روحيات.

❖ لقد اكتمل العمل في الاتجاه الأفقي، وعلينا أن نبدأ العمل في الاتجاه الرأسي. فأمامنا أفاقٌ ممتدة ملء قامة المسيح. إنه حقاً

عمل شاق يحتاج إلى جهاد عظيم، ولكن دعنا نخطو على أول درجة في السلم الروحاني.

❖ هلموا الآن يا إخوتي يا من أُخترتُم لهذا الطريق، فلنقطع عهداً مع إلهنا أن نعيش الحياة الرهبانية كما عاشها آباؤنا الأول، ونسترجع الآداب الرهبانية التي وضعوها وسلكوا فيها.

❖ أين نحن من آبائنا الذين كانوا يطوون الأيام والأسابيع في صوم ونسك شديد؟ أين نحن من آبائنا الذين كانوا يقضون الليل كله في الصلاة كمعلمهم المسيح؟ أين نحن من آبائنا الذين كانوا يعيشون الصلاة الدائمة كل حين بترديد صلاة يسوع؟ أين نحن من آبائنا الذين كانوا يقضون الأسابيع في الحبس وفي جهاد روحي شاق في الميطانيات وفي مواجهة مرئية مع قوات الشر الروحية؟ أين نحن من اتضاعهم ومحبتهم وخدمتهم .....؟

❖ **أبي الراهب** أدعوك أن تقف وقفة صغيرة مع نفسك، ثم انطلق بعدها بقوة في الطريق الرهباني السليم الذي رسمه لنا آباؤنا، ولي ثقة وإيمان بإلهي أنك ستصل في نهايته إلى الملكوت وتنال الجعالة العليا آمين يكون.

ولإلهنا الصالح كل مجد وكرامة وعظمة وسجود
إلى أبد الآبدين آمين

أهم المراجع

١ – الكتاب المقدس بعهديه

٢ – السنكسار جزء ١، ٢

٣ – بستان الرهبان

٤ – كتب لقداسة البابا شنوده الثالث

٥ – بستان الروح جزء ٣ – المتنيح الأنبا يوأنس

٦ – سمو الرهبنة لنيافة الأنبا متاؤس

٧ – الحياة مع المسيح – نيافة الأنبا متاؤس

٨ – حياة الصلاة الأرثوذكسية طبعة دير السريان العامر

٩ – فردوس الآباء جزء ١، ٢، ٣

١٠ – كيف نحيا مع الله

١١ – مناظرات يوحنا كاسيان

١٢ – سأل أب شيخاً

١٣ – قصة الكنيسة القبطية جزء ٣– إيريس حبيب المصري

١٤ – ميامر مار إسحاق – أبناء البابا كيرلس السادس

١٥ – السلم إلى الله – إصدار دير مار جرجس الحرف

١٦ – التعزيات الإلهية – الأستاذ سعد ميخائيل

١٧ – القديسة آنا سيمون – الأستاذ نبيه نصر

الفهرس

الموضوع	صفحة
إهداء	٧
تقديم نيافة الأنبا متاؤس	٨
مقدمة الكاتب	٩
(١) المحبة الروحانية في المجامع الرهبانية	١٣
(٢) الفرح الروحاني في المجامع الرهبانية	٩٩
(٣) السلام الروحاني في المجامع الرهبانية	١٤٣
(٤) الصداقة الروحانية في المجامع الرهبانية	١٨١
(٥) تأثير الجو الروحي على الحياة الرهبانية	١٩٩
(٦) بركات السكون في الحياة الرهبانية	٢٢٩
(٧) وضوح الهدف في الحياة الرهبانية	٢٧١
(٨) نقاوة القلب في الحياة الرهبانية	٣١١
في الختام	٣٨٠
أهم المراجع	٣٨٢
الفهرس	٣٨٣

كتب للمؤلف

١ – سفر الرؤيا مع مردات أبوغالمسيس
٢ – دليل الطقوس الكنسية على مدار السنة التوتية
٣ – بستان الفضيلة
٤ – زهور وثمار في البراري والقفار
٥ – سيرة راهب معاصر (القس أوغريس السرياني)
٦ – راهب ناسك (القمص أرمانيوس السرياني)
٧ – راهب مثالي (القمص سمعان السرياني)
٨ – ملاك من السماء (القمص أنجيلوس السرياني)
٩ – المعاني الروحية في طقس القداس الإلهي
١٠ – روحانية اللحن القبطي في القداس الباسيلي
١١ – آلام أيوب الصديق كرمز لآلام السيد المسيح
١٢ – شخصيات كتابية ترمز للسيد المسيح
١٣ – العمق الروحي في لحن " بيك إثرونوس "
١٤ – سيرة المتنيح الأنبا ثاؤفيلس (١٩٠٨م – ١٩٨٩م)
١٥ – القداس الإلهي رحلة إلى حفل عشاء عرس الخروف
١٦ – بركات الحياة الرهبانية